

بسم الله وبعد: تم الرفع بحمد الله من طرف بن عيسى ق متخرج من جامعة المدية سنة 2007

للتواصل وطلب المذكرات :

بريدي الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

MSN : benaissa.inf@hotmail.com

Skype :benaissa20082

هاتف : 0771087969

دعوة صالحة بظهر الغيب....

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم علم الاجتماع والديموغرافيا
رقم التسجيل : ....
رقم التسلسل : ....

علم اجتماع بيار بورديو

دراسة لنيل شهادة دكتوراه العلوم

إعداد الباحث :

عبد الكريم بزاز

مدير البحث:

أ.د / نورالدين بومهره

لجنة المناقشة

1-	أ.د / بلقلسم سلاطنية	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	رئيسا
2-	أ.د / نورالدين بومهره	أستاذ التعليم العالي	جامعة قالمة	مقررا
3-	أ.د / حميد خروف	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري	عضوا
4-	أ.د / إسماعيل قيرة	أستاذ التعليم العلي	جامعة منتوري	عضوا
5-	أ.د / صالح فيلالي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري	عضوا
6-	د / عبد الحكيم بوهروم	أستاذ محاضر	جامعة عنابة	عضوا

السنة الجامعية : 2006 - 2007

شكر وتقدير

يرجع الفضل في إنهاء هذا العمل إلى نصائح وتوجيهات وتشجيعات الأستاذ

الفاضل نور الدين بومهرة ،أستاد التعليم العالي في علم الاجتماع . فله ألف

شكر وتحية تقدير . فهو نعم الاستاذ ونعم المؤطر والمشرف .

كما لا يفوتنا ان نشكر كل الزملاء الأساتدة الذين شجعونا على إنهاء هذه الأطروحة.

الفهرس

6 الحقول الاجتماعية

7- الحقل يمكن اعتباره كسوق يسلك فيه الأعوان كلاعبين

8- الحقول ليست فضاءات ذات حدود مغلقة تماما ومستقلة:فهي متمفصلة فيما بينها

9- القيمة الاستكشافية لهذه المقاربة يمكن توضيحها بدراسة الحقل الاقتصادي

10- الحقل الاقتصادي استقل تدريجيا

3- إعادة الإنتاج والتغير الاجتماعي:

آليات الحفاظ على النظام الاجتماعي يبدو أنها تحتل الصدارة في المجتمعات المعاصرة

إن تعدد إستراتيجيات إعادة الإنتاج لا تستلزم غياب تعديل البنية الاجتماعية

إن موقع الطبقات الاجتماعية المختلفة في الفضاء الاجتماعي تغير من جراء التطور البنيوي للمجتمع .

1- **تكوبن الملكة**

- يسمح مفهوم الملكة بفهم بأية صفة يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا
- الملكة هي نتاج الموقع والمسار الاجتماعي للأفراد
- الانتماء الاجتماعي يهيكل الكتسبات وينتج ملكة طبيقية
- كل فرد ما هو إلا متغير من ملكة طبقية.

2- **الآثار البنيوية للملكة**

- الملكة هي عامل مفسر لمنطق إشتغال المجتمع
- تجانس الملكات داخل نفس الجماعة هو أساس اختلافات أساليب الحيـــاة فـــي المجتمع .
- كل حقل يتميز بأعوان مزودين بملكة متشابهة
- الملكة تضمن الضبط الاجتماعي
- الملكة عامل قوي لإعادة الإنتاج الاجتماعي
- الملكة تتأثر بالتغير الاجتماعي

الفصل الخامس:المدرسة وإعادة الإنتاج الاجتماعي 99-115

1- المدرسة أداة خفية للهيمنة

- الثقافة المدرسية هي ثقافة الطبقة المهيمنة
- مقاييس الحكم على الامتياز المدرسي مقاييس اجتماعية
- أيديولوجية الموهبة تخفي آليات إعادة الإنتاج
- إن أيديولوجية الموهبة مطابقة للحس المشتركأيديولوجية
- الموهبة تبرر التفاوت وعدم المساواة المدرسية ومنها الاجتماعية
- الطبقات الشعبية تخضع لعنف رمزي
- العلاقة البيداغوجية هي علاقة قوة قائمة على افتراضات ضمنية -
- العلاقة بين مختلف الثقافات ينجر عنها تثاقف له نتائج سلبية

2 - **ديمقراطية التعليم والحراك الاجتماعي**

إن دراسة الظواهر تكشف وجود علاقات مفارقة بين التعليم والحراك الاجتماعي الطبقات الاجتماعية تتميز من خلال إستراتيجيتها استعمال المنظومة التعليمية غير عادل إن دراسة الإستراتيجيات المدرسية يمكن أن تبدو تعسفية واعتباطية.

الفصل السادس: الثقافة 116-134

1-الثقافة رهان طبقي .

الثقافة: رهان للصراعات- منطق إنتاج "الثقافي " يمر على استقلالية الحقل الثقافي الثقافة المسيطرة تفترض عملا للمشرعة يمر عبر الصراعات الرمزية صراع الطبقات يأخذ شكل صراع رمزي العنف الرمزي يقوم على فرض مقولات إدراك العالم الاجتماعي نشر المعتقدات يتم بفضل المؤسسات.

الفصل الأول

* عناصر من السيرة الذاتية: المسار الفردي والسياق الاجتماعي

* المسار الفكري لبيار بورديو يبين تحولا من الفلسفة إلى علم الاجتماع

* النظرية لا تصاغ أبدا من فراغ اجتماعي،فهي تسجل في سياق خصوصي يقولب الإشكاليات

* الدراسات الاولى لبيار بورديو اهتمت بالانثروبولوجيا ولكنها دون أن تدخل ضمن البنيوية الكلاسيكية

* مقاربة بورديو كانت وراء نشأة تيار في علم الاجتماع

- 2- النسب النظري

الاستعارات من ماركس هي موضوع إعادة التعريف من طرف بورديو

من ماكس فيبير احتفظ بورديو خاصة بدور التمثلات في التحليل السوسيولوجي وبمفهوم الشرعية

إسهامات دوركايم كانت حاسمة

المقدمة

منذ عشرات السنين وبيار بورديو PIERRE BOURDIEU يساهم في تجديد التساؤل العلمي،فهو مؤسس لنموذج ومنسق تفكيري في علم الاجتماع وإلى جانب اتسام أعماله بالثراء والخصوبة، فهي كذلك موضوع لانتشار واسع البعض طبع منها أجيالا كاملة من المثقفين مثل الورثة LES HERITIERS وإعادة الإنتاج LA REPRODUCTIONوالتميز LA DISTINCTION ،في حين أن أحد آخر كتبه ألا وهو بؤس العالم LA MISERE DU MONDE عرف شهرة قلما تعرفها الكتب في العلوم الاجتماعية.

إن موقعا كهذا في الحقل السوسيولوجي يفسر أولا من خلال أصالة وفرادة ردود بيار بورديو على التساؤلات التي تخترق تاريخ علم الاجتماع منذ نشأته من شكل:

* ما هو علم الاجتماع وما دوره؟

* ما هو المجتمع وكيف يعاد إنتاجه أو عكس ذلك هل يتغير المجتمع؟

* ما هي مكانة الفرد ؟

يؤكد بيار بورديو وعلى غرار دوركايم DURKHEIM على إمكانية المعرفة الاجتماعية للعالم الاجتماعي LE MONDE SOCIAL.هذه المعرفة التي بالإضافة إلى خصوصية موضوعها تعرف كذلك من خلال خصوصية طريقتها المنهجية .

وكما هو الحال عند ماركس MARX ،يرى بورديو أن المجتمع مكون من طبقات اجتماعية متصارعة بغرض امتلاك الرساميل المختلفة وأن علاقات القوة والمعنى تساهم إما في استدامة النظام الاجتماعي وإما في إعادة النظر فيه.

وعلى غرار ماكس فيبيرWEBER يذهب بورديو إلى أنه من الضروري أخذ بعين الاعتبار التمثلات الاجتماعية المصاغة من قبل الأفراد لإعطاء معنى للواقع الاجتماعي.

لكن الطابع التجديدي لمقاربة بيار بورديو التي وصفها البعض بالثورة الرمزية المماثلة لتلك الثورات التي نراها في الحقول العلمية الأخرى يكمن في إرادته تجاوز المعارضات التقليدية في علم الاجتماع بين الموضوعاتية والذاتوية وبين الرمزي والمادي وبين الهولي (الشمولي) والفردي من أجل تأسيس مقاربة يمكن تسميتها بالبنيوية النشوئية STUCTURALISME GENETIQUE أو البنائية CONSTRUCTiVISME .

إن تأثير بيار بورديو يرجع كذلك إلى الوظائف التي يخولها لعلم الاجتماع حيث أنه ينظر إلى المجتمع من خلال الهيمنة التي يمكن ملاحظتها حتى في الممارسات التي تبدو عادية كاختيار لباس معين أو التعبير عن ذوق ما.كما تتجلى الهيمنة كذلك من خلال إستراتيجيات الأعوان AGENTS في الحقول الاجتماعية المختلفة أين يشغلون مواقع متفاوتة.

إن هدف علم الاجتماع يكمن في إضفاء الطابع الموضوعي على علاقات الهيمنة بالكشف عن آلياتها وبإعطاء للمهيمن عليهم الأدوات الفكرية والعملية التي تسمح لهم برفض شرعيتها وشرعنتها.

ان الحديث بطريقة سوسيولجية عن سوسيولوجي مثل بيار بورديو ليس بالامر الهين لان هدا يعني ان نتبى بطريقة او باخرى موقف يعكس لا محالة موقع هدا العالم من الحقل السوسيولوجي .وخلافا للنظرة الضيقة التي حاول البعض حصر اعماله فيها فان بورديو لم يتصور ابدا الحقل وكانه علاقات قوى عمياء .في الحقل توجد امكانيات حقيقية للتغيير ولكنها مختلفة حسب المواقع التي نشغلها.

وعليه فانه من التادر ان نجد اليوم من يشكك في ان اعمال يورديو لم تحدث تغيرا في طريقة القيام بالفعل السوسيولوجي.

وان كان من الطبيعي ان تثير اعمال بورديو العديد من التقاشات والانتقادات فهدا يرجع لكون بورديو تعرض لمواضيع متنوعة انطلاقا من المنزل القبائلي الى نشاة الدولة مرورا بالحقل الاقتصادي والهيمنة الدكورية والنظام التعليمي والادب واللباس الفاخر وفلسفة هايدغر واساليب الحياة ...

ان مقاييس تقييم أي عمل علمي ترجعنا الى ما قاله باشلار بطريقة شبه رسمية الى الفعل الابستيمولوجي بمعنى الفعل الدي لا يمكن حصره فقط قي النتائج من خلال الحديث عن الاجراءات المتبعة في أي عمل علمي ممعير المتمثل في جملة من العمليات المفهومية والتقنية التي يقوم بها الباحث.

ان عمل بورديو يعطينا الادوات والوسائل اللازمة لتجاوز التعارض الفكري السائد في حقل العلوم الاجتماعية ولاسيما في علم الاجتماع ويكشف لنا الضرر الدي لحقه من جراء التشبث بهدا التعارض الوهمي.

ويمكن القول ان عملا علميا كعمل بورديو لا يتميز فقط برهاتاته التظرية لان النظرية ما هي الا تمرين ممنهج للمسؤولية الفكرية لان الامر يتعلق قي هده الوضعية بمعرفة مادا نفعل حقيفة عندما نقوم بالفعل العلمي وهو ما يستلزم ليس صباغة منظومات

او نمادج وانما التحكم كدلك في العلاقة مع الموضوع وفي الافتراضات المفاهيمية وفي المنهجية المطبقة في دات السياق .

ولفهم خصوصية أعمال بيار بورديو يتوجب في البداية تبيين مميزات المفكر والسياق التاريخي والنظري الذي أثر في مساره وفي تصوره لعلم الاجتماع وهو موضوع الفصل الأول وفي الفضل الثاتي نتعرض للابعاد المنهجية لعلم اجتماع بورديو وسيتعلق الأمر بعد ذلك في القصول الموالية بمساءلة المفاهيم المركزية التي وظفها بورديو لتوصيف وتفسير منطق اشتغال المجتمع وممارسات الأعوان كما نحاول اكتشاف مدى ملاءمة مقارية بيار بورديو لمسائل كالثقافة والمدرسة والملكة والحقل المثقفين والسوق اللغوية والهيمنة الدكورية والراسمال الرمزي وفي الفصل الاخير تقوم بتقيم لعمل بورديو ولانتشاره في الاوساط العالمة.

لا يوجد اليوم كتاب في علم الاجتماع لا نجد فيه صفحات مخصصة لمقاربة بيار بورديو ، وحسب التوجه النظري للمؤلف فإن الأهمية المعطاة لبورديو يمكن أن تتغير بشدة. ولكن سواء تعلق الأمر بالتنويه بإسهاماته أو بتبيين حدودها فهو يظل"مؤلفا كبيرا " .هذا الاعتراف جعله يصبح ضمن المقررات الجامعية في العلوم الاجتماعية على غرار طوكفيل TOCQUEVILLEومارك MARXوفيبير WEBER ودوركايمDURKKHEIM .

إن الأهمية المعطاة اليوم لعلم اجتماع بيار بورديو تنزع إلى نسيان بأنه نتاج مخاض طويل .فهو قبل كل شيء يرجع إلى المسار الفردي للمؤلف الذي يتميز بجملة من "القطيعات "الشخصية :مع وسطه الأصلي ومع تكوينه الأولي ومع التيارات الفكرية المهيمنة ،وهو كذلك في ملتقى الإرث الذي تركه الأباء الثلاثة المؤسسون لعلم الاجتماع .

1 -عناصر من السيرة الذاتية : المسار الفردي والسياق الاجتماعي

-المسار الفكري لبيار بورديو يبين تحولا من الفلسفة إلي علم الاجتماع :

إن إعطاء معالم حول السيرة الذاتية لكاتب ليس بالأمر الهين خاصة وأن علم اجتماع بورديو كما سنتعرض لذلك يؤسس الممارسات الفردية والاجتماعية حول الملكة التي تبنى في التاريخ الفردي والجماعي من جهة ومن جهة أخرى فإن إبستيمولوجية العلوم الاجتماعية تستلزم "إضفاء الطابع الموضوعي على الذات التي تموضع" بمعنى أن نطبق على عالم الاجتماع نفس المبادئ العلمية التي تطبق على أي موضوع للدراسة .

<< من الطبيعي أنه عندما أثرت الانتباه في كتاباتي حول مفعول وتأثير الأصل الاجتماعي أن أكون دائما معرضا لأسئلة شخصية أو لتساؤلات والتي أحاول

مقاومتها دون شك للإفلات من كل نوع من الخصوصية حتى وإن كانت سلبية ولكن كذلك للدفاع عن الاستقلالية وهي غالية الثمن بالنسبة لخطابي تجاه الشخص الخصوصي المتمثل في أنا .وهذا لا يعني أن هذا الشخص يستطيع أن يفلت من التموضع . يمكن أن أكون محل تموضع كما هو حال كل الناس وككل الناس لدي الذوق والأفضليات التي تتطابق مع الموقع الذي أحتله في الفضاء الاجتماعي .إنني مصنف اجتماعيا وأعرف جيدا الموقع الذي أحتله في التصنيفات الاجتماعية .إذا فهمتم عملي يمكنكم استخلاص عدد من الخصائص الدالة على معرفتي لهذا الموقع وما اكتب عنه .<<[1]

وفي هذا الصدد فإن العناصر البيوغرافية تسمح الكشف عن بعض الخصائص الموضوعية للكاتب .

ولد بيار بورديو سنة 1930 في دينغين DENGUINفي البيرينيه الأطلسيةPYRENEES-ATLANTIQUES من والد موظف.تزوج في 2 نوفمبر 1962 وله ثلاثة أطفال .درس في ثانوية بوPAU وفي ثانوية لوي لو غران LOUIS-LE-GRAND وفي كلية الآداب بباريس وبالمدرسة العليا للأساتذة ،وبعد تحصله على شهادة التبريزAGREGATION عين أستاذا بثانوية مولانMOULINS في 1955 كما درس على التوالي في كلية الآداب بجامعة الجزائر في الفترة ما بين 1958و 1960 وجامعة ليلLILLE بين 1961

و 1964 وابتداء من 1964 في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعيةEHESS وفي سنة 1981 رسم في كرسي علم الاجتماع بالكوليج دي فرانس COLLEGE DE FRANCE

---

[1] P. BOURDIEU AVEC L. J.P D.P WACQUANT, REPONSES...POUR UNE ANTHROPOLOGIE REFLEXIVE , PARIS , LE SEUIL , 1992, P. 175-176

وبالموازاة مع ذلك فهو يشغل منصب مدير في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية ومديرا لمركز علم الاجتماع الأوروبي ويشرف على مجلة أعمال البحث في العلوم الاجتماعية ACTES DE LA RECHERCHE EN SCIENCES SOCIALES منذ تأسيسها سنة1975 وحول مساره يقول بورديو :

<< من الواضح أن التحول الذي قمت به للمجيء إلى علم الاجتماع لم يكن دون علاقة مع مساري الاجتماعي لقد قضيت الجزء الأكبر من شبابي في قرية صغيرة ونائية في الجنوب الغربي لفرنسا ، ولم أتمكن من إرضاء طلبات المؤسسة المدرسية إلا بالتخلي عن الكثير من تجاربي وعن مكتسباتي الأولية وليس فقط عن نوع معين من اللهجة ... في فرنسا كوننا نأتي من محافظة بعيدة تقع جنوب نهر اللوار يعني أننا نحمل عددا من الخصائص معادلة للوضعية الكولونيالية .إن نوع العلاقة الخارجية الموضوعية والذاتية المترتبة عن ذلك تساعد على وجود علاقة خصوصية جدا مع المؤسسات المركزية للمجتمع الفرنسي وبالخصوص مع العالم الفكري .توجد أشكال حذقة للعنصرية الاجتماعية التي لا يمكن إلا أن تذكي شكلا من أشكال النباهة ، ولكوننا دائما نذكر بأجنبيتنا فهذا يدعو إلى إدراك أشياء لا يستطيع الآخرون رؤيتها أو الإحساس بها ، وعلى الرغم من أنه صحيح أني إنتاج المدرسة العليا للأساتذة ولكن إنتاج خانها.>>[1]

-النظرية لا تصاغ أبدا من فراغ اجتماعي ، فهي تسجل في سياق خصوصي يقولب الإشكاليات.

---

[1] **P. BOURDIEU AVEC L.J.D. WACQUANT OP.CIT. P.176-177**

إن الإطار التاريخي لتكوين بيار بورديو مر بعدة أحداث اجتماعية -سياسية .على الصعيد الدولي ،إذ شهدنا في الخمسينيات نهاية الستالينية (يتوفى ستالين في 1953) ومواصلة الحرب الباردة ، والصراع السياسي والإيديولوجي بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي ، وفي الستينيات ترتبت عن تصاعد المطالب الوطنية ، حركة واسعة لتصفية الاستعمار . وعلى الصعيد الداخلي دخلت فرنسا في "الثلاثينات المجيدة "TRENTE GLORIEUSES، وهي مرحلة من الازدهار الاقتصادي حيث الإنتاج الجماهيري والاستهلاك الجماهيري حسنا من مستوى المعيشة مما أدى ببعض المحللين إلى التكهن بأن المجتمع وصل إلى المرحلة الوسطى MOYENNISATION DE LA SOCIETEوإلى تبرجز الطبقة العاملة .كما أن هذه المرحلة شهدت كذلك تيارات فكرية مهيمنة . في الفلسفة فان المقاربة التي سيطرت في السنوات الخمسين هي الفينومينولوجياPHENOMENOLOGIE . ويتعلق الأمر بفلسفة ذاتوية تعتبر الظاهرة -بمعنى ما يظهر لضمير الفرد -كالحقيقة الواحدة المعرفة . ومثل هذا التيار الفيلسوف هوسرل HUSSERL(1859-1938) ،ولكن يمكن إضافة مفكرين آخرين كما هو الحال بالنسبة لهايديغيرHEIDDEGER (1889-1976)،وسارترSARTRE (1905-1980) وميرلو- بونتي-MERLEAU PONTY (1908-1961) .وتعتبر النزعة الجوهرية إحدى مظاهرها ويتعلق الأمر بتمثل العالم في شكل ماهيات وجوهر وطبيعة أزلية ومضامين ثابتة .

وبالموازاة مع ذلك نشهد انتصار البنيويةSTRUCTURALISME وبصفة عامة يتعلق الأمر بمحاولة الوصول إلى تفسير علمي في شكل بنى . والبنية تتمثل في جملة من العناصر المشكلة لنسق تكون العناصر متداخلة فيما بينها بحيث تشكل

كلا منظما إلى درجة أن أي تغيير في واحد منها يترتب عنه تحول في كل العناصر الأخرى . استعمل هذا المفهوم في ميادين عديدة في اللسانيات مثلا من طرف سوسيرSAUSSURE وفي الانثروبولوجيا من طرف كلود- ليفي ستروسCLAUDE LEVI-STRAUSS وفي الفلسفة من طرف ألتوسيرALTHUSSER

والبنيوية وجهة نظر موضوعاتية وفي هذا الصدد فإن البنى تعتبر كواقع موجود موضوعيا ويفرض منطقه من الخارج على الأعوان الاجتماعيين الذين يخضعون له تماما إلى درجة انهم لا يشعرون به .وهكذا فإن البنى النحوية تفرض في كل التبادلات اللغوية كما هو الحال بالنسبة لبنى القرابة التي تتحكم في كل الزيجات .

كما أن تأثير الماركسية ظل حاسما في هذه المرحلة، ففي فرنسا تشهد وجوديةEXISTENTIALSME جان بول سارتر على ذلك وعلى الرغم من أنه غير ماركسي فإنه يقدم نفسه ك"رفيق الدرب " بالنسبة للماركسية التي يرى بأنها "فكر لا يمكن تجاوزه في عصرنا "لقد حاول سارتر إحداث القطيعة مع المقاربة الميكانيكية والحصرية بتأسيس" ماركسية وجودية " ويؤكد أن الوجود يسبق الماهية وأن الأفراد من خلال ممارستهم وأفعالهم هم الذين يعيدون إنتاج أنفسهم بكل حرية يتم ذلك داخل تعددية تجاربهم الاجتماعية إلا أن فشل هذه المقاربة كان ذريعا منذ نهاية الخمسينيات . وعلى العكس من ذلك سيكون الاجتياح الفكري الذي حققته البنيوية وراء محاولة التقارب بين هذا التيار والماركسية .وبالفعل فإن لويس التوسير يقترح ماركسية بنيوية وهي قراءة تحاول أن تبين الطابع العلمي لمؤلفات ماركس . ويتمثل موضوع كتابه رأس المال في

دراسته النظام الرأسمالي وفي صياغة المفاهيم المؤسسة لعلم حقيقي خاص بدراسة كل تشكيلة اجتماعية وكل أسلوب إنتاج

-الدراسات الأولى لبيار بورديو اهتمت بالانثروبولوجيا ولكنها دون أن تدخل ضمن البنيوية الكلاسيكية .

صحيح أن هذه المقاربة تشكل مصدر تفكير هام ومرموق بالنسبة للمؤلف وأثرى تحليله بواسطة مبادئ الانثروبولوجبا ومن خلال نقدها كما يحتفظ ببديهية أساسية وهي: أهمية انساق العلاقات بين الأفراد والطبقات لفهم الظواهر الاجتماعية ،ولكنه يقوم بنقد وبتعديل البنيوية من جهتين :فهو يعيب عليها إغفال وجهل المعنى الذي يعطيه الأعوان لأفعالهم ، هذا المعنى الذي مع ذلك يوجه ويرشد ممارساتهم ولمفهوم القاعدة يضيف مفهوم الإستراتيجية :الفاعلون الاجتماعيون لهم القدرة على مواجهة الوضعيات غير المنتظرة والمتجددة باستمرار ودائما وفي الحقول الاجتماعية المتنوعة فهم يعرفون كيف يربطون بين الوسائل والغايات للحصول واكتساب الخيرات النادرة .

إن إدخال هذين المظهرين هو هدف بعض دراساته التي قام بها في الجزائر . ففي سنة 1972 ينشر كتابه "خطاطة لنظرية الممارسة "[1] وهو الكتاب الذي يحلل فيه بدقة الظواهر الاجتماعية كالتحدي والقرابة والمنزل القبائلي وفيه يخطئ الكثير من النظريات البنيوية بتبيين أن الزواج مع بنت العم يعتبر في الواقع شاذا واستثنائيا وليس القاعدة خلافا لأطروحات النظرية البنيوية التي طورها كلود ليفي ستروس .

وهكذا بعد تكونه في الفلسفة وتحوله إلى الانثروبولوجيا يكتشف بورديو شيئا فشيئا علم الاجتماع ولم يحدث ذلك بدون قطائع :

---

[1] **P. BOURDIEU, ESQUISSE D UNE THEORIE DE LA PRATIQUE,DROZ,GENEVE,1972**

<< كنت اعتقد أنني فيلسوفا واستغرقت ذلك وقتا طويلا حتى اعترف بأنني أصبحت إثنولوجيا >>[2]

<< ما قمت به في علم الاجتماع وفي الاثنولوجيا قمت به على الأقل ضد تكويني اكثر منه بفضل تكويني (...) ما أريد قوله ببساطة وهو أنني أجبرت على إحداث القطيعة مع المزاعم الخاصة بالتسامي النظري المسجلة في مساري كطالب في الفلسفة تخرج من المدرسة العليا للأساتذة ،مع الاعتماد دائما على تكويني ولا سيما تكويني الفلسفي .عندما كنت أدرس الطلبة الذين يتميزون بتحصيل ممتاز لم يكونوا ليقبلوا -إلا إذا أرادوا الشذوذ عن القاعدة - القيام بمهام عملية مبتذلة جدا كتلك التي تعتبر جزءا من مهنة عالم الاجتماع .العلوم الاجتماعية صعبة وذلك لأسباب اجتماعية :فعالم الاجتماع هو شخص يذهب إلى الشارع ويسأل من يجد أمامه ، يسمعه ويحاول أن يتعلم منه >>[3]

2- مقاربة بورديو كانت وراء نشأة تيار في علم الاجتماع :

لفهم ذلك لا بد من التذكير بأن علم الاجتماع ليس بفرع موحد .وبالفعل فهو ينقسم إلى عدة تيارات تتعارض في تعريفها للفرد وللمجتمع .إن الحديث عن التنوع في المقاربات السوسيولوجية المعاصرة بإقامة نمطية للتيارات يتعرض لصعوبتين :

من جهة كل نمطية تهدف وتنزع إلى تجميد وضعية وإلى استبعاد الأنماط التي لا تدخل في الفئات التي حددتها وبالتالي فهي نوع من الإعتباط والقسر . ومن جهة أخرى فهي تستبعد الحالات التي توجد في تخوم وحدود الأنماط المختلفة والتي يمكن أن تتداخل أو تتشابك ، بينما في علم الاجتماع يعدد الكثير من علماء

---

[2] P.BOURDIEU,CHOSES DITES,Ed. MINUIT,PARIS,1987,P16.17-
3.L.D.WAQUANT,OP.CIT.P176

الاجتماع التحاليل بالرجوع إلى الحقل المفهومي لمختلف التيارات ويحاولون التوليف بينها . وعلى الرغم من هذه الحدود نستطيع أن نميز بشكل خطاطي بين أربعة أقطاب سوسيولوجية متنافسة في فرنسا اليوم.

- الفردانية المنهجية INDIVIDUALISME METHODOLOGIQUEأو المنفعيةUTILITARISME لريمون بودونRAYMOND BOUDON التي تسلم أن أية ظاهرة اجتماعية مهما كانت صفتها هي نتاج تجميع لأفعال فردية .ومنطق هذه الأفعال لا بد من البحث عنه في عقلانية الفاعلين في معنى قريب من الذي يعطيه الاقتصاديون النيوكلاسيك .

- المقاربة الإستراتيجيةAPPROCHE STRATEGIQUE لميشال كروزييهMICHEL CROSIER وموضوعها الأساسي تحليل علاقات السلطة في التنظيمات (المؤسسات والإدارات).ويبين الكاتب أن الفاعلين عقلانيون ولكن لهم عقلانية محدودة ،لهم هامش من الحرية الذي هو أساس سلطتهم

- علم اجتماع الفعل أو الفعلويةACTIONNALISME لألان تورانALAIN TOURAINE ويقوم على تحليل الحركات الاجتماعية ودورها في التغير الاجتماعي .

- البيوية النشوئيةSTRUCTURALISME GENETIQUE أو البيوية النقدية لبيار بورديو والتي يعرفها صاحبها كما يلي :

<< إذا كنت احب لعبة التوصيمات (...) أقول بأنني أحاول صياغة بنيوية نشوئية : لا يمكن عزل تحليل البنى الموضوعية -بنى الحقول المختلفة - عن تحليل

نشوء البنى الذهنية عند الأفراد البيولوجيين، التي هي إنتاج لاندماج البنى الاجتماعية ولتحليل نشوء هذه البنى ذاتها .>>[1]

كما يتحدث الكاتب كذلك عن البنيوية البنائية :

<<إذا أردت وصف عملي في كلمتين (...) أقول البنيوية البنائية أو البنائية البنيوية وذلك بإعطاء لكلمة" بنيوية" معنى مختلف لذلك الذي تعطيه لها تقاليد سوسير أو ليفي -ستروس . من خلال بنيوية أو بنيوي ،أريد أن أقول أنه يوجد في العالم الاجتماعي ذاته وليس فقط في المنظومات الرمزية والكلامية والأساطير ...بنى موضوعية ومستقلة عن ضمير وإرادة الأعوان الذين هم قادرون على توجيه أو إخضاع ممارساتهم أو تمثلاتهم .ومن خلال بنائية أعني بأنه توجد نشأة اجتماعية من جهة لبنى الإدراك والتفكير والفعل (...)ومن جهة أخرى البنى الاجتماعية >>[2]

لكن تأثير هذا التيار الذي يمثله بورديو تعدل وحتى بداية الثمانينيات يبدو أنه شغل الموقع المهيمن على الرغم من أن تعيين بورديو في الكوليج دي فرانس يترجم ليس فقط تكريسه وإنما كذلك تألقه .وبالفعل فان عشرية الثمانيبيات تميزت بعودة نظريات الفاعل والفردانية المنهجية بقوة .أما النصف الأول من التسعينيات فكان من حظ المقاربة الاثنوميتودولوجية ،المستلهمة من أمريكا والتي تركز اهتمامها على المعرفة العادية لأعضاء المجتمع وعلى الروتين وعلى الإدراكات التي يوظفونها في حياتهم اليومية .

هاتان المقاربتان تتميزان بوضوح عن مقاربة بورديو ولا سيما بعدم أخذ بعين الاعتبار البنى الموضوعية .

اعمال بورديو تفتح المجال أمام العديد من التساؤلات ولكن تظل مؤسسة على إرادة تشكيل أنثروبولوجيا حقيقية .

---

[1] **P.BOURDIEU,CHOSES DITES, OP.CIT. P.24**
[2] **IBID,P.147**

عندما نقرأ مؤلفات ومقالات بورديو نشعر بتوجه أبحاثه نحو اتجاهات عديدة . وبالفعل من دراسة المزارعين والفن والبطالة والمدرسة والقانون والعلم والأدب إلى تحليل القرابة والطبقات والدين والسياسة والرياضة والكلام والمثقفين والدولة فلا نلاحظ لأول وهلة إلا شيئا من التجانس .هذا الشعور يصبح قويا خاصة وأن كتابات بورديو لا تدخل في التقسيمات المؤسساتية التقليدية كما هي مقدمة في الكتب التعليمية الموجهة للطلبة فيعلم الاجتماع السياسي والعائلي والتربية ....

في الواقع يخفي التنوع الظاهري إشكالية موحدة وإرادة علمية مستمرة ودائمة وهي جعل علم الاجتماع علما شاملا وقادرا على استرجاع الوحدة الأساسية للممارسة الإنسانية .وبالإضافة إلى ذلك فإنه يعتبر أن تشتت الفروع السوسيولوجية والتخصص المبالغ فيه للباحثين يضر عملية التراكم في علم الاجتماع ، فهو يقيم حدودا ويرفعها ويؤدي إلى انغلاق الفروع والتخصصات بصفة غير مثمرة وغير منتجة .

واختصارا فإن مساهمة بورديو تتمفصل حول فكرتين متكررتين :آليات الهيمنة والتحكم من جهة ومنطق ممارسات الأعوان الاجتماعيين في فضاء اجتماعي غير متساو وصراعي .وكل عمل له يسعى إلى إعطاء إضافات وتعميقات واستدلالات لهذه التساؤلات .

2- النسب النظري :

إضافة إلى السياق الذي يعيش فيه الكاتب ، لا بد من التذكير أن صياغة نظرية وبناء مفاهيم جديدة يرتكز كذلك على أعمال سوسيولوجية سابقة .الأبحاث لا تتم في فراغ نظري ولكن تقوم على دراسة معقولة لمؤلفين سابقين والذين نستلهم

منهم .إضافة إلى التفكير النقدي المستخلص من دراسة الفلاسفة والبنيويين لا بد من زيادة "الآباء المؤسسين " لعلم الاجتماع : ماركس وفيبير ودوركايم يستوحي منهم بيار بورديو ويستقي الطرائق والمفاهيم مع محاولة إعادة تحديدها وتعريفها ويرمي إلى تجاوزها :

<< من جهتي لدي مع المؤلفين علاقة براغماتية جدا :الجأ إليهم ك"رفقاء" في معنى التقليد الحرفي والذين يمكن أن نطلب منهم مساعدة في الوضعيات الصعبة (...) إن الكتاب ماركس وفيبير ودوركايم ...يمثلون معالم تؤطر فضاءنا النظري وإدراكنا لهذا الفضاء >>[1]

الاستعارات من كارل ماركس (1818-1883) هي موضوع إعادة تعريف من طرف بورديو

إن علم اجتماع ماركس مؤسس على بعض المفاهيم المركزية التي يتوجب التذكير بها لفهم خصوصية الصياغات التي قام بها بورديو .

بالنسبة لماركس فان أسلوب الإنتاج الرأسمالي يتميز بصراع الطبقات الذي أين تتواجه فيه البرجوازية المالكة لوسائل الإنتاج والبروليتاريا التي لا تملك سوى قوة عملها لتبيعها .الأولى تستغل الثانية بالاستحواذ على القيمة الإضافية أو العمل الزائد فهي تمارس سيطرة اقتصادية وسياسية واجتماعية وكذلك إيديولوجية على البروليتاريا .الأيديولوجيا المشكلة للبناء الفوقي هي انعكاس مشوه ومنكل ومحرف للواقع وهي في خدمة مصالح البرجوازية .فهي تؤدي إلى "وعي زائف" : تساهم البروليتاريا في استغلال نفسها بقبول التمثلات الخاطئة للعالم التي تقترحها

---

[1] **P. BOURDIEU,OP.CIT,P.39**

البرجوازية . إلا أن ذلك لن يستمر ولن يدوم حتما لأن الوعي بالاستغلال سيؤدي بالطبقة العاملة إلى الثورة البروليتارية التي تهدف إلى قلب البرجوازية وهذا يستلزم الانتقال من "طبقة في ذاتها" تجمع أفرادا يشغلون موقعا متشابها في علاقات الإنتاج إلى "طبقة لذاتها " مجندة ومعبأة وواعية بمصالحها .

إن هذه المقاربة للطبقات الاجتماعية يمكن أن تعرف كواقعية في مقابل المقاربة الاسميةNOMINALISTE .

في الإطار الأول للتحليل ، تدرك المعرفة الواقع الذي يكون وجوده مستقلا عن التفكير ،وهكذا فإن الجماعات الاجتماعية تشكل وحدة جماعية حقيقية ولها وجود خاص ،أعضائها لهم علاقات مباشرة نوعا ما ولهم نوع من الوعي بالانتماء إلى هذه المجموعة (الوعي الطبقي). هذه المقاربة تتعارض مع التصور الاسمي الذي يرى أن المقولات المستعملة ليست إعادة إنتاج الواقع ولكن اختراعات ممكنة للملاحظ . تعني هذه المقاربة في حقل التدرج الاجتماعي أن الملاحظ الخارجي قام بجمع أفراد لهم خصائص مشتركة .والوحدات المجمعة تشكل فئة اجتماعية ،جملة من الأفراد يتقاسمون بعض الخصائص ولكن لا يكونون جماعة .

بورديو يعدل أطروحات ماركس

لا يمكن وصف العلاقات بين بيار بورديو والماركسية بسهولة .رفض الكاتب دائما إعلان ولائه للفكر الماركسي في حين ينضوي بوضوح في الإطار الدوركايمي . إن اعمال بورديو شيدت خارج الدروب المعبدة من طرف التفكير الماركسي وذلك باتخاذ كمواضيع للدراسة ميادين تعتبرها الماركسية الأرثودوكسية صغيرة (مثل الدراسات حول الثقافة)وعلاوة على ذلك يرفض بيار بورديو توريط البحث السوسيولوجي في التزامات ذات طابع سياسي أو في صياغة نظريات للخلاص

(حتى وان كان كمواطن يتخذ مواقف علانية في شؤون الحياة العامة) وفي الختام فان نظريته حول الهيمنة الرمزية والتي ظلت قائمة على الرغم من اندثار النبوءة الثورية ،يمكن أن تؤول كدليل يبين أن علم اجتماع بورديو يزدهر في تربة مغايرة للتربة الماركسية الأرثودكسية .

ومع ذلك فانه يوجد تآلف كبير بين علم اجتماع بورديو والماركسية . من جهة لأنهما ينظران إلى النظام الاجتماعي من خلال النموذج التفكيري للهيمنة .لأنه من المستحيل الوصول إلى فهم واضح وصحيح للفضاء الاجتماعي دون الكشف عن الصراعات الطبقية :الواقع الاجتماعي هو مجموعة من علاقات القوة بين طبقات متصارعة تاريخيا فيما بينها . ومن جهة أخرى لأن علم اجتماع بورديو نقدي وبالتالي له استعمال سياسي (الثقافة ، المدرسة ، الديمقراطية الليبرالية).

ولكن تحليل بورديو مطبوع بعدد من المراجعات والقطائع تجاه التقليد الماركسي ،الذي يتحدث عن تعريف الطبقات الاجتماعية وعن تفسير آليات الهيمنة .

<<إن بناء نظرية حول الفضاء الاجتماعي تفترض جملة من القطيعات مع النظرية الماركسية ،قطيعة مع النزعة التي تريد تفضيل الماهيات ويتعلق الآمر هنا بالمجموعات الحقيقية التي نزعم تحديد عددها وحدودها وأعضائها (...)على حساب العلاقات مع الوهم الفكري الذي يريد أن يعتبر الطبقة نظرية مبنية من طرف "العالم" كطبقة حقيقية أي جماعة مجندة فعلا ،ومع النزعة الاقتصاديوية التي تذهب إلى حصر الحقل الاجتماعي وهو حقل متعدد الأبعاد في الحقل الاقتصادي فقط وفي علاقات الإنتاج الاقتصادية وفي الختام قطيعة مع النزعة الموضوعية التي تتساوى مع النزعة الفكرية والمؤدية إلى تجاهل النزاعات الرمزية والتي تكون الحقول المختلفة موضوعا لها والتي لها رهان تمثل العالم

الاجتماعي ذاته ولا سيما التدرج داخل كل حقل وبين الحقول المختلفة (...) إن نقائص النظرية الماركسية للطبقات ولا سيما عجزها عن الكشف على مجمل الاختلافات المبينة بصفة موضوعية ناتج عن كونها بتحديدها العالم الاجتماعي في الحقل الاقتصادي فقط فهي تنحصر في تعريف الموقع الاجتماعي بالرجوع فقط إلى الموقع في علاقات الإنتاج الاقتصادية وتتجاهل في ذات الوقت المواقع التي يشغلونها في الحقول وفي الحقول الفرعية ولا سيما علاقات الإنتاج الثقافي وكذلك كل التعارضات المؤطرة للحقل الاجتماعي والتي لا يمكن حصرها في التعارض بين مالكي وغير مالكي وسائل الإنتاج الاقتصادية و هكذا فإنها تبني عالم اجتماع أحادي البعد ومنظم بين معسكرين فقط .>>[1]

يمكن أن نسجل مظهرين من نقد بورديو أولا فهو يحاول تجاوز البديل اسمية /واقعية وذلك بالتمييز بين الطبقة الموضوعية والطبقة المجندة . الأولى هي مجموعة أفراد يوجدون في ظروف حياة متشابهة تفرض عليهم اشتراطات خاصة تترتب عنها ممارسات متماثلة .هؤلاء الأفراد لهم جملة من الخصائص المشتركة :امتلاك ثروات وسلطات وعادات طبقية ...والثانية هي الطبقة الموضوعية والتي اجتمع أفرادها وتنظموا لأداء نضال مشترك .ولكن الانتقال من الطبقة الموضوعية التي بناها الباحث على الورق إلى الطبقة المجندة في الشارع ليس بعملية آلية وحتمية كما تزعم النظرية الماركسية وعكس ذلك فإنه يفترض حسب بورديو عمل التجنيد لإعطاء وجود للجماعة .

وكذلك الانتقال الواضح والذي يستبعد وصف هذه التحاليل بأنها ماركسية يكمن في الأهمية المعطاة لعلاقات المعنى وللثروات الرمزية في العلاقات الطبقية . وإن التعريف المختصر لكل تشكيلة اجتماعية ك <<منظومة من العلاقات القوة

---

[1] P. BOURDIEU,ESPACE SOCIAL ET GENESE DES CLASSES,A.R.S.S. N52-53,1984

والمعنى بين الجماعات أو الطبقات >> يعنى بوضوح القطيعة التي تتم هنا بين تعريف ماركسي للطبقات والذي طبع بالتصور الاجتماعي الاقتصادي وبين ذلك الذي يعطي القيمة ويثمن العلاقات والهيمنات الرمزية .ومفهوم الصراع الطبقي سيوسع إلى الصراعات الرمزية في شكل صراعات حول التصنيف وحسب بورديو << استبعد ماركس من نموذجه الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعي والتي طرح ضدها الحقيقة الموضوعية لهذا العالم كعلاقة قوة ، بينما إذا قلص العالم إلى حقيقته المتمثلة قي علاقات القوة وان لم يكن إلى درجة ما معترف به كشرعي فهذا لن يحدث .ان التمثل الذاتي للعالم الاجتماعي كشرعي هو جزء من الحقيقة الكاملة لهذا العالم .>>[1]

وفي هذا المعنى فإن المقاربة البوردوية تدخل عناصر من المقاربة الفيبيرية في تحليلها .

2- من ماكس فيبير (1864-1920)احتفظ بورديو خاصة بدور التمثلات في التحليل السوسيولوجي و بمفهوم الشرعية .

بافتراضه أن معرفة الفعل الاجتماعي تبدأ من المعنى الذي يعطيه له الفرد، فإن المقاربة الفيبيرية تتعارض مع التفسير الطبيعوي المحض والموضوعوي :هذه المقاربة تؤسس لعلم اجتماع الفهم .ويرى فيبير أن الفعل الإنساني يتم وفق معنى يتوجب فهمه حتى يصبح واضحا .إن السلوكات البشرية لها خصوصية وهي أنها قابلة للتأويل بطريقة فهمية . ومنه هذا التعريف لعلم الاجتماع :<< نسمي علم اجتماع (...) العلم الذي يريد أن يفهم بالتأويل الأفعال الاجتماعية ومنه يفسر بطريقة سببية مجرياتها وأثارها .ونعني بفعل أو نشاط السلوك الإنساني (...)عندما وكلما أعطاه الأعوان معنى ذاتي ونعني بفعل أو نشاط اجتماعي ،

---

[1] **P. BOURDIEU, QUESTION DE SOCIOLOGIE,ED, MINUIT,PARIS,1980.P,25**

الفعل الذي من خلال المعنى المستهدف من قبل العون أو الأعوان ،يتعلق بالسلوك مع الآخرين والذي في مقابله يتم فعله >>[2]. هذا التعريف يذكرنا بضرورة أخذ بعين الاعتبار البعد الرمزي في تفسير الظواهر الاجتماعية ،وهو موضوع تحدث عنه كثيرا بورديو .

في إشكالية فيبير ، فإن مفهوم الشرعية أساسي ،فهو بسمح بفهم كيف تدوم السلطة السياسية دون أن تلجأ بالضرورة إلى القوة والإكراه .والجواب يكمن في أن الشرعية تعرف في معناها العام بوصفها صفة ل"ما هو مقبول ومعترف به" من قبل أعضاء مجتمع ويميز ماكس فيبير بين ثلاثة أنماط من الشرعيات الشرعية: التقليدية والزعامية والقانونية -العقلانية .

أما فيما يخص بورديو فهو يبحث في كيفية تحديد الآليات التي تؤدي بالمهين عليهم إلى قبول الهيمنة في كل أشكالها ولماذا يندمجون فيها ويشعرون بالتضامن مع المسيطرين في إجماع واحد حول الوضع القائم وبالإضافة إلى الشرعية التي هي معطى فعملية الشرعنة هي التي غذت تساؤله ويتعلق الأمر بتبيان كيف ينتج الفاعلون الاجتماعيون الشرعية حتى يتم الاعتراف بكفاءاتهم وبمكانتهم أو بالسلطة التي يملكونها .

3- إسهامات دوركايم (1858-1917) كانت حاسمة

لا يأخذ بيار بورديو من التقليد الدوركايمي إشكاليات محدودة مثل الإدماج واللامعيارية ولكن نوعا وتصورا لعلم الاجتماع .فهو يجد في هذا التقليد الطموح الدوركايمي المتمثل في تأسيس علم الاجتماع كعلم وهو ما يفترض منهجا ومسارا خصوصيا .

---

[2] **J.C. DROUIN,LES GRANDS AUTEURS EN SCIENCES SOCIALES,PUF,PARIS,1996**

ولفهم هذا الإسهام لا بد من التذكير بالمبادئ الأساسية للمقاربة الدوركايمية .بالنسبة لهذا الكاتب فإن علم الاجتماع يعرف كدراسة للظواهر الاجتماعية . ولكن تكمن أصالته في تعريفه للظاهرة الاجتماعية : كطريقة فعل ثابتة أم لا وتمارس على الفرد قسرا خارجيا . وموضوع علم الاجتماع هو في هذه الحالة الكشف عن هذه الضغوط لتفسير سلوكات الأفراد . إن مثل هذه الطريقة تدخل بكاملها في الأفاق الهولية (من اليونانية هولي وتعني كامل وشامل ويشكل كلا) وعلاوة على ذلك فإن علم الاجتماع يفترض منهجا خصوصيا كما يبين ذلك دوركايم في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع ومن بين أهم أفكاره من جهة"يجب اعتبار الظواهر الاجتماعية كأشياء " مما يعني ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية من الخارج (كملاحظ خارجي) بنفس تماسف الفيزيائي الذي يلاحظ الظاهرة الفيزيائية . لتطبيق هذه القاعدة الخاصة بالموضوعية يجب إذن استبعاد ما يسميه دوركايم ب "الأحكام المسبقة " "التمثلات "التي يحملها الأفراد حول سلوكاتهم والمعنى الذي يعطونه لأفعالهم . هذه المقاربة تسمى بالوضعية ،وهي موقف منهجي يعطي للعلوم الإنسانية المسار العلمي الذي تتبناه علوم الطبيعة. تقوم الوضعية على تحليل فقط الظواهر المدركة من طرف الملاحظ الخارجي والوضعية تستلزم القطيعة بين العالم الموضوعي (ميدان الوقائع)والعالم الذاتي (ميدان الشعور والأحكام القيمية و الحدس)

ومن جهة أخرى يؤكد دوركايم على أنه "يجب تفسير الظواهر الاجتماعية بواسطة الظواهر الاجتماعية :<< إن السبب الحاسم لظاهرة اجتماعية لا بد من البحث عنه ضمن الظواهر الاجتماعية السابقة وليس بين حالات الشعور الفردي>>[1] وبعبارة أخرى لتفسير سلوك ما، يجب البحث عن الضغوط الخارجية التي تثقل كاهل

[1] E. DURKHEIM, LES REGLES DE LA METHODE SOCIOLOGIQUE, PUF,PARIS,1984

الأفراد وليس الذهاب والاستعانة بالمحددات البيولوجية (الحدس ، الوراثة ...)أو السيكولوجية (العقد ، الاحباطات ...).

في الواقع يقترح دوركايم الاستعانة بالمنهج المقارن القائم على أساس أن << نفس الأسباب تنجر عنها دائما نفس الآثار >>[2] والذي يتمثل في دراسة علاقات الارتباط الإحصائية بين المتغيرات لاستخراج القوانين التنبوئية المتعلقة بالظواهر الملاحظة . إن مثل هذه الطريقة المسماة بالموضوعاتية تهدف إلى البحث عن <<القوانين الموضوعية >>التي تتحكم في الواقع الاجتماعي بمعنى التي تكشف عن نظام خفي للفوضى الظاهرية للحياة أو للمجتمع . هذه الإرادة المتمثلة في استجلاء التكرارات والانتظامات بدلا من القوانين هي كذلك طموح شاطره بيار بورديو ولكن بتجنب فخ الوضعية المطلقة والكونية اللازمانية .

إن كانت هناك خاصية لا بد من الاحتفاظ بها من تكوين بورديو فهي تعدد التأثيرات التي تأثر بها . كل شيء يتم وكأن مساره نحو علم الاجتماع هو تتويج لعملية تدريجية يغذيها عدم الرضى الناتج عن الأجوبة التي أعطتها النظريات الفلسفية لتساؤلاته . ولكن أعماله هي كذلك نتاج إعادة قراءة نقدية للتساؤل الأنثروبولوجي والسوسيولوجي التقليدي . وهذه الإرادة في القطيعة والتجاوز كانت وراء ظهور البنيوية النشوئية . لأن هذا التيار لم يظهر فقط كتيار تجديدي ولكن كذلك في بعض مظاهره كتحريضي وفي هذا الصدد فإن علم الاجتماع مزعج.

---

[2] **IBID.**

الفصل الثاني: الابعاد المنهجية

1- الطريقة السوسيولوجية

القطيعة مع الحس المشترك

عالم الاجتماع محدد اجتماعيا

بناء الموضوع السوسيولوجي يتم وفق مراحل

2- علم اجتماع ملتزم

علم اجتماع بورديو طور العديد من الانتقادات

بورديو ينتقد بصفة صريحة وضمنية العديد من التيارات السوسيولوجية

بورديو ينتقد الاستعمالات المضللة لعلم الاجتماع

على عالم الاجتماع تفادي النزعة النبوئية

بورديو يناضل من أجل علم اجتماع تحرري

علم الاجتماع سلطة مضادة تضمن الديمقراطية

أثار علم الاجتماع منذ تأسيسه كفرع مستقل العديد من الانتقادات والتي سببها التأكيد على ضرورة إحداث العديد من القطائع :مع الفروع العلمية الأخرى التي تهتم بدراسة "الاجتماعي" ومع خطاب المعرفة العامية CONNAISSANCE ORDINAIRE ومع كل المؤسسات والهيئات والتنظيمات التي لا تجد مصلحتها في عمل يقوم على الموضعة .OBJECTIVATION (إضفاء الصبغة الموضوعية)

الأنظمة التوطاليتارية (الشمولية)حاربت دائما(حتى إلى درجة المنع) ممارسة علم اجتماع مستقل ولم تسمح سوى برواياته "الرسمية "،بما في ذلك الديمقراطيات التي يزعجها بيار بورديو أيضا.

أولا من خلال طريقته التي تهدف إلى موضعة الممارسات وبالتالي إلى الكشف للأعوان الاجتماعيين AGENTS SOCIAUX(بورديو يستعمل عون اجتماعيAGENT SOCIAL بدل فاعل اجتماعي ACTEUR SOCIAL لأن العون يتأثر ويؤثر في البنى الاجتماعية) عن الحتميات الاجتماعية لسلوكاتهم وتمثلاتهم وخطاباتهم وكذلك من خلال نزعته إلى نقد كل الآليات الخاصة بالهيمنة.DOMINATION

1- الطريقة السوسيولوجية :

في كتاب نشره مع جان كلود باسرون J.C. PASSERON وجان كلود شامبوردون J.C. CHAMBOREDON عنونه "مهنة عالم الاجتماع " LE METIER DE SOCIOLOGUE والذي صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1968 يطرح بورديو أسس الطريقة السوسيولوجية التي تفترض من جهة إحداث القطيعة مع الحس المشتركSENS COMMUN ومن جهة أخري بناء

الموضوع السوسيولوجي .وتفسر ضرورة إحداث القطيعة مع الحس المشترك من خلال الأخطار التي يحملها والحس المشترك يمكن أن يفسر كمجموعة الآراء والمعتقدات المقبولة في جماعة معينة أو عند جماعات اجتماعية خصوصية وهذه الآراء والمعتقدات تعتبر وكأنها مفروضة على كل تفكير عاقل .

ويتطابق الحس المشترك مع الأحكام المسبقة التي ذكرها دوركايم DURKHEIM وهو مكون أساسا من التمثلات ،هذه التمثلات تكون متعددة وتتمثل في أساليب إدراك العالم والدوافع وقواعد السلوك وتحليل المعيش ANALYSE DU VECUوالأحكام القيمة والعقائد المنظمة في مجموعة متجانسة على الأقل على المستوى الشكلي وتهدف إلى الاعتمال في الواقع وتشكل بالتالي إيديولوجية.

كلنا نحمل تمثلات REPRESENTATIONS حول الواقع المحيط بنا ،فهي تعطينا التفسيرات التي نعتقد أنها مقبولة وصحيحة للظواهر التي نشاهدها.المتمثلات هي بمثابة مرشد ومعلم في نشاطنا الاجتماعي اليومي كما تعطينا الشعور بفهم العالم المحيط بنا وفي هذا الصدد فهي تغدو ضرورية للحياة في المجتمع .

وهكذا ففي الوضعية العادية للتفاعل مع شخص لا نعرفه، فإننا نستحضر كل أنواع التمثلات الهادفة إلى تشخيصه :المظهر الخارجي الذي يسمح بمعرفة سنه ولباسه لتحديد أصله الاجتماعي وطريقة كلامه ونبرته التي تكشف عن أصله الجغرافي ولكن تصورنا للعالم تشكله كذلك التمثلات : المنظومات الدينية والإيديولوجيات السياسية والصياغات العلمية هي بدورها منظومات للتمثل تتغير حسب المجتمعات والمراحل الزمنية ولكن كذلك حسب الأفراد والجماعات الاجتماعية .

إن الحس المشترك يعرض للمخاطر على اعتبار أن الأماكن المشتركة والعمومية والأفكار الجاهزة حول الواقع الاجتماعي هي كذلك عوائق للمعرفة العلمية .

ولقد حذرنا دوركايم من البديهيات الزائفة FAUSSES EVIDENCES حول الواقع الاجتماعي، وعلى الرغم من ذلك فإن العديد من الأشخاص ما زالوا مقتنعين بأن الانتحار يفسر قبل كل شيء من خلال مشاكل ذات طبيعة سيكولوجية ونزعات فردية نحو الانتحار ويعتقد البعض الآخر أن اختيار الزوج هو قبل كل شيء مسألة حب أو أن الإجرام هو من فعل أفراد لهم شخصية خصوصية أو من خلال سلوكاتهم التي تفسر بعوامل وراثية .

أضف إلى ذلك أننا نستطيع إعطاء العديد من الأمثلة لتفسيرات هي في صلب علم الاجتماع التلقائي SOCIOLOGIE SPONTANEE.

إن علم الاجتماع التلقائي خلافا لعلم الاجتماع العلمي يقوم على استدلال مؤسس على الادراكات الخاصة بكل فرد والمعبر عنها في كلام الحياة العادية، .فعالم الاجتماع يحاول إعطاء تفسير قائم على متغيرات مختلفة غير مدركة من طرف الأفراد .ومذاك تكمن مهمته الأولى التمثلة في استبعاد الأفكار المسبقة .

إن هذه القطيعة مع الحس المشترك ضرورية لحاجتين : لأسلوب تشكل مقولات إدراك الحس المشترك من جهة ولأنه يعطي تفسيرات لاعلمية للظواهر الاجتماعية من جهة أخرى.

إن المقولات التي نصف بها العالم الاجتماعي MONDE SOCIAL أو ممارساتنا وتمثلاتنا ليست بإنتاجات فردية ولكنها إنتاجات اجتماعية .ومنه لا بد من التساؤل حول أسلوب تشكلها،لأن الكثير من المؤسسات والتي غالبا ما تكون متنافسة تساهم في خلق أو تعديل مقولات الإدراك . وإن إرادة فرض صيغة أو

أسلوب شرعي لرؤية العالم VISION DU MONDE هي في حد ذاتها رهان لصراعات ENJEU DE LUTTES،إلا أن المؤسسة التي تمتلك اكثر من غيرها هذه القدرة ليست سوى الدولة: لأن عملها المتمثل في التقنين CODIFICATION سواء على المستوى التشريعي أو الإداري ينتج بنى للإدراك وتعابير جديدة لتعيين الواقع .و بصفة غير مرئية تدخل هذه التعابير في الكلام اليومي إلى درجة أنها تمتلك قوة البداهة . ووفق هذا التصور فإن الكلام الذي نستعمله ليس محايدا سوسيولوجيا ، بل يحتوي في تعابيره وفي نحوه على تصور للعالم .

وإذا سألنا الأفراد حول معنى أفعالهم بمقدورهم دائما إعطاء "الأسباب الحقيقية" التي تبررها .ولكن على عالم الاجتماع أن يكون دائما حذرا تجاه الدلالات التي يعطيها الأفراد لتصرفاتهم . هذه الدلالات ليست خاطئة وإنما تظل دائما غير مكتملة .وعدم الاكتمال هذا يفسر بكون إن إنتاج الخطاب عند الأفراد ليس مستقلا عن خصوصياتهم الاجتماعية .وهكذا فحسب الممارسات المستهدفة ، فإن التفسيرات مرتبطة دوما بمتغيرات مثل السن والجنس والوضعية العائلية والمهنة الممارسة ...

إن إحداث القطيعة مع الأحكام المسبقة المحتواة في الخطاب المشترك يبرر كذلك بكون الأفراد الذين يعطون تفسيرات لممارساتهم غير واعين بالحتميات التي تنتج خطابهم . وهذا يتطابق مع مبدأ اللاوعي وهكذا فإن << معنى الأفعال الشخصية جدا والأكثر شفافية ليس ملكا للفاعل الذي يقوم بها ولكن للمنظومة الكاملة للعلاقات التي تتم داخلها ومن خلالها .>>[2] إن مثل هذا التوكيد مزعج .فهو يعني أننا لا نستطيع تصديق روايات الفاعلين وأن شهاداتهم ليست موضوعية وأنه واقع ولا يمكن فهم ظاهرة اجتماعية من خلال العواطف والمشاعر والتفسيرات وردود الأفعال الشخصية للفاعلين .

---

[2] **P.B. LE METIER DE SOCIOLOGUE,MOUTON, PARIS ,1968**

إذا أخذنا مثلا كيفية اختيار الزوج : وسألنا الزوجين حول أسباب الانجذاب المتبادل فإن المقولات المجندة للحديث عن ذلك ترجع أساسا إلي ميدان الذاتية الفردية كالجمال والتفاهم والحب المتبادل .واللقاء يوصف غالبا وكأنه نتاج الصدفة أو الحب الأعمى .

إن مثل هذه الخطابات لا يمكن اعتبارها موضوعية لأنها لا تعطينا سوى تمثلات للواقع مبنية على أفكار مسبقة والتي تحاول تفسير سلوكات ضمن علم النفس العامي،بينما هي تخفي في الواقع الحتميات الاجتماعية في اللقاءات،وأن كانت هذه التفسيرات مناسبة وملائمة فلا نفهم لماذا إذن لا يغرم أبناء الإطارات بصفة شبه مطلقة ببنات العمال في الفلاحة .في حين أن كل الدراسات في علم الاجتماع تكشف عن التجانس الزواجي ،وبعبارة أخرى فإن اختيار الزوج يتم في وسط قريب أو مماثل للوسط الأصلي .

هذا التفسير السوسيولوجي يتعارض إذن مع خطاباتنا العامية التي تؤسس أفعالنا حول رغباتنا ودوافعنا النفسية وأهوائنا .كما يسمح كذلك بفهم ردود الأفعال المناوئة لعلم الاجتماع الذي بكشفه عن الحتميات التي تثقل كاهل الأفراد يتعارض مع كل فلسفة إنسية وعقلانية التي ترى في الإنسان كائنا له عقل قادر على التحكم في مصيره بكل حرية .

- عالم الاجتماع تعترضه صعوبة إضافية لإحداث القطيعة مع الحس المشترك، فهو ذاته محدد اجتماعيا .

تكمن صعوبته الخصوصية في اندماجه الاجتماعي ، فلكونه عضوا في المجتمع فهو لا يفلت من ضغوطات وحتميات المجتمع . ولكي يتفادى أن يطبع خطابه العلمي بمقترحات نابعة بصفة لاشعورية من خصوصيات موقعه الاجتماعي لا بد أن يكون عالم الاجتماع يقظا جدا .

هذه اليقظة تسمح له الانفلات من <<المركزية الطبقية ETHNOCENTRISME DE CLASSE<< بمعنى من النزعة اللاشعورية إلى الحكم على كل فرد أو جماعة طبقا لقيم وقواعد وسلوكات الجماعة (الطبقة الاجتماعية) التي ينتمي إليها.

وعلى عالم الاجتماع أن لا ينسى أنه حسب الموقع الاجتماعي للملاحظ فإن بعض مظاهر الواقع تدرك وكأنها مهمة والبعض كهامشية أو ثانوية بينما أخرى لا تدرك بتاتا.

<< لعالم الاجتماع خصوصية وهو أن مواضيعه حقول للصراعات CHAMPS DE LUTTES: ليس فقط صراع الطبقات وإنما كذلك حقل الصراعات العلمية . وعالم الاجتماع يشغل مكانة في هذه الصراعات لأنه أولا يملك نوعا من راس المال الاقتصادي والثقافي في حقل الطبقات وكذلك بوصفه باحثا له رأسمال خصوصي في حقل الإنتاج الثقافي وبالخصوص في الحقل الفرعي لعلم الاجتماع .كل هذا لا بد أن يكون حاضرا عنده حتى يستطيع التحكم في كل ممارسته: ما يراه ولا يراه وما يفعله ولا يفعله كالمواضيع التي يختار دراستها والتي لها علاقة بموقعه الاجتماعي ...يبدو لي فعلا إن أحد الأسباب الرئيسية للخطأ في علم الاجتماع يكمن في العلاقة غير المتحكم فيها مع الموضوع وبالضبط في تجاهل لكل ما تدين به رؤية الموضوع لوجهة نظرنا ، بمعنى إلى الموقع الذي نحتله في الفضاء الاجتماعي وفي الحقل العلمي . إن الحظوظ التي نملكها للمساهمة في النتاج الحقيقة تبدو لي في الواقع رهينة عاملين أساسين يتصلان ويرتبطان بالموقع الذي نحتله :المصلحة التي نود من خلالها إن نعرف

ونعّرف بالحقيقة (أو عكس ذلك إلى إخفائها وتجاهله) والقدرة التي نملكها على إنتاجها>>[3]

هدا العمل في علم الاجتماع يستلزم إذن تفكيرا ابستمولوجيا بمعنى القيام بدراسة نقدية للمبادئ والفرضيات ولنتائج العلم لتحديد أصلها المنطقي وقيمتها ومغزاها الذاتي .هذه اليقظة الابستيمولوجية تبدو اكثر أهمية إلى درجة أن عالم الاجتماع مضطر إلى دراسة حقله الخاص :أي حقل الإنتاج العلمي وبصفة أدق العالم الجامعي . وقد أكد بورديو في كتابه "الإنسان الأكاديمي" : HOMO ACADEMICUS

<< عندما نأخذ كموضوع للدراسة العالم الاجتماعي الذي نوجد فيه ،نجد أنفسنا مضطرين إلى لقاء - في شكل يمكن القول عنه بأنه مأسوي - عدد من المشكلات الابستيمولوجية الأساسية مرتبطة كلها بمسألة الفرق بين المعرفة العملية والمعرفة العلمية ولا سيما بالصعوبة الخصوصية وبالقطيعة مع التجربة الأولى ومع إعادة هذه المعرفة التي تحصلنا عليها بواسطة هذه القطيعة .إننا نعرف الصعوبة التي تواجهها المعرفة العلمية وكل ما يمثله الإفراط في القرب من الموضوع أو مجاورته كما هو الحال بالنسبة للتماسف منه ...>>[4]

إن التفكير الابستيمولوجي يصبح شرطا ضروريا .وفي هذا الصدد فإن بورديو يناضل من أجل إقامة علم اجتماع لعلم الاجتماع بغية تطويره كعلم .

2- المقاربة السوسيولوجية تفترض ضرورة بناء الموضوع.

و في هذه الحالة لا بد أن يكون العلم في قطيعة مع المقاربات التقليدية للوصول إلى هذا الهدف .

إن علم الاجتماع يجب أولا أن يفلت من وصية المقاربات المتنافسة التي تفكر حول نفس الموضوع كما موجود ولهذا لا بد من التذكير بالمبدأ الدوركايمي

---

[3] **P.B. QUESTIONS DE SOCIOLOGIE MINUIT PARIS 1984 P 2**

[4] **P B HOMO ACADEMICUS MINUIT PARIS 1984 P 11**

<<الاجتماعي يفسر بالاجتماعي >> واستبعاد كل تفسيرات الاجتماعي التي ترجع إلى المقاربات الأخرى.

إن الكثير من التخصصات تم نقدها كالفلسفة ولا سيما الفلسفة الاجتماعية لأنها توظيف مفاهيم تتجاوز التاريخ وذات نزعة كونية وعلم النفس الذي ينسى أن البنى الذهنية هي بنى اجتماعية مستبطنة والاقتصاد الذي ليس له المكانة المهيمنة في تحليل اشتغال الاجتماعي الذي يمنحها له الليبراليون والماركسيون والعلوم القانونية والسياسية التي غالبا ما تعتبر الدولة كالهيئة المنظمة القادرة على الضغط والقسر بدون حدود على سلوكات الأفراد .

ويتوجب على علم الاجتماع كذلك أن يبين أنه تخصص علمي . وان لم يكن له موضوع خصوصي فهو يعرف من خلال مساره ومن خلال آفاق واستدلال خاص. في حين نلاحظ أن نقد علم الاجتماع تم غالبا حول قدرته في أن يكون علما.إن مثل هذا الاقتراح ينتج عنه حصر العلم في علوم الطبيعة أو في العلوم المسماة بالدقيقة .

ومن الضرورة بمكان أن نعلم بأنه إذا تمسكنا بخصوصية هذه العلوم كالتوكيد على معرفة مكونة بصفة منتظمة وعلى الشكلية الصارمة وعلى وضع القوانين أو كذلك على قدرتها التنبئية ، فمن الصعب اعتبار علم الاجتماع علما . ولكن إذا عرفنا علم الاجتماع كالمشروع الذي يهدف - من خلال طريقة موضوعية- إلى إقامة (حول الظواهر الاجتماعية)جملة من الاقتراحات القابلة للاختبار أمبيريقيا ومعرضة دائما لقابلية التكذيب ، في هذه الحالة لن يطرح السؤال البتة أو سيطرح في صيغة لا تمت بصلة إلى المقاربة العلمية :

<< يبدو أن لعلم الاجتماع كل الخصائص التي تحدد العلم ...إن جل علماء الاجتماع الجديرين بهذا الاسم متفقون حول رأسمال مشترك من المكتسبات والمفاهيم والمناهج والإجراءات الخاصة بالاختبار ...إذا كنا حريصين إلى هذه

الدرجة على علمية علم الاجتماع فلأنه يزعج ... إن لعلم الاجتماع الامتياز التعس الذي يجعله دائما معرضا لمسألة العلمية ،بينما نكون أقل صرامة ألف مرة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ أو بالاثنولوجيا دون الحديث عن الجغرافيا أو فقه اللغة أو الاركيولوجيا. توجد في علم الاجتماع منظومات متجانسة من الفرضيات والمفاهيم ومناهج الاختبار أي كل ما يرتبط عادة بفكرة العلم . وعليه لماذا لا نقول انه علم إن كان كذلك لاسيما وأن الأمر يتعلق برهان هام جدا : إن إحدى الطرائق للتخلص من الحقائق المزعجة هو أن نقول أنها غير علمية الأمر الذي يؤدي إلى القول بأنها " سياسية " بمعنى

منتجة عن طريق المصلحة والتحمس وبالتالي تكون نسبية وقابلة لتكون نسبية [5]<<.

- بناء الموضوع السوسيولوجي يتم وفق عدة مراحل

على غرار علماء اجتماع آخرين يؤكد بيار بورديو أن الظاهرة الاجتماعية مستولى عليها ومبنية وملاحظة . إن بناء موضوع ما يتمثل في تقطيع جزء من الواقع والمقصود انتقاء بعض العناصر من هذا الواقع المتعدد الأشكال واكتشاف وراء المظاهر منظومة من العلاقات الخاصة بالجزء المدروس، باعتبار أن المواضيع العلمية غير معطاة كما هي منذ البداية .إن الانتقال من الظاهرة الاجتماعية إلى الظاهرة السوسيولوجية يفترض إذن تبني مسار علمي يقوم على عدة مراحل والتي يمكن لضرورة العرض تفريقها عن بعضها البعض.ولكن لا بد من الانتباه إلى أن العمل العلمي ليس بعملية خطية :لأنه أثناء البحث يمكن أن تعدل الإشكالية وتغير الفرضيات ويعاد النظر في المتغيرات.

ولتفادي أن تكون المشكلة الاجتماعية المعبر عنها من طرف الأعوان الاجتماعيين

---

[5] **QUESTIONS P 9**

خارج الحقل العلمي مفروضة على عالم الاجتماع يتوجب على هذا الأخير أن يحدد إشكاليته الخاصة .وبالفعل لا يتعلق الأمر هنا بإنكار الخطاب العامي المنتج حول الظاهرة الاجتماعية ولكن بإدخال هذا الخطاب في التحليل والبحث عن نشأته الاجتماعية .واستنادا إلى ما سبق تصبح المعرفة العامة والمصالح التي يثيرها موضوعا للتحليل .ومع ذلك فإن هذا العمل لا يشكل جردا بسيطا لمواضيع علم الاجتماع التلقائي التي مفصلها عالم الاجتماع بطريقة متجانسة وحولها إلى علم الاجتماع العالم لأن صياغة الإشكالية يستلزم تسجيلها في حقل نظري .

<< إن موضوع بحث ما حتى وإن كان جزئيا ومبعضا لا يمكن أن يحدد ويبنى إلا وفقا لإشكالية نظرية تسمح بإخضاع إلى تساؤل منتظم كل مظاهر الواقع المترابطة من خلال السؤال الذي طرح عليها.>>[6])

وعلى عالم الاجتماع أن يبني فرضيات وينحت مفاهيم.والفرضية في علم الاجتماع هي تفسير مؤقت لطبيعة العلاقة بين ظاهرتين أو اكثر ،كما أن صياغة الفرضية تؤسس للمقاربة الافتراضية -الاستنباطية HYPOTHETICO-DEDUCTIVE التي يناضل من أجلها بيار بورديو. ذات المقاربة تتمثل في أنه انطلاقا من فرضيات نتوصل استنتاج آثار ضرورية منطقيا بين الفرضيات والنتيجة ،وصدقها لا بد أن يؤكد أو يفند أمبيريقيا.

هذه الطريقة متعارضة مع الطريقة الاستقرائية التي تنطلق من الظواهر الملاحظة وتبحث عن استخراج القوانين .

في كتابه "التمييز " LA DISTINCTION يطرح بورديو يطرح فرضية وهي أن الأذواق خلافا للحس المشترك الذي تعتقد أن " كل الأذواق توجد في الطبيعة " ،يمكن أن تكون ليس فقط موضوعا للتحليل السوسيولوجي ولكن فهي كذلك محددة اجتماعيا، وبدراسته لمختلف الأذواق وربطها مع مواقع الأفراد في التدرج

---

[6] **LE METIER DE SOCIOLOGUE**

الاجتماعي يستخلص بورديو أن توزيع الأذواق الفنية والموسيقية والغذائية ...تنظم وفق الملكة الطبقية .HABITUS DE CLASSE

إن مسألة العلمية تطرح كذلك بحدة في اللغة المستعملة .وضد وهم شفافية العالم الاجتماعي ولتفادي القراءات الخاطئة الناتجة عن الحس المشترك فإن لغة علم الاجتماع كما هو الشأن بالنسبة لأي علم آخر لا بد أن تكون دقيقة وصارمة وخصوصية .

ووفق هذا المنظور نحت بيار بورديو مفاهيم جديدة انطلاقا من مصطلحات مستقاة إما من اللاتينية أو اليونانية مثل مصطلحات - HABITUS HEXIS –ALLODOXIA -ETHOS - HYSTERIS ،وإما من حقول علمية أخرى مثل مفهوم الحقلLE CHAMP والسوق LE MARCHE ورأس المال LE CAPITAL.ولكن كل هذه المفاهيم شكلت موضوعا لإعادة التعريف والتحديد ،ويتعلق الأمر هنا بإحداث قطيعة مع اللغة العادية

<< يجب على العلوم الاجتماعية أن تستحوذ على كل ما تقوله ضد الأفكار المسبقة التي ينشرها الكلام العادي وعليها أن تقول على ماذا استولت واستحوذت في كلام مهيأ لقول شيء آخر . وعليها كذلك بتكسير العفويات اللغوية وهذا لا يعني خلق وبصفة مصطنعة فرقا متميزا يقيم مسافة مع المبتذل والعامي وإنما إحداث قطيعة مع الفلسفة الاجتماعية المسجلة في الخطابات التلقائية .>>[7]

وانطلاقا من المبدأ المنهجي الدوركايمي الذي وفقه يجب "اعتبار الظواهر الاجتماعية كأشياء " على عالم الاجتماع أن يقوم بعمل الموضعة ،مهما كان موضوع دراسته، وخارج البحوث النظرية الصرفة والاستعانة بالمعطيات المصاغة من قبل الهيئات المنتجة للإحصائيات ،يجب على عالم الاجتماع في ظل

[7] **QUESTIONS P 37**

هذا الوضع أن يواجه فرضياته مع الواقع وأن يقوم بتحريات في الميدان ، وفي هذه المرحلة يمكن استعمال بصفة تبادلية أو مكملة التقنيات المختلفة.

عادة ما نقوم بمقابلة التقنيات الكمية بالتقنيات النوعية . الأولى مؤسسة على توظيف المعطيات الرقمية المتحصل عليها بواسطة البحوث المستعملة للاستمارة والتي يكون فيها اللجوء إلى الأسئلة المغلقة حاسما لتسهيل عملية جمع البيانات وكذلك معالجتها .وقد كانت هذه التقنيات مسيطرة إلى غاية الستينيات .أما التقنيات النوعية فإنها تقوم أساسا على الاستجوابات ويتعلق الأمر بمقابلة بين الباحث والمبحوث ويتم ذلك بواسطة دليل مقابلة ، بمعنى قائمة من الأسئلة أو مواضيع للمعالجة .إن تجديد الأدوات الإحصائية والذي أضيف له التوظيف المنهجي للإعلام الآلي سمح بالمعالجة الآلية للاستجوابات وهو ما يفسر كذلك الاستعمال المتزايد لهذه التقنيات.

إن هذه المجموعة الرقمية من المعطيات تسمح في ذات الوقت بالتماسف مع الخطابات العامية وموضعة الظواهر المدروسة .

وهكذا فإن الفرضيات والمفاهيم تتمفصل في نموذج نظري يعرف ك:

<<رسم بياني للعلاقات بين العلاقات التي تعرف وتحدد المواضيع المبنية ويمكن أن ينقل هذا الرسم إلى أشكال من الواقع مختلفة على المستوى الظواهري وهذا النموذج النظري يمكن أن يقترح عن طريق القياس قياسات جديدة التي تصبح بدورها مبادئ لبناء مواضيع جديدة .>>[8]

يعرف النموذج من خلال قدرته على إحداث القطيعة والتعميم ،فهو يقوم على المفهوم المركزي للعلاقة المؤسسة لعلم اجتماع علائقي والذي يلعب فيه التحليل الإحصائي دورا أساسيا .وفعلا فإن الموضوع حسب بيار بورديو يزخر بجملة من العلاقات الداخلية أي منظومة من العلاقات الداخلية والتي يسمح التحليل

[8] **LE METIER P 79**

بتفسير اشتغالها .وبالتالي فإن مفهوم الحقل الاجتماعي يبدو كعنصر مركزي في المسار النظري والحقول هي :

<< فضاءات مؤطرة للمواقع أو للمناصب والتي ترجع خصائصها لمواقعها في هذه الفضاءات والتي يمكن تحليلها بصفة مستقلة عن مميزات الذين يشغلونها والمحددة جزئيا من خلالها>>[9]

وبما أن المجتمع يعرف في هذه الحالة كفضاء اجتماعي واسع وغير متساو ، يرجع إلى العمل السوسيولوجي إيجاد التشابه البنيوي بين الموقع في المجتمع والحقول الاجتماعية المختلفة المبنية من طرف التحليل السوسيولوجي بمعنى التطابقات بين المواقع المتعادلة في الحقول المختلفة .

ويستنتج من ذلك أن بعض التقنيات الإحصائية اكثر ملاءمة من أخرى للكشف عن العلاقات بين المتغيرات :كتحليل عوامل الارتباط وبالخصوص التحليل العاملي ANALYSE FACTORIELLE .

هذا التحليل يسمح بتحويل جداول إحصائية كبيرة إلى عدد صغير من العوامل وله الفضل كذلك في إعطاء تمثيلات بيانية .

وحمى القول فإن عالم الاجتماع لكونه يشتغل على موضوع هو طرف فيه ومتعود عليه وألفه ، يخشى أن يسقط في فخين اثنين يشكلان معا أوهاما :وهما المعرفة المباشرة للعالم الاجتماعي كما هو معطى من قبل الحس المشترك وبالتلازم فخ إدراك حتميات الظاهرة الاجتماعية من طرف فاعليها وشهودها .

---

[9] **QUESTIONS P 137**

2- علم اجتماع ملتزم

- علم اجتماع بيار بورديو طور العديد من الانتقادات

- تصوره لعلم الاجتماع يقوم على النقد الابستيمولوجي والمنهجي

يقدم علم اجتماع بيار بورديو وكأنه محاولة لتجاوز بعض الاختلافات الموجودة بين علماء الاجتماع ،فهو يستلزم إذن استنادا إلى هذا المنطق نقد هذه المقاربات .ومن بين هذه الخلافات الخلاف الموجود بين أنصار المقاربة الموضوعوية OBJECTIVISTEأو الوضعية وأنصار المقاربة الذاتوية SUBJECTIVISTE.

الموضوعاتية تعتبر أن "الظواهر تتحدث بنفسها"وتنزع نحو الامبيريقية، والمهمة الوحيدة لعالم الاجتماع تكمن في تسجيل الظواهر بصفة سلبية . وهي عبارة عن اتجاه فكري يتمثل في البحث المنتظم عن القوانين الموضوعية المتحكمة في الواقع الاجتماعي كما هو الحال بالنسبة للقوانين التي تتحكم في الواقع الطبيعي .

إن مفهوم الموضوعية يجب أن يفهم هنا على أن الواقع مستقل عن الفكرة وعن التمثل والضمائر الفردية للفاعلين . ويتعلق الأمر إذن بطريقة مأخوذة من العلوم الطبيعية و الفيزيائية . وفي علم الاجتماع تتمثل هذه الطريقة في البحث عن القوانين الموضوعية المتحكمة في كل السلوكات البشرية بمعزل عن الفاعلين وعن تمثلاتهم،ويتم هنا الإلحاح على الحتميات التي تضغط من الخارج على الفاعلين .

الأفراد يصبحون لعبة في يد البنى كما هو الحال في بنيوية الانثروبولوجي كلود ليفي ستروس C.LEVI-STRAUSS أو كذلك في التحاليل الماركسية للويس ألتوسير ALTHUSSER.

وفي المقابل فإن الذاتوبة هي النزعة التي تفضيل الفردي والتي تمركز التحليل على الفاعل وخاصة على شخصيته المحددة كمجموعة فريدة من المواهب والفضائل والصفات والعيوب .

في علم الاجتماع تظهر الذاتوية في شكل نظريات فردانية INDIVIDUALISTE يمكن أن تأخذ أشكالا مختلفة وكلها تلح على مفهوم حرية الفرد وتؤكد بالتالي أن الفرد يفلت من كل حتمية.

أما فيما يخص المناهج، فعلى عالم الاجتماع أن يحذر من الاستعمال عير المتحكم فيه لتقنيات جمع البيانات .كل وضعية بحث ميداني قائمة على علاقة بين باحث ومبحوث ، إلا أن هذا التبادل ليس بحديث عادي : فهو يخلق اتصالا بين فردين لهما مواقع اجتماعية مختلفة ويتمثل إذن في تفاعل يتم تحت ضغط البنى الاجتماعية وإذا نسينا هذا المظهر فهذا يعني إننا نجهل العنف الرمزي الذي يمكن أن يحدث بين المتحدثين ، يملك أحدهما الشرعية المرتبطة بالعمل العلمي والآخر يوجد في وضعية الملاحظ والمبحوث .

إن بنية التفاعل تحمل الآثار الاجتماعية التي يخشى أن تؤثر في الإجابات وبالتالي فإن النتائج المتحصل عليها يمكن أن يكون عبارة عن أوهام ،بمعنى ظاهرة اصطناعية منتجة من قبل الباحث نفسه من خلال غياب مراقبة المنهج أو/والعمل الميداني .

فعندما نسأل أفرادا حول مواضيع ليس لهم فيها أية كفاءة ونطرح عليهم أسئلة لم يطرحوها أبدا على أنفسهم ، فإننا نثير أثر فرض الإشكالية .ومع ذلك فإن المبحوثين يعطون أجوبة ويقوم عالم الاجتماع بتحليلها - عن باطل - وكأنها تعبير عن آرائهم الشخصية ..

- *بورديو ينقد بصفة صريحة وضمنية التيارات السوسيولوجية الأخرى*

وكما بينا ذلك فإن علم الاجتماع تخترقه عدة تيارات .وفي هذا السياق ، والتأكيد على خصوصية مقاربة معينة يؤدي حتما إلى إعادة النظر في النظريات الأخرى ، لأن تنوع المسلمات والطرائق يفرق بين علماء الاجتماع .

<< إن علم الاجتماع في وضعيته الحالية هو علم له طموحات كبيرة جدا وأن طرائق ممارساته متنوعة بكثرة . يمكن أن يحمل اسم "عالم اجتماع" أشخاص يقومون بتحليلات إحصائية والبعض الآخر يقوم بصياغة نماذج رياضية وآخرون يصفون وضعيات حقيقية ... وكل هذه الكفاءات نادرا ما نجدها مجتمعة في شخص واحد .وأن أحد أسباب هذه الانقسامات والتي نحاول أن نؤسسها في شكل تعارض نظري هو أن علماء الاجتماع يزعمون فرض (كطريقة وحيدة وشرعية لممارسة علم الاجتماع)الطريقة التي هي في متناولهم وبالتالي فهم يحاولون فرض تعريف جزئي لعلمهم .>>[10]

وهكذا فإن حقل علم الاجتماع كأي حقل هو محل صراعات: رهانها هو الحصول على موقع علمي مسيطر وفرض تعريف موحد للممارسة السوسيولوجية .

- بورديو *ينقد الاستعمالات المضللة لعلم الاجتماع*

إذا كان علم الاجتماع يبدو متنوعا من خلال نماذجه ومناهجه ، يمكن كذلك أن يكون موضوعا لتمايز حسب الوظائف الاجتماعية التي تؤديها وهكذا وحسب بورديو يمكن أن نميز بين علم اجتماع محافظ مهمته تكمن في إبقاء وضمان النظام الاجتماعي وعلم اجتماع الذي يمكن أن نصفه ب "التحرري" .

<< إن جزءا كبيرا من الذين يسمون أنفسهم علماء اجتماع أو اقتصاديين هم مهندسون اجتماعيون تكمن وظيفتهم في إعطاء وصفات لمسئولي المؤسسات الخاصة والإدارات . فهم يعقلنون المعرفة العملية أو شبه العلمية التي يحملها أعضاء الطبقة المسيطرة حول العالم الاجتماعي .إن الحكام هم في حاجة اليوم إلي علم قادر على عقلنة RATIONALISATION- في المعنى المزدوج - الهيمنة وقادر في ذات الوقت على تدعيم الآليات التي تضمن الهيمنة وتمشرعها

---

[10] **P. B. CHOSES DITES MINUIT PARIS 1987 P 48**

LEGITIMER.ومن البديهي أن هذا العلم يجد حدوده في وظائفه العملية سواء عند المهندسين الاجتماعيين أو عند قادة الاقتصاد كذلك ،وهذا العلم يستحيل عليه القيام بمراجعة جذرية>> .[11]

إن انتقادات بيار بورديو تأخذ نادرا شكل الجدالات الاسمية ولكن نلاحظ من خلال مقالاته وكتاباته أن المسلمات النظرية أو مناهج بحث هذا التيار أو ذاك قد أعيد فيها النظر أو انتقدت

وهكذا نلاحظ أن بورديو يقوم بنقد بعض الدراسات في علم الاجتماع التنظيمات أو علم اجتماع المؤسسات .ويرى بأنها لا تهدف سوى إلى تأسيس من خلال مقاربة تنتسب إلى العلم ، مناهج لتسيير"الموارد البشرية" أو لتنظيم العمل والتي يكمن هدفها في نهاية الأمر في المساهمة في تأويج نتائج المؤسسة أو الإدارة .

ومقاربات ميشال كروزييهM CROSIER مستهدفة من خلال هذا الخطاب وكذلك الحال بالنسبة لنوع من علم الاجتماع السياسي الذي لا يفلت بدوره من هذا النقد : علم الاجتماع السياسي الذي يهدف إلى استدامة أيديولوجية الديمقراطية بتجاهل حدودها والذي يدرس في مؤسسات تهدف إلى تكوين أعوان الدولة مثل معاهد الدراسات السياسية .

كل حقول علم الاجتماع يمكن بالتالي أن تساهم في مشرعة النظام القائم وفي إعطاء البراهين التي يستعملها المهيمنون لإبقاء هيمنتهم .

- *على عالم الاجتماع تفادي النزعة النبوئية*

التحول الى نبي سوسيولوجي يعني الاعتقاد في إيجاد حلول لمشكلات اجتماعية وهي ليست بالضرورة سوسيولوجية .

ان العديد من المسائل التي يجب على عالم الاجتماع دراستها مفروضة عليه من

---

[11] **HOMO ACADEMICUS P 24**

الخارج إذ نلجأ إلى عالم الاجتماع على أمل أن يحل مشكلات اجتماعية مثل الجنوح والإدمان على الخمر ومشكلة الضواحي والمهاجرين أو كذلك التهميش . ولكن هذه المشكلات ليست بمواضيع سوسيولوجية . وفي هذا الصدد إذا قبل عالم الاجتماع أن يفرض عليه موضوعه ،يخشى أن يقوم بدراسات تحوله إلى مختص في المشكلات الاجتماعية وذلك بإعطائه دور يجعله في الواقع رهانا لصراعات سياسية خاصة وأنه يعطي شبه ضمانة علمية للأعوان الاجتماعيين الذين لهم مصلحة في تحويل ظاهرة إلى مشكلة اجتماعية وكذلك الحال بالنسبة ل "تمهين"PROFESSIONNALISATION علم الاجتماع ، حيث اصبح علماء الاجتماع تابعين لطالبي الدراسات السوسيولوجية والمكونين أساسا من المؤسسات الخاصة أو العمومية وبالخصوص من هيئات الدولة . ومذاك فإن الخوف يتأتى في فرض الإشكاليات إن لم نقل الأطر النظرية .

وبالتالي على علماء الاجتماع تفادي عقبة الخضوع للطلب الاجتماعي خشية أن يتحولوا إلى أنبياء :

<< على كل عالم اجتماع أن يحارب في نفسه النبي الاجتماعي الذي طلب منه جمهوره أن بتقمصه . إن علم الاجتماع النبوئي يجد بطبيعة الحال المنطق الذي يبني الحس المشترك وفقه تفسيراته عندما يكتفي بإعطاء الصبغة المنهجية بصفة خاطئة ومزيفة لأجوبة علم الاجتماع التلقائي لأسئلة وجودية تعترض التجربة المشتركة في شكل مبعثر ، وانطلاقا من كل التفسيرات السهلة والتفسيرات بالسهولة ومن خلال الصيغ البسيطة هي التي تعطى بانتظام من قبل علماء الاجتماع النبوئيين الذين يجدون في ظواهر عادية ومألوفة مثل التلفزيون المبدأ التفسيري "لتحولات كونية".>> [12]

---

[12] **LE METIER P 43**

2- *بورديو يناضل من اجل علم اجتماع تحرري*

علم لامعياري، علم الاجتماع يجب أن يسمح بالكشف عن إستراتيجيات الهيمنة

إن علم الاجتماع خلافا للفلسفة أو للسياسة لا يهدف إلى حظر ومنع منطق اشتغال الاجتماعي ولكن إلى وصفه.لأن الحقل الاجتماعي يبدو كفضاء صراعي يهدف فيه الأعوان المهيمنون إلى إعادة إنتاج هيمنتهم . وبوصفه لهذه الآليات ،فإن عالم الاجتماع يتعاطى عمله العلمي ،وفي هذا السياق فإن عالم الاجتماع ليس بمناضل ولا بفيلسوف اجتماعي .ولكن في ذات الوقت فهو يصطدم بكل الأعوان الاجتماعيين الذين بصفة واعية أو غير واعية يساهمون في إبقاء الوضع القائم : من مثقفون ووسائل إعلام وهيئات الدولة .

إذا لم يكن الفعل لعلم الاجتماع وإنما المعرفة كغاية أولية ، فهو يعطي مع ذلك أدوات لفهم العالم الاجتماعي تسمح للأعوان الاجتماعيين النضال ضد كل أشكال الهيمنة .وإن كانت ناجعة إلى درجة معينة إلا أنها تقوم على نفي الهيمنة ذاتها . ومما سبق فإن علم الاجتماع يسمح بالنضال ضد مفعول التطبيع الذي يهدف إلى جعل الصياغات الاجتماعية طبيعية مثل هيمنة الرجال على النساء المؤسسة على تفوق بيولوجي مزعوم أو كذلك الكبار على الصغار القائمة على متغير يحمل كل المواصفات الموضوعية وهو السن . وكذلك الأمر بالنسبة لمفعول التعميم الذي يحول المصالح الخاصة في شكل مصلحة عامة بواسطة آليات متعددة ولكن تتجلى في جوهرها آلية التقنين ولا سيما من خلال القانون .

وفي هذا الصدد يجب أن نفهم تحليل نبالة الدولة NOBLESSE D ETATالمكونة من أعضاء الأسلاك الكبرى للدولة والذين يختارون بواسطة مسابقات انتقائية والتي تخول لهم معادلة ألقاب النبالة النظام القديم . لقد اضطروا

لتأسيس هيمنتهم، احتكار السلطات الاقتصادية والبيروقراطية والفكرية ، وبناء الدولة الحديثة وكل أساطير الجمهورية :من استحقاق ومدرسة تحررية وخدمة العمومية[13]

وهكذا يتجلى بوضوح الاستعمال الاجتماعي الذي يسمح به علم اجتماع بيار بورديو وذلك بالكشف للأعوان وسائل الهيمنة ، فهو يزودهم كذلك بالحجج القابلة للتعبئة في الفعل السياسي (العمل) إن وصف العلاقات الاجتماعية ليس عبارة عن عرض علمي بسيط ولكن أداة لتحرير المهيمن عليهم بالسماح لهم بتقرير مصيرهم بأنفسهم.إلا أن عالم الاجتماع لا يتولى تعويض المناضلين أو رجال السياسة لأنه حسب بورديو دائما فإن المهمة السياسية لعلم الاجتماع تتأتى من محتواه :فمن خلال احترامه لقواعد المسار العلمي ينتج علم الاجتماع النتائج التي تموضع التفاوتات الاجتماعية بغرض التنديد بها.

غير ان بيار بورديو ذاته لا يتوانى في اتخاذ موافق حول أحداث الحياة السياسية معيدا الصلة من جديد مع أشكال الالتزام ل"رفقاء الدرب " الماركسيين

يكشف بورديو عن حساسيته المفرطة والثائرة ضد آليات الهيمنة الاجتماعية ويدافع عن الفئات التي تبدو له مستضعفة .وهكذا نرى اسمه يتداول ويظهر العديد من المرات في أعمدة يوميات لوموند وليبيراسيون LE MONDE-LIBERATION. ويوقع على العرائض ومن بينها واحدة وقع عليها في مارس 1996 يدعو فيها إلى "التمرد المدني " ضد قوانين الوزير باسكوا PASQUAالتي تشدد التشريعات حول الهجرة .ويدعم الطلبة وتلاميذ الثانويات ضد الانتقاء في الجامعات ويندد بالرأسمالية المتوحشة (LIBERATION)[1]كما يدافع عن المثقفين الجزائريين ضحايا تهديدات واضطهاد الإسلاميين .واتخذ موقفا علنيا مع جانب مضربي حركات ديسمبر 1995 .

---

[13] P. B. LA NOBLESSE D ETAT MINUIT PARIS 1989

[1] LIBERATION,4/12/1986

- *علم الاجتماع يمكن أن يكون سلطة مضادة تضمن الديمقراطية*

إن علم الاجتماع بصفة عامة وعلم اجتماع بورديو بصفة خاصة لكونه يزعج فهو يثير كعلم العديد من الانتقادات .إضافة إلى التساؤلات التقليدية حول علميته ، هناك كذلك اتهامات حول غايته : فهو لا يصلح قي نظرها لأي شيء فهو حتمي يدعو إذن إلى السلبية بعدم تشجيع وعدم تعبئة الأعوان الاجتماعيين القادرين على بعث عمليات التغير الاجتماعي .فهو يعطي البراهين لكل أعداء النقد والديمقراطية ، فهو لا يزعج فقط و إنما هو خطير كذلك .وضد هذه المزاعم يقلب بيار بورديو الاستدلال :

<< في الواقع بعيدا عن الانصياع إلى عدم الاكتراث والشك، اللذان يولدان اللامبالاة والانتهازية ،فأن العلم وبالأخص العلم الاجتماعي يعطي احسن أدواته للممارسة العادية لنقد الأوهام الاجتماعية وهذا النقد هو شرط الاختيارات الديمقراطية وفي ذات الوقت فالعلم الاجتماعي يسمح بتأسيس طوباوية واقعية بعيدة جدا عن الإرادية اللامسؤولة مثل الاستسلام العلموي للنظام القائم . وبما أنه لا يوجد أي موضوع يمكن أن يفلت من عمله الموضعي ومن الجهد الخاص بالكشف عن الوسائل الخفية لإنتاج وإعادة إنتاج علاقات النظام المؤسسة للنظام الاجتماعي، فإن العلم الاجتماعي (يمارس، دون أن تكون له مصلحة في ذلك)وظيفة نقدية حاسمة >> [14]

لتبيين هذه الوظيفة النقدية لعلم الاجتماع ،يتضح أن دراسة العائلة من النماذج الواضح جدا ، وذلك بسبب العلاقة الجوارية التي لنا مع هذا الموضوع وعندئذ بمنظومة التمثلات الملازمة له . بالنسبة لبيار بورديو نستطيع فهم من خلال عمل الهدم وإعادة البناء فقط أن العائلة هي مقولة سياسية خاصة وأنها تهم السلطة التي ساهمت في تحديدها وتأطيرها وتطويعها و في الختام تطبيعها .

يوجد في التمثلات الاجتماعية للجماعة العائلية كما يمكن فهمها في الدراسات الخاصة بسبرالآراء أو في وسائل الإعلام عدد من المواصفات المعترف بها

---

[14] **P COMBERMALE SCIENCES SOCIALES DECOUVERTE PARIS 1995**

وكأنها عادية وخصوصية لهذه الجماعة :العائلة هي واقع يتجاوز الأفراد (كما يبين ذلك توريث اللقب)، فهي تشكل جماعة تتمتع بحياة وروح مشتركين وكذلك رؤية خصوصية للعالم فهي تبدو كطبيعية و عادية . ومن جهة أخرى فإن العائلة تبدو كجماعة تمجد الحياة الجماعية والحميمية بين أعضائها في مقابل العالم الخارجي ، ومؤسسة تعكس بذلك التقابل بين ما هو خارجي وداخلي وخاص وعمومي ومجاني وسوقي (في العائلة تفترض أساليب الحياة في العلاقات المنزلية غياب الحسابات أثناء التبادلات وسيطرة الهبة والتفاني) وفي الختام ، فإن العائلية ملازمة لمفهوم المنزل ولأقاليم خصوصية ولقارة أين تسجل الجماعة في فضاء جغرافي .

أمام هذا الواقع ، فإن عالم الاجتماع لا يمكن أن يتبنى لحسابه مقولات الحس المشترك . ولا بد حينئذ من إحداث قطيعة مزدوجة .

من جهة ،يتعلق الأمر بتبيين أن تعريف العائلة هو نتاج عملية تمر بالعديد من الطقوس المؤسساتية (فرض اللقب العائلي ، الزواج) ومن خلال عمل يقوم على تحديد مكانة مختلف أعضاء العائلة (وهكذا فإن تعبير "إنها أختك" يسطر حدود الحب إلى الحب الأخوي وينزع الطابع الجنسي على العلاقة)وغاية هذا العمل هي إدماج كل عضو في هذا الكيان الذي لا بد أن يكون موحدا ومستقرا .

ومن جهة أخرى لا بد من الأخذ بعين الاعتبار دور الدولة كمنتجة للمقولات الرسمية من خلال عملها التقنيني :

<< من الواضح، أن المسؤول الرئيسي في المجتمعات الحديثة ، على بناء المقولات الرسمية التي بموجبها يؤطر في ذات الوقت السكان والعقول هو الدولة (...) وإذا كان الشك الجذري يظل ضروريا فلأن التشخيص الوضعي البسيط (العائلة موجودة وقد إلتقينا بها بواسطة تشريحنا الإحصائي) يخشى أن يساهم، بفعل التوقيع والتسجيل ، في عمل بناء الواقع الاجتماعي المسجل في كلمة "عائلة " وفي الخطاب العائلوي الذي تحت مظهر وصف الواقع الاجتماعي ، يوصي

بنوع من الوجود أي الحياة العائلية (...) فالدولة خاصة من خلال كل عمليات الحالة المدنية المسجلة في الدفتر العائلي تسجل آلاف عقود التأسيس التي تؤسس الهوية العائلية كأحد المبادئ القوية لإدراك العالم الاجتماعي وإحدى الوحدات الأكثر واقعية.إن الرؤية العمومية موجودة بعمق في رؤيتنا للأشياء العائلية وتصرفاتنا الحميمية جدا رهينة الأفعال العمومية كما هو حال سياسة السكن أو بصفة اكثر مباشرة السياسة العائلية >>[15].

إن علم اجتماع بيار بورديو مزعج على اكثر من صعيد . أولا من خلال تصوره لمهنة عالم الاجتماع ونواهيه المنهجية المتكررة والتي تقصي كل الطرائق التي تدعي بصفة تعسفية أنها من صلب علم الاجتماع ، وذلك من خلال إرادته في عدم تفريق خطاب عالم الاجتماع عن الموقع الذي يحتله في الحقل الاجتماعي وهو نقد بالتالي لأيديولوجية المثقف الذي يتبنى وجهة نظر غير مصلحية ومحايدة بالضرورة تجاه الواقع الذي يصفه ، وفي الختام من خلال الوظيفة الاجتماعية لعلم الاجتماع الذي ، بإعطائه أدوات تحليل آليات الهيمنة الاجتماعية ، فهو يسمح بمحاربتها .

كل هذه الإنشغالات المنهجية والإبستيمولوجية مقدمة في كل تحاليله النظرية والتي على غرار تصوره للمجتمع أو للفرد تتضوي في إطار نقدي .

---

[15] **P.B. RAISONS PRATIQUES MINUIT PARIS 1994 P 145**

الفصل الثالث:النظرة الفضائية للمجتمع

الفضاءات والحقول

1-الفضاء الاجتماعي صراعي:

الفضاء الاجتماعي متدرج من خلال التوزيع غير العادل للرساميل

تسمح الانواع المختلفة من رأس المال بهيكلة الفضاء الاجتماعي

موقع الأعوان في فضاء الطبقات الاجتماعية رهين حجم وبنية رأسمالهم

في كتابه التمييز يعرض بورديو خصوصيات الطبقات الاجتماعية المختلفة

2-الحقول الاجتماعية:

الحقل يمكن اعتباره كسوق يسلك فيه الأعوان كلاعبين

الحقول ليست فضاءات ذات حدود مغلقة تماما ومستقلة:فهي متمفصلة فيما بينها

القيمة الاستكشافية لهذه المقاربة يمكن توضيحها بدراسة الحقل الاقتصادي

الحقل الاقتصادي استقل تدريجيا

3-إعادة الإنتاج والتغير الاجتماعي:

آليات الحفاظ على النظام الاجتماعي يبدو أنها تحتل الصدارة في المجتمعات المعاصرة

إن تعدد إستراتيجيات إعادة الإنتاج لا تستلزم غياب تعديل البنية الاجتماعية

إن موقع الطبقات الاجتماعية المختلفة في الفضاء الاجتماعي تغير من جراء التطور البنيوي للمجتمع

خلافا لمجتمعات النظام القديم القائمة على تدرج في المكانة حيث يتمتع رجال الدين والنبلاء والشعب بحقوق ووجبات مقننة ، فإن المجتمعات الصناعية تتميز بالتدرج الاجتماعي المحدد قانونيا .إن دراسة التمايز تفترض إذن شبكة تحليل للكشف عن عدم المساواة الموجودة بين الجماعات الاجتماعية .مع العلم إن التقاليد السوسيولوجية لا تعطي مقاربة وحيدة فهناك مقاربتان مختلفتان تتنافسان تقليديا ،ترى الأولى وهي ذات إيحاء ماركسي أن المجتمعات تنقسم في شكل طبقات اجتماعية متصارعة وذلك من خلال المقياس الاقتصادي .أما الثانية فهي امتداد لأعمال فيبير وتحلل المجتمع في شكل شرائح اجتماعية مشكلة انطلاقا من ثلاثة مبادئ للتصنيف : السلطة والمكانة والثروة وبرفضه الدخول في هذه التقسيمات التقليدية ، يهدف بيار بورديو إلى تجاوزها وذلك عن طريق التوليف بينها .

قترح بورديو مقاربة في شكل فضاء اجتماعي وحقول اجتماعية وهو ما يعني التزود بمفاهيم وأدوات تسمح ليس فقط بتحليل مواقع الجماعات وعلاقاتها ولكن كذلك بفهم النزعة الرامية إلى إعادة إنتاج النظام الاجتماعي .

1- الفضاء الاجتماعي صراعي :

- الفضاء الاجتماعي متدرج من خلال التوزيع غير العادل للرساميل

إن وصف المجتمع في شكل فضاء اجتماعي يسمح بالتوكيد على البعد العلائقي للمواقع الاجتماعية .

وتطبيقا للمبدأ المنهجي القائل أن كل ظاهرة اجتماعية مبنية ، فإن عالم الاجتماع يضع مقاييس تصنيف للكشف عن البنية الاجتماعية .إن تعبير " الفضاء الاجتماعي " يحدث قطيعة مع التمثلات التقليدية للتدرج الاجتماعي القائمة على النظرة الهرمية للمجتمع .

هذه النظرة تمنح لكل طبقة موقعا في السلم الاجتماعي وفقا للظروف المادية لوجودها.إن مثل هذه المقاربة ليست فقط حصرية على المستوى الأمبيريقي لكونها

تأخذ بعين الاعتبار مبدأ واحدا للتدرج ولكن كذلك غير مناسبة على المستوى النظري لأنها تنسى أن الطبقة الاجتماعية لا يمكن أن تعرف لوحدها وإنما فقط مع طبقات اجتماعية أحرى .

<< في البداية يظهر علم الاجتماع وكأنه طوبولوجية اجتماعية .وبالتالي يمكن أن نتمثل العالم الاجتماعي في شكل فضاء (ذو أبعاد متعددة) مبني على أساس مبادئ التمييز أو التوزيع المكونة من مجموعة الخصائص التي تعتمل في العالم الاجتماعي (...) وهكذا فإن الأعوان ومجموعات الأعوان يعرفون ويحددون من خلال مواقعهم في هذا الفضاء .فكل واحد منهم متمو قع في موقع محدد أو في طبقة محددة من المواقع المجاورة .(بمعنى في منطقة معينة من الفضاء) ويمكن أن نشغل في الواقع ،حتى وإن كان ذلك على مستوى الفكر،منطقتين متعارضتين في الفضاء (...) يمكن أن نعرف الفضاء الاجتماعي كفضاء من المواقع متعدد الأبعاد بحيث أن كل موقع حالي يمكن أن يحدد وفقا لمنظومة متعددة الأبعاد من الإحداثيات والتي تتوافق قيمتها مع قيمة مختلف المتغيرات المناسبة، ففي البعد الأول يتوزع الأعوان في هذه المنظومة حسب الحجم الإجمالي للرأسمال الذي يمتلكونه وفي البعد الثاني حسب تشكيلة رأسمالهم بمعنى حسب الوزن النسبي لمختلف الأنواع في مجموعة ممتلكاتهم .>>[16]

- تسمح الأنواع المختلفة من رأس المال بهيكلة الفضاء الاجتماعي :

يرجع مفهوم رأس المال في بداية التحليل إلى المقاربة الاقتصادية ويفسر التشابه من خلال الخصائص المعروفة للرأسمال :فهو يتراكم من خلال عمليات الاستثمار وينتقل بواسطة التوارث كما يسمح بتحقيق أرباح لمالكه بحسب فرص توظيفه الأكثر مردودية .

هذه الخصائص تجعل من رأس المال مفهوما استكشافيا إذا لم نحضر استعماله فقط كما يقول بورديو في الميدان الاقتصادي .وبالفعل ،يمكن أن نميز بين أربعة أنواع من الرأسمال:

---

[16] **P. BOURDIEU,ESPACE SOCIAL,OP.CIT,P2**

-الرأسمال الاقتصادي الذي يتكون من العوامل المختلفة للإنتاج (الأرض والمصانع والعمل...)ومجموع الثروات الاقتصادية :المداخيل والإرث والثروات المادية،

-الرأسمال الثقافي ويمثل كل المهارات الفكرية سواء تلك المنتجة من طرف المنظومة المدرسية أو تلك الموروثة عن طريق العائلة . يمكن أن يكون هذا الرأسمال في ثلاثة أشكال في الحالة المدمجة كاستعداد دائم للجسم (مثل التعبير بسهولة داخل جماعة) وفي الحالة الموضوعية كثروة ثقافية (مثل امتلاك لوحات فنية ومؤلفات)وفي الحالة المؤسساتية بمعنى مثمن اجتماعيا (كما هو الحال بالنسبة للشهادات المدرسية)

-الرأسمال الاجتماعي ويعرف أساسا كمجموعة العلاقات الاجتماعية التي يمتلكها الفرد أو الجماعة ، وامتلاك هذا الرأسمال يستلزم عملا لإقامة وصيانة العلاقات بمعنى عملا للألفة والدعوات المتبادلة والترفيه المشترك .

-الرأسمال الرمزي وهو يتعلق بمجموعة الطقوس التي لها علاقة بالشرف والاعتراف وهو في النهاية السمعة والسلطة التي يتمتع بها العون من خلال اكتسابه للأشكال الثلاثة الأخرى للرأسمال .وهذا النوع من الرأسمال يسمح بفهم أن التظاهرات المختلفة لقواعد حسن السلوك ليست فقط من متطلبات الضبط الاجتماعي وإنما لها كذلك مزايا اجتماعية ذات عواقب فعلية.

- موقع الأعوان في فضاء الطبقات الاجتماعية رهين حجم وبنية رأسمالهم

من بين الأشكال المختلفة للرأسمال لدينا الرأسمال الاقتصادي والرأسمال الثقافي اللذان يكشفان عن مقاييس التمايز الأكثر ملائمة لبناء الفضاء الاجتماعي للمجتمعات المتطورة ومنه فإن الأعوان الاجتماعيين يتوزعون حسب منطق مزدوج ،وحسب بعد مضاعف.يتمثل المنطق الأول في خلق تدرج بين الجماعات الاجتماعية حسب حجم الرأسمال الذي تتوفر عليه ويتم ذلك في البعد العمودي.ومن ثمة يمكن أن نقارن بين الأعوان الذين لهم رأسمال قوي سواء كان

اقتصاديا أو ثقافيا والأعوان الذين لهم رأسمال ضعيف .هذا التدرج يبدو وكأنه حاسم فهو يضع أرباب العمل وأعضاء المهن الحرة وأساتذة الجامعات في قمة الهرم بينما الذين لا يملكون رأسمالا ثقافيا واقتصاديا فهم يوجدون في أسفل السلم الاجتماعي.أما المنطق الثاني فهو يقيم التمايز على أساس بنية راس المال بمعنى على الأهمية المتبادلة للنوعين من الرأسمال في الحجم الإجمالي لهذا الاخير .وهكذا يمكن أن نقارن بين الأعوان الاجتماعيين الذين يعطون للرأسمال الاقتصادي أهمية مقارنة بالرأسمال الثقافي

إن هذه التمايزات الثانوية تسمح بالكشف عن الفوارق الداخلية بين الجماعات التي تشغل نفس الموقع في البعد العمودي للفضاء الاجتماعي.ومن هذه الزاوية يتعارض أرباب العمل في الصناعة والتجارة مع الأساتذة لأن لهم رأسمال اقتصادي أعلي من الرأسمال الثقافي بينما الأساتذة فلهم رأسمال ثقافي أعلي من رأسمالهم الاقتصادي.

- في كتابه التمييز يعرض بورديو خصوصيات الطبقات الاجتماعية المختلفة إنطلاقا من تسمية الفئات الاجتماعية -المهنية التي صاغها المعهد الوطني للدراسات الإحصائية والاقتصادية والدراسات التي قام بها مع فرق بحثه يمكن أن نقسم الفضاء الاجتماعي إلى ثلاث طبقات نجد في البداية الطبقات المهيمنة أو العليا والتي تتميز بأهمية رأسمال أعضائها. الطبقات المهيمنة تتميز بزاد مرتفع في الرأسمال لأن أعضاءها لهم في اغلب الأحيان أنواع مختلفة من الرساميل. وهذه الطبقة تحسن توظيف التمايز وذلك لإثبات هوية خاصة وفرض -بإضفاء الطابع الشرعي -نظرتها للعالم على الجميع.فهي تحدد الثقافة الشرعية.

ولكن من الممكن وحسب بنية الرأسمال المكتسب أن نميز بين فصيلتين متعارضتين.الفصيلة المسيطرة للطبقة المهيمنة وتتميز بصدارة الرأسمال الاقتصادي وهي في حد ذاتها تنقسم إلى مجموعتين حسب الأقدمية والانتماء إلى الطبقة المسيطرة :

من جهة نميز البرجوازية القديمة المكونة من أرباب عمل مؤسسات التجارة والصناعة، ومن جهة أخري البرجوازية الجديدة التي تضم الإطارات العليا التابعة للقطاع الخاص والتي في غالبيتها تخرجت من المدارس العليا للتسيير الاقتصادي والتجاري.والفصيلة المسيطر عليها في الطبقة المسيطرة لها في غالب الأحيان رأسمال ثقافي أكثر من الرأسمال الاقتصادي.وتضم المهندسين والأساتذة والمهن الفكرية.

البرجوازية الصغيرة تجد وحدتها في إرادتها في الصعود الاجتماعي ولكن تخترقها هي الأخرى عدة فوارق

يشترك أعضاؤها في عدد كبير من الخصائص .إن البرجوازيين الصغار يشغلون منصبا وسطا في الفضاء الاجتماعي سواء أكانوا مؤجرين أو عمالا أحرارا أو مستخدمين.إن مفهوم البرجوازية الصغيرة يموقع هذه الجماعة ضمن البرجوازية لأن ممارسات وتمثلات الأفراد المشكلين لها تفسر من خلال إرادتهم في الصعود الاجتماعي.وفيما يتعلق بالثقافة فإن للبرجوازية الصغيرة إستقلالية كبيرة مقارنة بالبرجوازية.فهي تحترم النظام الاجتماعي القائم ومع بعض الاستثناءات تبدو متمسكة بالمبادئ الأخلاقية.فهي تشهد على "حسن النية الثقافية "التي تقوم على محاكاة ثقافة الطبقة المسيطرة.

إلا انه توجد فوارق داخل هذه الطبقة الأمر الذي يؤدي إلى التمييز بين ثلاث فصائل. ويصلح مفهوم المسار الاجتماعي لتعريف الفصيلة الأولى لهذه الطبقة، ألا وهي البرجوازية الصغيرة المتقهقرة المكونة من الحرفيين والتجار والتي ما فتئ عددها يتقلص.وتسمى كذلك بالبرجوازية التقليدية باعتبارها تضم أصحاب المهن

القديمة.والفصيلة الثانية تتمثل في البرجوازية الصغيرة التنفيذية التي تضم في غالبيتها الموظفين والإطارات المتوسطة للمؤسسات الخاصة والتقنيين والمعلمين.وأخيرا البرجوازية الصغيرة الجديدة المكونة إما من برجوازيين صغار لهم رأسمال ثقافي قوي ولكن ينقصهم الرأسمال الاجتماعي لكي يستفيدوا اكثر من رأسمالهم الثقافي وإما من أعوان منحدرين من البرجوازية ولكنهم لم يكسبوا من المؤسسة المدرسية الشهادات التي تسمح لهم بالبقاء في الطبقة المسيطرة.إن ما يشتركون فيه هو أنهم يناضلون من أجل زيادة المكانة الاعتبارية للمهن التي يمارسونها وتغيير نظرة الأعوان الآخرين نحوهم ،وهذه الجماعة تتكون من المهن الفنية والفكرية.

- الطبقات الشعبية تتميز بعدم الامتلاك

توجد الطبقات الشعبية في الطرف الآخر من الفضاء الاجتماعي فهي تعرف بالغياب شبه التام للرأسمال مهما كانت طبيعته.فهو محكوم عليها ب"اختيار الضروري" كما يدل على ذلك عنوان الفصل الأول من الكتاب الذي خصصه لها بيار بورديو "التمييز" . مع العلم إن القيمة التي تؤسس وحدة هذه الجماعة تتمثل في الفحولة،لأن العديد من ممارساتها وتمثلاتها يجد معناه في هذا المفهوم.كما أن وحدتها قائمة على قبول السيطرة.وهنالك تمييز ثانوي يمكن إدخاله بين العمال والمزارعين الصغار من جهة والمؤجرين الصغار (عمال الخدمات والمؤجرين في الزراعة من جهة أخرى.

2- الحقول الاجتماعية

زيادة على هذه النظرة الإجمالية للمجتمع يضيف بورديو تحليلا في شكل حقول اجتماعية

المجتمع هو مجموعة من الحقول الاجتماعية المخترقة من طرف صراعات بين الطبقات.

في صلب نظرية الحقول هناك تشخيص مفاده أن العالم الاجتماعي هو مكان لعملية تمييز متدرجة.وإن تطور المجتمعات ينزع إلى إظهار عوالم وميادين

وحقول (حسب معجمية بورديو) التي هي إنتاج للتقسيم الاجتماعي للعمل . والتقسيم الاجتماعي للعمل عكس التقسيم التقني الذي يمس تنظيم الإنتاج فقط،يشمل كل الحياة الاجتماعية لأنه يتعلق بعملية التمييز التي تتمايز من خلالها الوظائف عن بعضها البعض. (الدينية والاقتصادية والقانونية والسياسية)

- الحقل يمكن اعتباره كسوق حيث يسلك فيه الأعوان كلاعبين

<< يمكن في عبارات تحليلية أن نعرف الحقل كشبكة أو كتجلي للعلاقات الموضوعية بين المواقع.هذه المواقع محددة موضوعيا في وجودها وفي الحتميات التي تفرضها على الذين يشغلونها(أعوانا أو مؤسسات) من خلال موقعهم الحالي والمحتمل في بنية توزيع الأنواع المختلفة للسلطة (أو للرأسمال) بحيث أن امتلاكها يتحكم في الحصول على الفوائد الخصوصية التي هي محل رهان في الحقل وفي آن معا في العلاقات الموضوعية للمواقع الأخرى (السيطرة والتبعية والتشابه...) وفي المجتمعات التي يوجد فيها تمايز شديد فان الكوسموس الاجتماعي يتكون من مجموعة الميكروكوسمات الاجتماعية ذات الاستقلالية النسبية وفضاءات العلاقات الموضوعية التي هي مكان لمنطق ولضرورة خصوصية وغير قابلة للحصر في تلك التي تسير الحقول الأخرى.مثلا الحقل الفني أو الحقل الديني أو الحقل الاقتصادي كلها تخضع لمنطق مختلف.>>[1]

يلخص هذا المقطع مميزات كل حقل والتي يسميها بيار برديو "القوانين العامة للحقول"LOIS GENERALES DES CHAMPS .ولتوضيح هذا المفهوم يمكن أن نلجأ إلى القياس، إذ يمكننا في الواقع أن نتصور الحقل وكأنه سوق فيه منتجون ومستهلكون للخيرات.

المنتجون أفراد مزودون برساميل خصوصية ويتواجهون لأن رهان هذه الصراعات هو مراكمة نوع من الرأسمال الذي يسمح ويضمن السيطرة على الحقل. ويظهر الرأسمال في هذه الحالة إذن كوسيلة وكغاية في آن معا .إن بنية

---

[1] **P.BOURDIEU AVEC WACQUANT,OP.CIT,P72**

الحقل،في مرحلة ما من التاريخ،تشهد على علاقات القوة بين الأعوان.وفي هذا الصدد،يكون الحقل فضاءا لقوى متصارعة.

وللكشف عن سلوكات الأعوان داخل الحقول يلجأ بيار بورديو إلى إجراء تشابه مع اللعب.

<< صحيح أنه يمكن مقارنة الحقل بلعب(رغم أنه،خلافا للعب،فإن الحقل ليس إنتاج إبداع متعمد لأنه يخضع لقواعد وكذلك لتكرارات وانتظامات غير مصرح بها وغير مقننة).لدينا كذلك رهانات والتي هي في أساسها إنتاج المنافسة بين اللاعبين،وهو استثمار في اللعب:اللاعبون مأخوذون في اللعب،فلا يتصارعون بشدة، لأنهم يشتركون في تناغم اللعب والرهانات والاعتقادDOXA وهذا الإعتراف ليس محل لإعادة النظر(...)وهذا التواطؤ يكون في صلب تنافسهم وصراعاتهم لأن اللاعبين لهم مزايا، بمعنى أوراق رابحة تتغير قوتها وقيمتها حسب اللعب:وكما أن القوة النسبية للأوراق تتغير حسب اللعب،يكون كذلك الشأن بالنسبة لتدرج مختلف أنواع الرأسمال(الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والاعتباري)الذي يتغير حسب الحقول المختلفة.>>[1]

إن إستراتيجيات اللاعبين ستكون رهينة حجم رأسمالهم وكذلك بنيته،والهدف من اللعب هو الحفاظ على/ أو مراكمة رأسمال أكثر مع إحترام قواعد اللعبة.

الأفراد الذين يحتلون مواقع مسيطرة يتبنون إستراتيجيات الحفاظ.ولكن بوسع للاعبين أيضا أن يبحثوا لتغيير هذه القواعد، بالإنتقاص مثلا من قيمة رأس المال الذي تقوم عليه قوة منافسهم:ويتعلق الأمر هنا بإستراتيجيات التمرد المستعملة خاصة من طرف الأفراد المسيطر عليهم.

وإذا حاولنا استجلاء الخصائص العامة للحقول نلاحظ أن لكل حقل رهانه الخصوصي وتاريخه الخاص الذي يسمح بفهم استقلاليته مقارنة بالحقول الأخرى.

---

[1] **P. B. /WACQUANT, P74**

- الحقول ليست فضاءات ذات حدود مغلقة تماما ومستقلة بكاملها:فهي متمفصلة فيما بينها.

من جهة فإن موقع الأعوان الاجتماعيين في حقل مرتبطة بموقعهم في الفضاء الاجتماعي، حيث يوجد تشابه بين البنية الاجتماعية والحقول الاجتماعية.وبالتالي فإن كل حقل - حتى وإن كان يملك منطقه الخاص ويتمتع باستقلالية نسبية- تخترقه فوارق مماثلة لتلك التي تتعارض فيها الطبقات المختلفة.

<< ...يمكن ملاحظة جملة من التشابهات البنيوية والوظيفية بين الحقل الفلسفي والحقل السياسي والحقل الأدبي...وبنية الفضاء الاجتماعي: ففي كل واحد منها هناك من يسيطر ومن هو مسيطر عليه،وصراعات ومحافظة وتمرد وآليات إعادة الإنتاج...>>[1]

فإذا حاولنا كما فعل بوديو دراسة حقل قادة المؤسسات الكبيرة،نلاحظ أن هناك هيكلة وتأطير بين العمومي والخاص ترجعنا إلى المواقع المختلفة في الفضاء الاجتماعي الشامل.

ترجع مكانة قادة المؤسسات الصناعية الكبيرة التي لها علاقة بالدولة والمنحدرين غالبا من عائلات موظفين سامين أو من مهن حرة إلى رأسمالهم الاجتماعي المرتفع وإلى رأسمالهم المدرسي المكون في المدارس العليا:إذن فرأسمالهم بالدرجة الأولى هو ثقافي،فهم يتعارضون مع أرباب العمل الخواص (ورثة برجوازية الأعمال الكبيرة أو المنحدرين من البرجوازية الصغيرة) الذين تم مسارهم المهني في القطاع الخاص ودراستهم كانت قصيرة نسبيا فرأسمالهم يغلب عليه الطابع الاقتصادي.

ومن جهة أخرى،يوجد تداخل بين الحقول.وهكذا فإن منطق اشتغال الحقل الاقتصادي ينزع إلى استثمار الحقول الأخرى:الحقل الفني،ولاسيما اللوحات الفنية الذي أصبح أكثر فأكثر سوقا حيث يفسر منطق التوظيف الاقتصادي والمضاربة

---

[1] **P.B./WACQUANT,P82**

التغيرات الكبيرة ل"قيمة"الفنانين. ولا يشذ الحقل البيروقراطي الذي لا يتمتع بإستقلالية مطلقة تجاه السلطات الاقتصادية عن القاعدة.

القيمة الاستكشافية لهذه المقاربة يمكن توضيحها بدراسة الحقل الاقتصادي

يقوم الحقل الاقتصادي على منطق خصوصي يتعارض مع منطق المجتمعات التقليدية.

<< كل حقل بوصفه إنتاجا تاريخيا،تترتب عنه المصلحة التي هي شرط اشتغاله.وهذا يصح على الحقل الاقتصادي ذاته الذي لكونه فضاءا مستقلا نسبيا،يخضع لقوانينه الخاصة،وله مسلماته الخصوصية المرتبطة بتاريخه، وينتج شكلا خصوصيا من المصلحةالتي هي حالة خصوصية في عالم الأشكال الممكنة للمصلحة >>[1]

إن إنتاج وتبادل الخيرات هي نشاطات ضرورية.ولكن لا شيء يفرض أن تكون مستقلة عن النشاطات الأخرى ولا أن تكون قائمة على المصلحة الفردية.في المجتمعات التقليدية الإنتاج والتبادل هما أساسا نشاطات اجتماعية.والتبادلات غير النقدية تهدف إلى الحفاظ على الروابط الاجتماعية وتتم وكأنها هبات مجانية،والمظهر النفعي في هذا التبادل ثانويي.وكذا الحال بالنسبة للممارسات الاقتصادية عند "القبائل"KABYLES الذين درسهم بورديو[2].

القبائل لهم ممارسات ترجع إلى الاقتصاد ما قبل الرأسمالي حيث تتعارض الأخلاق القائمة على حسن النية والشرف مع أخلاق السوق،المعتبرة كمكان للحساب وحتى للحيلة الشيطانية.وبالتالي لا بد من فهم العملية التي أدت إلى ظهور الحقل الاقتصادي كدائرة لنشاط خصوصي.

- الحقل الاقتصادي استقل تدريجيا

يمكن أن نفحص هذه الاستقلالية من الزاوية الاجتماعية -التاريخية.ويتعلق الأمر هنا بتبيين ظهور جماعة اجتماعية خصوصية كالبرجوازية ونشأة القيم التي هي

---

[1] **P.B. CHOSES DITES,OP.CIT. P.126**

[2]**P.B. LE SENS PRATIQUE,ED MINUIT,PARIS,1980**

في صلب الرأسمالية،وهذا يحيلنا مباشرة إلي ماكس فيبير الذي تحدث عن العلاقة الموجودة بين الأخلاق الكالفينية و"روح الرأسمالية" LA MORALE CALVINISTE ET L ESPRIT DU CAPITALISME.العمل يصبح هدفا في حد ذاته مهنة،في حين أن حب الترف يصبح محرما أما الارباح الأرباح يعاد استثمارها.وقد بين كارل بولانيKARL POLANYI وهو مؤرخ واقتصادي وأنثروبولوجي مجري في كتابه "التحول الكبير" LA GRANDE TRANSFORMATIONالصادر سنة 1944،كيف أن بناء الاقتصاد لا يمكن عزله عن تطور الفلسفة الليبرالية.

إن مفهوم المصلحة الاقتصادية الذي يعني تأويج الفوائد والأرباح والتقليل من التكاليف،كما هو وارد في نموذج الإنسان الاقتصادي HOMO OECOMINUCUS الذي يتفاعل في إطار سوق قائمة على التنافس الحر والكامل،هذا المفهوم هو صياغة مموقعة تاريخيا واجتماعيا.

إن الحقل الاقتصادي مهيكل اليوم من قبل العديد من المنظمات والهيئات التي تشهد تنافسا داخليا بين الأعوان الذين يشغلون مواقع متقاربة في الحقل وكذلك منافسة خارجية مع الأعوان الذين يشغلون مواقع في حقول أخرى.وهو حال منتجي الخيرات والخدمات،والمؤسسات التي لها إستراتيجيات ونتائج اقتصادية متمايزة.والدولة كذلك تتدخل كمنظم حيث أن قراراتها المتعلقة بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية تحدد أو تعدل قواعد اللعب الخاصة بالحقل.ويضاف إلى ذلك منتجو المعرفة ومروجوها المتنافسون فيما بينهم (برامج الدراسات في الاقتصاد في العديد من المؤسسات المدرسية والجامعية التي تنشر طريقة خصوصية لرؤية العالم،والمدارس التي تضمن التكوين المهني،ومنظومات الانتقاء التي يترتب عنها تمثيل كبير لأعضاء البرجوازية الصناعية والتجارية في المؤسسات التي تكون في الاقتصاد،والهيئات الإعلامية المتخصصة والمجلات والحصص

تلفزيونية،والملتقيات والمؤتمرات الدولية،والهيئات التي تعيش على إنتاج التحاليل والدراسات الاقتصادية).

ولكن،سواء تعلق الأمر بمختلف الحقول أو بالمجتمع الكلي،فإن منطق اشتغالها متشابه،الأمر الذي يؤدي إلى التساؤل حول عوامل ديمومتها أو/وتحولها.

3 -إعادة الإنتاج والتغير الاجتماعي

آليات الحفاظ على النظام الاجتماعي يبدو أنها تحتل الصدارة في المجتمعات المعاصرة.

تبين الدراسات حول الحراك الاجتماعي أن هناك نزعة قوية إلى إعادة الإنتاج الاجتماعي.والحراك الاجتماعي يعني مرور الأفراد بين الفئات أو الطبقات الاجتماعية وهناك الحراك داخل الأجيال أو الحراك المهني المتمثل في إنتقال أفراد فئة معينة إلى فئة أخرى خلال نفس الجيل،وهناك الحراك بين الأجيال المتمثل في إنتقال فرد من جماعة اجتماعية التي تنتمي إليها عائلته إلى جماعة أخرى.وفي هذه الحالة نقارن بين وضعية الجيلين، أي بين وضعية الآباء ووضعية الأبناء.وحسب منحى الانتقال نقارن بين الحراك العمودي الصاعد(الصعود الاجتماعي)والحراك النازل(التقهقر الاجتماعي أو الانحدار في مستوى السلم الاجتماعي)

تقوم الدراسات حول الحراك الاجتماعي على جداول الحراك وهي جداول إحصائية ذات مدخلين يتقاطع فيهما الموقع الاجتماعي للفرد في وقت معين بموقع أبيه.وقراءة المنحنى تعطينا معلومات هامة والأرقام الموجودة فيه تزودنا بمؤشرات تتعلق بإعادة الإنتاج ومكملها: السيولة الاجتماعية.وبالفعل،كلما كانت معطيات المنحنى مرتفعة كلما اعتبر المجتمع ثابتا،لأن عدد الأفراد الذين لهم نفس المكانة كآبائهم يظلون مسيطرين.في هذه الحالة نتحدث عن إعادة الإنتاج الاجتماعي أو كذلك عن الوراثة الاجتماعية وعكس ذلك كلما كانت أرقام المنحنى ضعيفة كلما كان الحراك الاجتماعي قويا،فنقول أن في المجتمع سيولة.

إن الدراسات الإحصائية التي أجريت في فرنسا منذ الخمسينيات تؤكد على أن هناك حراكا اجتماعيا ضعيفا على الرغم من استعمال تقسيم للمجتمع قائم على ثلاث طبقات.بين 1953 و1977 ورغم التحولات البنيوية العميقة المترتبة عن"الثلاثينات المجيدة" على المستوى الاقتصادي والتحولات الثقافية والمؤسساتية لم يحدث في المجتمع الفرنسي تمازجات اجتماعية كبيرة.وعموما فان الحراك ارتفع ولكن بصفة شبه محسوسة.وعلاوة على ذلك فإن هذه النزعة العامة تخفي أن الحراك الاجتماعي كان مهما في الطبقات المتوسطة.أما بالنسبة للفئات الشعبية والطبقات المسيطرة فإن الثبات يحتل الصدارة.وختاما فإننا نلاحظ منذ أزمة السبعينيات أن هناك نزعة إلى تباطؤ الحراك الاجتماعي واليوم ومنذ الحرب العالمية الثانية نلاحظ تقهقر الفرص لإيجاد عمل مؤجر وكذلك إنسدادا للأفق في المسار المهني عبر الأجيال.

إعادة إنتاج النظام الاجتماعي هذه تفسر من خلال الإستراتيجيات المختلفة التي يقوم بها الأعوان الاجتماعيون للحفاظ أو لامتلاك الرأسمال حسب أنواعه المختلفة.

حسب بورديو فإن الأعوان الاجتماعيين يبحثون دوما على الحفاظ أو على زيادة رأسمالهم وبالتالي على الحفاظ أو على تحسين موقعهم الاجتماعي ،وأن آليات الحفاظ على النظام الاجتماعي تحتل الصدارة بسبب أهمية إستراتيجيات إعادة الإنتاج.

<< إن أحد الأسئلة الأساسية المطروحة فيما يتعلق بالعالم الاجتماعي وهو السؤال الخاص بمعرفة لماذا وكيف يستمر العالم ويدوم في الكائن،وكيف يستمر النظام الاجتماعي،بمعنى مجموعة علاقات النظام التي تشكله.(...) يمكن وضع جدول للطبقات الكبرى لاستراتيجيات إعادة الإنتاج(...) الموجودة في كل المجتمعات

ولكن بموازين مختلفة(...)وفي أشكال تتغير حسب طبيعة الرأسمال الذي يجب نقله ووضعية آليات إعادة الإنتاج المتوفرة.>>[1]

ومذاك يمكن إقامة نمطية لهذه الاستراتيجيات:

- إستراتيجيات الاستثمار البيولوجي وأهمها الإستراتيجيات المتعلقة بالخصوبة والإستراتيجيات الوقائية. تهدف الأولى إلى مراقبة عدد الفروع وذلك لضمان انتقال الرساميل كما يتعلق الأمر عند بعض الجماعات الاجتماعية بمساعدة أعضائها في الصعود الاجتماعي وذلك بتحديد خصوبتها إراديا.أما الثانية فهي موجهة للحفاظ على الموروث البيولوجي ويتعلق الأمر بتسيير الرأسمال الجسمي ،وتتميز بتبني ممارسات تسمح بالحفاظ على الصحة وتفادي الأمراض .الفوارق في طول العمر بين الإطارات والمهن الفكرية العالية والعمال تشهد حقا على ظروف العمل المختلفة وكذلك عن العلاقة المختلفة بالجسم وبالمرض ويلاحظ التعارض بين الجماعتين على مستوى الاستهلاك الغذائي وكذا على مستوى استهلاك المواد السامة كالتبغ والكحول وكذا اللجوء المتباين إلى المنظومة الصحية.

- الإستراتيجيات الوراثية التي تهدف إلى ضمان انتقال الإرث المادي بين الأجيال وذلك من خلال أقل تسرب ممكن.وتكون ذات أهمية كلما كان الرأسمال الاقتصادي مسيطرا في الحجم الإجمالي للرساميل.إن انتقال المزرعة بالنسبة للمزارعين والدكان بالنسبة للتجار والورشة بالنسبة للحرفيين يعتبر رهانا مركزيا بالنسبة لهؤلاء المستقلين الذين لهم رأسمال ثقافي ضعيف.

- الإستراتيجيات التربوية التي تهدف إلى إنتاج أعوان اجتماعيين مؤهلين وقادرين على تلقي إرث هذه الجماعة،بمعنى نقله بدورهم إلى الجماعة.وفي الإستراتيجيات المدرسية للعائلات يمثل الأبناء المتمدرسون أحد أشكالها وهو ما سنتعرض إليه في الفصل السادس.

---

[1] **P.B. STRATEGIES DE REPRODUCTION ET MODES DE DOMINATION,ARSS,105,1994**

- إستراتيجيات الاستثمار الاقتصادي التي توجه نحو إستدامة أو زيادة الرأسمال الاقتصادي في كل أشكاله.ويتعلق الأمر في ذات الوقت بمراكمة الرأسمال الاقتصادي وكذلك الرأسمال الاجتماعي ،وتهدف إستراتيجيات الاستثمار الاقتصادي إلى إقامة أو إلى صيانة العلاقات الاجتماعية القابلة للاستعمال مباشرة أو القابلة للتجنيد،سواء في الأمد القريب أو البعيد،وذلك بتحويلها إلى التزامات دائمة،ولاسيما من خلال تبادل النقود والعمل والوقت.والإستراتيجيات الزواجية تمثل في ذلك حالة خصوصية.

- إستراتيجيات الاستثمار الرمزي وهي كل الأفعال الهادفة إلى الحفاظ وإلى زيادة رأسمال الاعتراف.ويتعلق الأمر بالإستراتيجيات التي يكمن هدفها في إعادة إنتاج بنى الإدراك والتقدير الأكثر ملائمة مع خصائصها وإنتاج أفعال كفيلة بأن تثمن إيجابيا حسب هذه الفئات.وهو ما سنتعرض إليه في الفصل الخامس.

- تعدد إستراتيجيات إعادة الإنتاج لا تستلزم غياب تعديل البنية الاجتماعية.

إن فعالية إستراتيجيات إعادة الإنتاج رهينة أدوات إعادة الإنتاج الموضوعة تحت تصرف الأعوان والتي تتغير مع التطور البنيوي للمجتمع.

<< إن استراتيجيات إعادة الإنتاج المتعددة والتي هي في ذات الوقت مستقلة إلى درجة الصراع والتي يدبرها كل الأعوان المعنيين ،هذه الإستراتيجيات هي التي تساهم باستمرار في إعادة إنتاج البنية الاجتماعية،ولكن بمشاكل وخسائر ناتجة عن التناقضات الملازمة للبنى وللصراعات أو التنافس بين الأعوان.>>[1]

وهكذا نلاحظ في المجتمعات المعاصرة، ينزع الرأسمال الاقتصادي أو الرأسمال الثقافي (الشهادة المدرسية) أن يحل محل سلطة مباشرة وشخصية على الأفراد.إن حضور الدولة البيروقراطية واللاشخصية التي تمنح وتضمن الاعتراف البيروقراطي قد عدل من إستراتيجيات إعادة الإنتاج وذلك بمنح صدارة لا جدال فيها لأسلوب إعادة الإنتاج المدرسي

---

[1] **P.B./ WACQUANT,P.114**

<< في المؤسسات البيروقراطية الكبرى،لم تعد الشهادة صفة لها علاقة بالمكانة(...)لتكون حقا في الدخول لأن المدرسة (في شكل "مدرسة كبرى")والسلك (الجماعة التي تنتجها المدرسة من خلال الانتماء إليها) أخذا مكان الآسرة والقرابة إن إجتذاب الزملاء على أساس التضامن المدرسي أو على أساس الانتماء إلى السلك يلعب الدور الذي كان يرجع إلى المحاباة وإلى التضامن العشائري في المؤسسات العائلية.>>[1]

ومذاك فإن عملية تحويل الرأسمال تصبح مفروضة.إن تعديل حقل المؤسسات المتميز باشتغال بيروقراطي أكثر فأكثر يفرض بدوره تغيرا في خصائص المستخدمين الذين يشغلون مناصب قيادية،بينما في السابق فإن اختيار وتوظيف القادة يتم في الإطار العائلي.أما الآن فيقوم أساسا على الشهادات المدرسية.وبالتالي،فإن مالكي التراث الفردي أو العائلي ينزعون إلى تحويل ممتلكاتهم القابلة للتحويل عن طريق الوراثة إلي استثمارات تربوية.وهكذا فإن أبناءهم يتلقون جزءا من تراثهم في شكل رأسمال،الرأسمال الثقافي المعترف به،الذي يصبح شرطا ضروريا للوصول إلى المواقع المسيطرة.

موقع الطبقات الاجتماعية المختلفة في الفضاء الاجتماعي تغير من جراء التطور البنيوي للمجتمع.

عدلت التحولات القطاعية التي عرفها القطاع الإنتاجي من بنية الوظائف وأدت إلى تحويل اليد العاملة .ويمكن أن نذكر السمات الكبرى لهذا التطور:تقهقر القطاع الزراعي ابتداء من الستينيات والذي يمثل 20 % من اليد العاملة في فرنسا ولم يعد يمثل في سنة 1995 سوى 5 % .أما الشغل في القطاع الصناعي فقد عرف تطورا مغايرا خلال نفس الفترة فبعد ما كان يمثل 38% في سنة 1962 و 39%في سنة 1975 صار لا يمثل اليوم سوى 29% ،وختاما تواصل تطور

[2]P.B./STRATEGIES,OP,CIT,P10

القطاع التجاري منتقلا من 42% سنة 1962 إلى 66%سنة 1995 وبالموازاة مع ذلك نشهد تقلصا في المهن الحرة وزيادة في العمل المؤجر حتى وإن كانت هناك نزعة نحو الانفلاش خلال التسعينيات .

إن هذه التحولات البنيوية لا بد من أخذها بعين الاعتبار لتوصيف المواقع المختلفة للطبقات الاجتماعية في الفضاء الاجتماعي وذلك بإدخال نظرة ديناميكية لإن الاستيراتيجيات المتعلقة بإعادة الانتاج تتأثر بالمسارات الجماعية للجماعة.وهكذا فإن التقهقر النسبي للعمال أحدث تعديلات في ظروف نقل المكانة الاجتماعية بين الاجيال : إن العديد من أبناء العمال يشعرون أن الهوية التي يرتكز عليها آباؤهم تعرف أزمة عميقة ألى درجة أن الابناء لا يتقاسمونها وكذلك حال المزارعين التقليديين الذين يعرفون بدورهم أزمة إعادة إنتاج تتجلى في إرادة أبنائهم في تغيير مكانتهم الاجتماعية .وكذلك حال البرجوازية الصغيرة التقليدية المتقهقرة وعكس ذلك فإن البرجوازية الصغيرة الجديدة تدخل في مسار جماعي تصاعدي مرتبط أساسا بتطور المهن التجارية.

إن المقاربة الخاصة بالمجتمع المقدمة من طرف بيار بورديو تقوم على مظهرين غير منفصلين، من جهة،فإن المجتمع الشامل متدرج في شكل طبقات اجتماعية محددة من خلال مقاربة ستاتيكية في مواقع اجتماعية لها علاقة بعدم المساواة في توزيع الرساميل ومن خلال مسارات اجتماعية متمايزة والتوزيع غير المتساوي للرساميل ينزع نحو الاستقرار ويرجع ذلك إلى إستراتيجيات إعادة الإنتاج لمختلف الأعوان.ومن جهة أخرى فإن المجتمع ليس بمجموعة موحدة،فهو مكون من العديد من الحقول والتي تتشابه بنيته مع بنية الفضاء الاجتماعي وحركية الحقول مرهونة بلعبة المشاركين فيها.ولكن هذين الموضوعين لا يوجدان كواقع ملموس فهما إنتاج عمل التموضع الذي يقوم به عالم الاجتماع.إن هذا التصور الخاص بالمجتمع يلازمه تعريف خصوصي للفرد.وهو ما سنتعرض إليه في الفصل التالي.

الفصل الرابع: الملكة

1-تكوبن الملكة

-يسمح مفهوم الملكة بفهم بأية صفة يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا

الملكة هي نتاج الموقع والمسار الاجتماعي للأفراد

الانتماء الاجتماعي يهيكل الكتسبات وينتج ملكة طبيقية

كل فرد ما هو إلا متغير من ملكة طبقية

2-الآثار البنيوية للملكة

الملكة هي عامل مفسر لمنطق إشتغال المجتمع

تجانس الملكات داخل نفس الجماعة هو أساس اختلافات أساليب الحياة في المجتمع

كل حقل يتميز بأعوان مزودين بملكة متشابهة

الملكة تضمن الضبط الاجتماعي

الملكة عامل قوي لإعادة الإنتاج الاجتماعي

الملكة تتأثر بالتغير الاجتماعي

الملكة HABITUS مفهوم مركزي في علم اجتماع بيار بورديو لأنه يضمن التجانس بين تصور بورديو للمجتمع وتصور العون الاجتماعي الفرديAGENT SOCIAL INDIVIDUEL.هذا المفهوم يخبرنا حول التمفصل والوساطة بين الفردي والجماعي.

من خلال هذا المفهوم تظهر نظرية خصوصية للإنتاج الاجتماعي الخاصة بالأعوان وبمنطق أفعالهم، لأن التنشئة الاجتماعية حسب بورديو- عندما تضمن اندماج الملكات الطبقة- فهي تنتج الإنتماء الطبقي للأفراد كما تنتج في ذات الوقت الطبقة بوصفها جماعة لها نفس الملكة.

إن هذا المفهوم هو إذن أساس إعادة الإنتاج الاجتماعي وكما أنه يعتبر مبدأ للمحافظة يمكن أن يصبح كذلك من آليات الإبداع وبالتالي للتغيير.

1- تكوين الملكة

يسمح مفهوم الملكة بفهم بأية صفة يصبح الإنسان كائنا اجتماعيا

إن الحياة في المجتمع تفترض أن يكون الإنسان منشأ اجتماعيا. تتمثل التنشئة الاجتماعية في مجموعة الآليات التي من خلالها يتمرن الأفراد على العلاقات الاجتماعية وستدمجون قيم ومعايير ومعتقدات المجتمع أو الجماعة. المعايير تعني القواعد والعادات الملزمة اجتماعيا والمميزة لممارسات مجتمع أو جماعة معينة : كالكلام وقواعد اللباقة ومظهر الجسم،أما

القيم فهي الأشياء أو أساليب الحياة المحبذة والمرغوب فيها فهي عبارة عن مثل صريحة نوعاما توجه أفعال وسلوكات مجتمع أو جماعة اجتماعية كالشرف والعدل والوطنية والإيثار...

إن حجم وكثافة إمتلاكها يتغير حسب السن وهكذا نميز تقليديا بين التنشئة الاجتماعية الأولية أو تنشئة الطفل والتنشئات الاجتماعية الثانوية كعملية تمرن وتكيف الأفراد أثناء كل حياتهم .

لكن التصور التقليدي للتنشئة الاجتماعية والتمييز بين المعايير والقيم تبدوان غير مناسبين حسب مقاربة بورديو.

تتميز التنشئة الاجتماعية حسب بيار بورديو بتشكل الملكة. والملكة مفهوم يعرفه بالطريقة التالية:

<< جملة الاشتراطات الملازمة لطبقة معينة في ظروف الوجود تنتج ملكات ومنظومات من الاستعدادات الدائمة والقابلة للتوريث، فهي بنى مهيكلة ومؤطرة بمعنى تشتغل كمبادئ مولدة ومنظمة لممارسات ولتمثلات يمكن موضوعيا أن تكيف وفقا لأهداف دون افتراض الغاية الواعية لهذه الأهداف ولا التحكم الصريح في العمليات للوصول إليها. فهي مقعدة ومنظمة بصفة موضوعية دون أن تكون في ذلك إنتاجا للإنصياع لقواعد وبذلك فهي مسيرة بصفة جماعية دون أن تكون إنتاجا للفعل المنظم للفاعل.>>[1]

يبين هذا التعريف أن الملكة هي :منظومة من الاستعدادات الدائمة التي اكتسبها الفرد خلال عملية التنشئة ،أما الاستعدادات فهي مواقف واتجاهات وميول للإدراك والإحساس والتفكير مستبطنة من طرف الأفراد نتيجة للظروف الموضوعية لوجودهم والتي تشتغل كمبادئ لاشعورية الإدراك وللتفكير.

يشكل الاستبطان آلية أساسية في التنشئة الاجتماعية خاصة وأن السلوكات والقيم المتعلمة تبدو وكأنها من تلقاء ذاتها وطبيعية وشبه غريزية. ويسمح الاستبطان القيام بأفعال دون الاضطرار إلي تذكر بصفة آلية القواعد التي يجب إحترامها للقيام بها.

إن خطاطات الإدراك والأفعال المستبطنة من طرف الأفراد تسمى كذلك بنى ومذاك يمكن أن نميز بين مكونين للملكة.

نتحدث عن "إيطوص" للدلالة عن المبادئ أو القيم في حالة الممارسة (وهي تمارس)أي الشكل المستبطن وغير الواعي للأخلاق الذي ينظم ويقعد السلوك اليومي ، إنها البنى وهي تعتمل ولكن بصفة غير واعية.(ال "إيطوص" يتعارض

[1] P.B. LE SENS PRATIQUE,OP.CIT,P.88

مع ال "إيثيك" الذي هو الشكل النظري والمبرهن عليه والموضح والمقنن للأخلاق).

ال "إيكسيس" الجسمي يمثل أشكال واستعدادات الجسم والعلاقة بالجسم المستبطنة بصفة لاواعية من طرف الفرد خلال تاريخه.

الملكة هي في ذات الوقت شبكة القراءة التي من خلالها ندرك ونحكم على الواقع وهي كذلك منتجة لممارستنا وهذان الشكلان لا يفترقان.

الملكة هي أساس ما يسمى في المعنى الجاري بشخصية الفرد ، لأننا نشعر وكأننا ولدنا بهذه الاستعدادات وبهذا النوع من الحساسية وبهذا النمط من الفعل والعمل وبهذه الطرائق وبهذا الأسلوب.إن تفضيل هذا الشيء على الآخر ومشاهدة أفلام المغامرات بدل أفلام السياسة والتصويت على اليمين بدل اليسار ما هي سوى منتجات الملكة وكذلك الشأن عندما نشمي أونكون غير مبالين أو تكون لدينا علاقات مع أفراد كل هذا ما هو إلا تظاهرة لل "إكسيس الجسمي".وفي الختام عندما نعتبر شخصا ما نذلا أو حقيرا أو عكس ذلك سخيا أو ذكيا، كل هذا هو نتاج ال "إيطوص".

الملكة هي نتاج الموقع و المسار الاجتماعي للأفراد

الانتماء الاجتماعي يهيكل المكتسبات وينتج ملكة طبقية

<< تتغير تمثلات الفاعلين حسب مواقعهم (وكذلك حسب المصالح التي يشتركون فيها) وحسب ملكاتهم بوصفها منظومة من البنى الإدراكية ومن بنى التقدير وكذلك كبنى معرفية وتقيميه تكتسب من خلال التجربة الدائمة في موقع داخل العالم الاجتماعي .>>[1]

ومن بين الأفعال البيداغوجية التي نتأثر بها والتي تظل حاسمة تلك التي تأثرنا بها خلال طفولتنا والتي تهدف إلي تلقيننا الملكة البدائية .

هذه الملكة متكونة من الاستعدادات المكتسبة قديما جدا وبالتالي الدائمة وتلعب الأسرة دورا حاسما في هذه التنشئة البدائية، لأن الأسرة بكاملها تشغل موقعا

---

[1] P.B. CHOSES DITES,OP.CIT,156

في الفضاء الاجتماعي، فالبنى الخاصة بالإدراك وبالفعل الموروثة رهينة هذا الموقع. فعندما نتلقى تربية فهذا يعني أننا نتلقي بصفة عامة تربية مرتبطة بموقع طبقي ، بمعنى أننا إكتسبنا استعدادات تدفعنا إلى إعادة إنتاج بصفة تلقائية في ومن خلال أفكارنا وكلامنا وأفعالنا العلاقات الاجتماعية الموجودة أثناء تمرننا.

وهكذا فإن الملكة يمكن اعتبارها كآلية لاستبطان ما هو خارجي :أي نستبطن الخصائص المرتبطة بموقع أسرتنا في الفضاء الاجتماعي ،فالأفراد المتموقعون في ظروف اجتماعية مختلفة سيكتسبون إستعدادات مختلفة.

كلما سجل هذا البرنامج الأولي عند الفرد فهو ينزع إلى إدراك أكثر فأكثر التجارب الجديدة وفقا لملكته البدائية إلي درجة أن الاستعدادات المكتسبة تتحكم وتشترط إكتساب الاستعدادات الجديدة .وهكذا تلتصق مع مر الزمن ومع حياة الفاعل الملكات الثانوية بالملكة البدائية وهنا لابد من ذكر الأهمية الخصوصية للملكة المدرسية التي تأتي في أغلب الأحيان لمد الصلة ولتدعيم الملكة العائلية.

في الواقع، فإن المكتسبات الأكثر قدما تشترط المكتسبات الجديدة وكل مكتسب جديد يندمج ضمن المجموعة في ملكة واحدة التي لا تكف عن التكيف وعن التعديل حسب الضرورات الملازمة للوضعيات الجديدة وغير المنتظرة .

الملكة هي إذن عبارة عن بنية داخلية تظل دائما في طريق إعادة الهيكلة ، لأن منتوج تجربتنا الماضية والحالية هو الذي يبين أن الملكة ليست أبدا قارة ولا ثابتة وهذا يعني أن ممارساتنا وتمثلاتنا ليست محددة نهائيا (الأعوان يقومون بإختيارات) ولا حرة بصفة مطلقة (لأن هذه الخيارات موجة من قبل الملكة) وهذا لا يعني أن منظومة استعداداتنا ليست شيئا يتشكل وينهار باستمرار حسب الظروف والحياة ،في الواقع تتصف الملكة باستقرار كبير.

كل فرد ما هو إلا متغير لملكة طبقية

<<...فهي علاقة تناظر بمعنى علاقة تنوع داخل التجانس تعكس التنوع في التجانس المميز للظروف الاجتماعية للإنتاج والتي توحد بين الملكات الخصوصية لمختلف أعضاء نفس الطبقة :فكل منظومة من الاستعدادات الفردية

هي متغير بنيوي للأخرى حيث تتجلى خصوصية الموقع داخل الطبقة والمسار.الأسلوب "الشخصي" بمعنى هذ العلامة الخصوصية التي تحملها كل المنتوجات التي نفس الملكة. إن مبدا الإختلافات بين الملكات يكمن في خصوصية المسارات الاجتماعبة التي تتطابق مع جملة من الحتميات المنظمة حسب الزمن والتي لا يمكن اختزالها الواحدة في الاخرى ،والملكة تؤطر في كل مرة و في كل حالة وفق البنى المنتجة من خلال التجارب السابقة والتجارب الجديدة التي تؤثر في هذه البنى في الحدود المحددة من قبل سلطتها الانتقائية.والملكة تحقق اندماجا وحيدا تهيمن عليه التجارب الأولى والتجارب المشتركة بين أعضاء نفس الطبقة.>>[1]

وهكذا فعندما نبسط يمكن أن نؤكد ان الاختلافات في الشخصية الفردية ما هي سوى متغير للشخصية الجماعية والتي هي في حد ذاتها ما هي سوى منتوج الملكة الطبقية.

ان هذه المقاربة للتنشئة الاجتماعية تسمح بإحداث القطيعة مع التفسيرات التقليدية .ويمكن أن نقابل نظريتين لتنشئة الاجتماعية

المقاربة الهولية (الشمولية)HOLISME ، الفرد ما هو سوى وعاء للمعايير والقيم المفروضة من الخارج وفق أسلوب الاشتراط .ويمارس المجتمع قسرا على أفراد سلبيين ، وإنطلاقا من هذا فإن أفعالهم مشترطة من خلال ثقافتهم ومحددة من خلال منطق اجتماعي يتجاوزهم .وفي المقابل يعتبر أصحاب الفردانية المنهجيةINDIVIDUALISME METHODOLOGIQUE أن المعايير والقيم ما هي إلا امكانيات متاحة للفرد الذي يحافظ دوما على هامش من الحرية في ممارسة أدواره الاجتماعية ، فالفعل الفردي يفسر في هذه الحالة في شكل إستراتيجيات عقلانية : يقوم الفرد بإختيارات لتأويج نتيجة معينة ، ومنطق ممارساته هو منطق الرجل الإقتصادي

[1] P.B. LE SENS PRATIQUE,OP,CIT,P100

يرى بورديو أن هذا التعارض اصطناعي بحيث تتدخل الملكة كوسيط بين العلاقات الموضوعية والسلوكات الفردية .

يسمح مفهوم الملكة بتجاوز التداول بين النزعة الموضوعية والذاتية[1] لأن ممارساتنا ليست عبارة عن تنفيذ بسيط لمعايير صريحة ، إنها تترجم معنى اللعبة التي اكتسبناها بواسطة الملكة أي: الحس العملي والذي يعرف كالقدرة على التحرك والفعل والتوجه حسب الموقع الذي نشغله في الفضاء الاجتماعي وفق منطق الحقل والوضعية التي نوجد فيها وهذا دون الاستعانة بالتفكير الواعي ولكن فقط بفضل الإستعدادات المكتسبة التي تشتغل وكأنها آلية.

تستلزم الملكة كذلك، أن الذي يحدد الفعل ليس ببساطة البحث عن الفائدة الاقتصادية، وهذا الاعتبار أدى ببيار برديو إلى تعريف الفرد كعون اجتماعي بدل فاعل اجتماعي. العون الاجتماعي محرك من الداخل بقدر ما هو محرك نحو الخارج.

وانطلاق من هذه المسلمة ، يمكن التفكير في إقتصاد حقيقي للممارسات يتخذ فيه مصطلح "إقتصاد" معنى واسعا ليدل على النظام وعلى بنية المنطق .والقول بأنه يوجد إقتصاد للممارسات فهذا يعني:

<< أن هناك سبب ملازم للممارسات لا يجد جذوره في حسابات صريحة ولا في الحتميات الخارجة عن الأعوان وإنما في ملكاتهم .>>[2]

2- الآثار البنيوية للملكة :

الملكة هي عامل مفسر لمنطق إشتغال المجتمع

تجانس الملكات داخل نفس الجماعة هو إساس إختلافات أساليب الحياة داخل المجتمع

إن أسلوب الحياة هو مجموعة من الأذواق والمعتقدات والممارسات الممنهجة المميزة لطبقة او لشريحة طبقة معينة . تشمل الملكة على سبيل المثال

---

[1] انظر الفصل الثاني

[2] P.B. LE SENS PRATIQUE OP.CIT.P102

المواقف السياسية والمعتقدات الفلسفية والقناعات الأخلاقية والأفضليات الجمالية ولكن كذلك الممارسات الجنسية والغذائية واللباسية والثقافية ...ويمكن أن نشبها بمفهوم النمط أو بأسلوب الحياة مع الإلحاح على البعد النوعي للممارسات في مقابل مستوى المعيشة الذي يمثل كمية الخيرات والثروات والخدمات التي يمتلكها الفرد او الجماعة في حين عندما تكون مستويات المعيشة متشابهة يمكن أن تكون أساليب الحياة جد مختلفة وبرجع ذلك حسب بورديو إلى وجود ملكات متمايزة.

<< إن إحدى وظائف مفهوم الملكة هي الكشف عن وحدة الأسلوب التي تجمع بين ممارسات وثروات عون خصوصي أو طبقة أعوان (...) الملكة هي ذلك المبدأ المولد والموحد الذي يعيد ترجمة الخصوصيات الضمنية والعلائقية لموقع اجتماعي في شكل أسلوب حياة موحد بمعنى في شكل موحد من اختيار للأشخاص وللخيرات وللممارسات .وكما هو الحال بالنسبة للمواقع التي هي منتجة للملكات، فإن الملكات بدورها متمايزة ولكن كذلك مميزة. مميزة ومتمايزة الملكات كذلك فاعلة للتمايز : تطبق الملكات مبادئ تمايز مختلفة أو تستعمل بصفة مختلفة مبادئ التمايز المشتركة .الملكات مبادئ مولدة لممارسات متميزة ومميزة .فهي كذلك بنى مصنفة ومبادئ للتصنيف ومبادئ للرؤية وللتقسيم وللأذواق المختلفة .الملكات تضع الفوارق بين ما هو جيد وبين ما هو رديء، بين ما هو خير وما هو شر، وبين ما هو متميز وما هو مبتذل ...>>[1]

في المجتمع الفرنسي المعاصر يمكن أن تميز بين ثلاثة أساليب حياة مختلفة.أعضاء الطبقة المسيطرة لهم ملكة قائمة على مفهوم التمييز .ويتعلق الأمر بالتمايز سواء من خلال ال"إيكسيس" أو من خلال الكلام وإختيار الأثاث الداخلي المتميز من خلال الأفضلية للأثاث القديم أو لأماكن الإستجمام .

الذين يملكون رأسمالا إقتصاديا يظهرون بذخهم من خلال إمتلاكهم لدلائل ثقافية شرعية مثل الأسفار وإمتلاك اللوحات الفنية والسيارات الفخمة .أما الذين يملكون رأسمالا ثقافيا فهم يبدون تمايزهم من خلال مطالعتهم ونزعتهم نحو

---

[1] P.B, RAISONS PRATIQUES,OP.CIT,P23

الموسيقى الكلاسيكية أو الإهتمام بالمسرح . وبالتالي وفي مقابل الأذواق الفاخرة للأوائل تأتي النزعة الأريسطوقراطية الزاهدة للآخرين .

ضف إلى ذلك أن الإنتماء القديم إلى الطبقة البرجوازية له مفعول على الملكة :في مقابل أخلاق الزهد الناتجة عن الانتاج والتراكم المكونة للبرجوازية القديمة والقائمة على الاكتفاء والقناعة والادخار والحساب فإن البرجوازية الجديدة المزودة برأسمال ثقافي كبير لها أخلاق "هيدونية"HEDONISTE في الاستهلاك قائمة على الFافراط في المصاريف وعلى القرض والتمتع .

تتميز ملكة أعضاء البرجوازية الصغيرة بالإرادية الصارمة المرتبطة بإرادتهم في الصعود الاجتماعي. لكن هذه الطبقة لا تشكل مجموعة متجانسة من منظور أساليب الحياة لأن البرجوازية الصغيرة الصاعدة تنمي ملكة مشابهة لأسلوب حياة البرجوازية الجديدة .هذا الأسلوب الجديد يقوم على واجب الترفيه ويترجم في شكل تمظهر جسمي قائم على الإصغاء إلى الجسم والإسترخاء وتغذية سليمة ومتوازنة .

أما البرجوازية الصغيرة المتقهقرة فهي تتميز بأفضلياتها الزاهدة والتقليدية أين تسيطر قيم مثل العمل والنظام والصرامة والدقة .

أما الطبقات الشعبية فلها ملكة تتميز بصفة أساسية بالحس بالضرورة والتكيف مع هذه الضرورة،وهكذا فإن الخضوع للإستعجال يؤدي بها إلى رفض مجانية التمرينات الجمالية .

الطبقات الشعبية بخلاف الطبقات الأخرى تفضل أن يكون داخل بيوتها نقيا ونظيفا وأن تكون ملابسها بسيطة وهناك سمة ثانية لملكتهم وتتعلق بتثمين القوة العضلية بوصفها بعدا للفحولة وهناك جملة من الدلائل تشهد على ذلك مثل اختيار المأكولات القوية وممارسة رياضات القوة، هذه الممارسات لابد من وضعها في علاقة مع وضعيتهم الاجتماعية :كمؤجرين، فهم يبيعون قوة عملهم.

كل حقل يتميز بأعوان مزودين بملكة متشابهة

إن كانت الملكة هي نتاج الإنتماء الاجتماعي فهي تتبني كذلك وتتأطر في علاقتها مع حقل . ويفترض الحقل العلمي وجود أعوان مزودين بملكة مختلفة عن ملكة الأفراد المندمجين في الحقل السياسي ،وبصفة عامة فإن كل حقل يمارس على الأعوان فعلا أو عملا بيداغوجيا متعدد الجوانب ويهدف إلى إعطائهم واكتسابهم المعارف الضرورية من إجل اندماج صحيح في العلاقات الاجتماعية .

<< العلاقة بين الملكة والحقل هي قبل كل شيء علاقة اشتراط : الحقل يؤطر الملكة التي هي منتوج استدماج الضرورة الملازمة والمستمدة من هذا الحقل أو من مجموعة حقول متوافقة نوعاما .اللاتواؤم واللاتوافق يمكن أن يكون أساسا لملكات منقسمة إن لم نقل ممزقة . الملكة تساهم في تأسيس الحقل بوصفه عالم دال مزود بالمعاني والقيم ويستحق أن نستثمر فيه طاقتنا .(...) الواقع الاجتماعي أن صح القول يوجد مرتين : في الأشياء وفي العقول وفي الحقول وفي الملكات ،خارج وداخل الأعوان . وعندما تدخل الملكة في علاقة مع عالم اجتماعي الذي نتجت عنه فهي كالسمكة في الماء.>>[1]

توجد حقول مؤسسة على ملكة تفترض خصائص خصوصية جدا :الحقول المنتجة للثروات الرمزية والإعتبارية كالحقول الدينية والفنية . يفترض في هذه الحقول أن يكون الأعوان الذين يستثمرون فيها " غير مكترثين " ، لأن التبادلات في هذه الحقول لا يمكن أن تكون تبادلات نقدية لأن منطق إشتغالها يستلزم عدم الإكترات ولكن هذا يفترض عملا على مستوى التورية والإنكار لأن طابو الحساب حاضر لا محالة.

وهكذا فإن ملكة الفنان تشكلت في علاقته مع الحقل الذي يعتبر في الأصل النجاحات التجاربة وكأنها ثانوية : لأن الرأسمال المراكم هو قبل كل شيء رمزي وإعتباري .كما هو الحال بالنسبة للحقل الديني الذي يقوم على القرابين والعمل الخيري والتضحية .في الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن حصر المهام المقدسة في

---

[1]P.B. /WACQUANT,P102

مقاربة إقتصادية محضة : القس ليس له مهنة ،فهو يقوم بخدمة إلهية والقساوسة أنفسهم لهم مكانة غامضة .

إن هذه البنية تتلاءم مع ملكات مزودة بعبقرية:

<< تغميض الممارسات والخطابات والمعنى المزدوج دون اللعب المزدوج >>[2]

وهذه العبقرية تسمح بمراكمة الفائدة الدينية والفائدة الإقتصادية ،لأن العمل الديني يشمل على مصاريف معتبرة من الطاقة تهدف إلى تحويل نشاط ذي بعد إقتصادي إلى مهمة مقدسة .

الملكة تضمن الضبط الاجتماعي :

فهي عامل قوي لإعادة الإنتاج الاجتماعي

الأعوان الذين لهم نفس الملكة ليسوا في حاجة للتشاور للعمل بنفس الطريقة، سواء تعلق الأمر بإختيار الزوج أو المهنة أو اختيار نائب أو أثاث .كل واحد بإنصياعه لذوقه الخاص وبتحقيقه لمشروعه الفردي فهو يتوافق بصفة عفوية ودون أن يعلم مع الآلاف الآخرين الذين يفكرون ويحسون ويشعرون ويختارون مثله .ومنه هذا الشعور والإحساس بالتجانس والتناغم المقام مسبقا الذي يعطيه إشتغال كل مجتمع لكل ملاحظ .ومن هذا المنطلق يكون مفعول الملكة وراء تجانس ووحدة الممارسة الجماعية.الملكة تعطي وهم الإختيار في الممارسات والتمثلات في حين أن الافراد لا يمارسون سوى الملكة التي قولبتهم .الملكة تجعل ممكنا مجموعة من السلوكات والاتجاهات المطابقة للتلقين وبالتالي مطابقة للتكرارات الموضوعية : فهي تنتج استظهارا للمستبطن .EXTERIORISATION DE L INTERIORISATION

إن استظهار البنى اللاشعورية للفكر والإدزاك والفعل يسمح الأعوان من خلال " وهم التأسبيس الجيد " لما هو جديد والعفوية الحرة كل الافكار والادراكات والافعال المطابقة للتكرارات الموضوعية وللعلاقات الطبقية . ومن نتائج الملكة

---

[2] P.B.RAISONS PRATIQUES,OP.CIT.P209

الطبقية هي أن الأعوان يسلكون بصفة تؤدي إلي استدامة العلاقات الموضوعية بين الطبقات .

الملكة تتأثر بالتغير الاجتماعي

من جهة عندما يحدث ويظهر إختلال DESAJUSTEMENT بين ظروف انتاج الملكة والظروف التي تشتغل فيها .لأن ملكتنا بنيت في وضعية اجتماعية معينة .وطالما الظروف الموضوعية التي كانت وراء تكوين الملكة قائمة ، فإن الملكة تظل متكيفة مع هذه الظروف وتسمح للعون تبني ممارسات تتطابق مع مختلف الوضعيات التي يمكن أن يلقاها في الحقول التي تشتغل فيها عموما.

ولكن عندما يحدث وتتغير الظروف الموضوعية فإن الحركة السكونية للملكة تمنعه من التغير بنفس الطريقة .في هذه الحالة نتحدث عن HYSTERISIS وهو أثر يمتد بعد أن تكون أسبابه قد إنتهت .في هذه الحالة يحدث تباين للملكة القديمة مقارنة بالظروف الجديدة وهذا التباين يترجم عند العون من خلال ممارسات شبه مكيفة أو غير مكيفة على الإطلاق :وهنا يحدث أن يقوم العون بأفعال غير متوقعة أو بهنات أو بأخطاء .فهو يفعل أو يقوم بأشياء في غير محلها ،بمعنى أنه يتبنى ممارسات كانت تتوافق مسبقا مع المكانة التى كان يشغلها في منظومة المواقع التي تكونت ملكته فيها ولكن لا تتوافق تماما مع المكانة التي يشغلها الآن في منظومة جديدة أو معدلة .وهو ما يفسره البعض ب"صراع الأجيال أو كذلك ب "الهوة بين الأجيال".

التباين بين ملكة الآباء والأبناء المؤطر من قبل هيئات تنشئة مختلفة ومتعددة مثل المدرسة ووسائل الاعلام أو كذلك جماعات الرفاق ، يمكن أن يولد الشعور بسوء الفهم .هؤلاء وأولائك لا يتقاسمون بالضرورة نفس البنى في الإدراك والعمل .

ويمكن أن نعطي مثلا خاصا بالمهاجرين المغاربيين في فرنسا : الجيل الثاني جيل أبناء من أولياء مهاجرين الذين ولدوا في فرنسا هذا الجيل يعيش

صراعا ثقافيا نتيجة تعارض ملكتين من جهة ملكة الأولياء القائمة على المحافظة على التقاليد ولاسيما الدينية ومن جهة أخرى ملكة الأبناء الذين في غالبيتهم يعيشون عملية اندماج تترجم في شكل ممارسات وتمثلات تميزهم قليلا عن الشباب الفرنسيين : الزواج الحر وتقاسم المهام بين الجنسين في العائلة وانخفاض الخصوبة وضعف الممارسة الدينية .

إن الملكة يعاد بناؤها وفق المسار الاجتماعي الذي قطعه العون .بمعنى من خلال التجربة المعاشة والمستبطنة ومن خلال الصعود والإستقرار أو التقهقر الاجتماعي .

في الواقع فإن الملكة تتبني بصفة مختلفة بمعنى في شكل صعود نحو الأعلى أو هبوط نحو الأسفل ، وفي تغير ظروف الحياة أو في إستقرارها .يجب إذن دراسة ليس فقط موقع الأعوان ولكن كذلك المسار الذي أدى بهم إلى احتلال هذا الموقع .

على سبيل المثال يمكن مقارنة مسارين فرديين لقياس النتائج المتوقعة من الملكة . ابن عامل أصبح عاملا وأمام وضعيات متشابهة لتلك التي انتجت ملكته العمالية سيتصرف كما تعلم وهو صغيرا وهكذا فإنه يساهم في إعادة إنتاج الجماعة العمالية بأكملها .ولكن ابن عامل الذي يصبح موظفا ويتزوج من بنت موظف سيجد وضعيات غير متوقعة ولا بد عليه أن يخترع ممارسات حتى يتسنى له التكيف :لأن ملكته العمالية ستجعل منه موظفا من نوع خصوصي يعيش وضعيات عائلية ومهنية وثقافية بوصفه عاملا أكثر منه موظفا ولكي يتكيف عليه أن يعدل ملكته القاعدية الأصلية .ويقول بورديو في هذا الصدد:

<<الملكة هي إنتاج تاريخي فهي منظومة من الاستعدادات المفتوحة وهي بإستمرار معرضة لتجارب جديدة وبالتالي تتأثر بهذه التجارب . الملكات مستديمة ولكن غير ثابتة .>>[1]

[1] P.B,/WACQUANT,P105

إن مفهوم الملكة الذي إقترحه بورديو يسمح بالإلمام في نفس المقاربة بالإشكاليات التي تخترق الحقل السوسيولوجي منذ نشأته .هذا المفهوم يبين أن الإنسان هو كائن اجتماعي وأن السلوكات التي تبدو له وكانها الأكثر طبيعية والفطرية ما هي في الواقع سوى إنتاج لمختلف المكتسبات الاجتماعية :الشخصية الفردية ما هي إلا متغير من الشخصية الجماعية المكونة داخل ومن خلال الانتماء إلى طبقة اجتماعية .

الملكة تسمح بفهم منطق الممارسات الفردية والجماعية وتفهم معنى اللعبة الاجتماعية التي تسمح لنا بالعمل والفعل في مختلف الحقول ،كما يخبرنا مفهوم الملكة حول آليات إعادة الإنتاج الاجتماعي : من خلال استبطان المستظهر واستظهار المستبطن INTERIORISATION DE L EXTERIORITE ET EXTERIORISATION DE L INTERIORITE. هذا المفهوم يعطي الإنطباع للأفراد بأنهم في مكانهم .

الفصل الخامس:المدرسة وإعادة الإنتاج الاجتماعي

2- المدرسة أداة خفية للهيمنة

الثقافة المدرسية هي ثقافة الطبقة المهيمنة

مقاييس الحكم على الامتياز المدرسي مقاييس اجتماعية

أيديولوجية الموهبة تخفي آليات إعادة الإنتاج

إن أيديولوجية الموهبة مطابقة للحس المشترك

أيديولوجية الموهبة تبرر التفاوت وعدم المساواة المدرسية ومنها الاجتماعية

الطبقات الشعبية تخضع لعنف رمزي

العلاقة البيداغوجية هب علاقة قوة قائمة على افتراضات ضمنية

العلاقة بين مختلف الثقافات ينجر عنها تثاقف له نتائج سلبية

2 - ديمقراطية التعليم والحراك الاجتماعي

إن دراسة الظواهر تكشف وجود علاقات مفارقة بين التعليم والحراك الاجتماعي

الطبقات الاجتماعية تتميز من خلال إستراتيجيتها

استعمال المنظومة التعليمية غير عادل

إن دراسة الإستراتيجيات المدرسية يمكن أن تبدو تعسفية واعتباطية

تتميز المجتمعات الديمقراطية حسب طوكفيل TOCQUEVILLE(1805-1849) وبالتساوي في الظروف وتتغلب فيها المساواة الاجتماعية على التفاوت الوراثي في المواقع. إن المدرسة في معنى المنظومة التربوية ،تبدو مذاك كأداة لتحقيق هذه المثل القائمة على التساوي وبالنسبة لمؤسسي الجمهورية الثالثة (1870-1940) يجب على المدرسة أن تضمن تربية وتعليما لكل الأفراد وتزودهم بالأدوات التي تضمن وتؤمن ليس فقط حريتهم وإنما كذلك ترقيتهم الاجتماعية.

هذه الإرادة التي أصبحت معتقدا يتقاسمه الكثير من الناس تم تجريحها من قبل كتابين نشرهما بيار بورديو ومساعديه : الورثة LES HERITIERS(1964) الذي يتحدث عن الجامعة وإعادة الإنتاج LA REPRODUCTION(1970) الذي يقترح بناء نظرية عامة حول اشتغال المنظومة المدرسيبة .

إن نتائج هذه الدراسات لا رجعة فيها: المدرسة بدلا من تقليص التفاوت الاجتماعي تساهم في إعادة إنتاجه،وبالتالي لا بد من التساؤل حول العمليات التي ،وعلى الرغم من المكانة المركزية المعارة لهذه المؤسسة في المجتمع الحالي ،أدت إلى هذه النتيجة المفارقة .

إذا إعتبرنا الحقل المدرسي كسوق ،من الممكن القيام بتحليل مزدوج : من جهة "العرض" وذلك بتحديد الآليات الموجودة في المؤسسة ،والتي تضمن إعادة الإنتاج الاجتماعي ومن جهة "الطلب" بتحليل نتائج الاستعمالات المتمايزة للمؤسسة من طرف مختلف الطبقات الاجتماعية .

1-المدرسة :أداة خفية للهيمنة

- الثقافة المدرسية هي ثقافة الطبقة المهيمنة .

للبرهنة على هذا التحليل ،يكفي أن نبين أنه يوجد تشابه بين أسلوب اشتغال المنظومة المدرسية وتمثلات وممارسات الطبقات المسيطرة .

- الثقافة المدرسية ليست بمحايدة

إن الثقافة المدرسية هي ثقافة خصوصية ، ثقافة الطبقة المسيطرة ،المحولة إلى ثقافة شرعية ، قابلة للتموضع ولا جدال فيها .وبالتالي فهي ثقافة اعتباطية وقسرية وذات طبيعة اجتماعية ، فهي تكون نتيجة لاختيار وانتقاء يحدد ما هو مثمن ومتميز أو عكس ذلك ما هو مبتذل وركيك وعمومي.

<< إن انتقاء الدلالات التي تحدد بصفة موضوعية ثقافة جماعة أو طبقة بوصفها منظومة رمزية هو تعسفي ،ووظائف هذه الثقافة لا يمكن أن تكون مستخلصة من أي مبدا كوني أو طبيعي أو بيولوجي أو روحي فلا يربطها أي نوع من العلاقات الداخلية الخاصة بطبيعة الأشياء أو بالطبيعة البشرية.>>[17]

وبعبارة أخرى وبنوع من المغالاة بغرض فهم هذا الاستشهاد لا يوجد أي مبرر عقلاني حسب بورديو لكوننا نطالع موباسان MAUPASSANTبدل تانتان TINTIN أو ندرس الرسم الأكاديمي عوض إنتاجات "التاغير TAGGEURS"أو الموسيقى الكلاسيكية بدل "التكنو"TECHNO. وكذلك الأمر عندما نؤسس مقاييس الامتياز على الرياضيات عوض اللغة اللاتينية أو اليونانية فكل هذا يرجع إلى التعسف والاعتباط.إن اختيار وانتقاء التخصصات المدرسة كما هو الشأن بالنسبة لاختيار محتويات هذه التخصصات هو نتاج علاقات قوى بين الجماعات الاجتماعية .

إن الثقافة المدرسية ليست إذن بثقافة محايدة وإنما هي ثقافة طبقية .ومذاك ، فكلما كانت المسافة بين المدرسية وثقافة وسط الانتماء قصيرة وهي ثقافة مرتبطة بالتنشئة الاجتماعية، كلما كان النجاح في المؤسسة مرتفعا .

---

[17] **P.B. /J.C.PASSERON,LA REPRODUCTION,ED.MINUIT,1970.P22**

إن أبناء الطبقات العليا لهم رأسمال ثقافي موروث من عائلتهم ويتكون من رصيد ثقافي مستبطن في شكل أدوات فكرية وبفضل التفاعلات التي تتم داخل أسرهم ، فإن أبناء الفئات الميسورة يبرهنون على مستوى من النمو العملي المبكر وكذلك الشأن بالنسبة نمط لغوي أكثر تلاؤما مع متطلبات المدرسة .وهذا الرأسمال يوجد في شكل متموضع داخل بيئة هؤلاء الأطفال:كتب وأعمال فنية وسفريات ووسائل إعلام ...كل هذه العناصر تشكل محيطا ملائما للتمرن والتدرب وتفسر النجاح المدرسي للأطفال المنحدرين من هذه الطبقة .كل هذه المكتسبات المكونة للملكة تعطي آثارها خلال المسار المدرسي . وحينئذ ، ليس من الغريب أن " الورثة " طلبة منحدرون من البرجوازية يكون تمثيلهم أقوى في الجامعات مقارنة بالطلبة المنحدرين من أصل متواضع .

-مقاييس الحكم على الإمتياز المدرسي مقاييس اجتماعية :

إن المدرسة فوضتها الجماعة المسيطرة سلطة الفرض أي سلطة فرض المحتويات المطابقة فقط لمصالح هذه الجماعة . إن الإختبارات الشفوية يمكن إعتبارها ك"إختبارات حول الأسلوب" هدفها تقييم الشكل أكثر من المحتوى وعلى أساس دلائل حذقة خاصة بالإعتراف الاجتماعي والتي تتجلى في المظهر والنبرة وهو ما تسميه لجنة التحكيم ب"الحضور " واللباقة والأسلوب الجيد . أما الإختبارات الكتابية كالإنشاء مثلا فهي تخضع لنفس الاستعدادات في الأسلوب المستعمل .وهكذا يتجلى أن المقاييس الصريحة للتقييم لها أهمية أقل من المعايير الأخرى. لأن ما نحكم عليه ، ليس هو الإمتياز المدرسي بقدر ما هو الإمتياز الاجتماعي كما تبينه ملكة المترشحين . إن النجاح المدرسي وارد جدا كلما تشابهت ملكة الأساتذة مع ملكة المتعلمين .

-أيديولوجية الموهبة تخفي آليات إعادة الإنتاج

-إن أيديولوجية الموهبة مطابقة للحس المشترك .

حتى تتمكن المدرسة من ضمان إعادة الإنتاج بمعنى ضمان سيطرة المسيطرين يتوجب عليها أن تتزود بمنظومة من التمثلات قائمة على نفي هذه الوظيفة . وهو دور الأيديولوجيا المعرفة في المعنى الماركسي، كجملة من التمثلات المشوهة للعلاقات الاجتماعية المنتجة من قبل جماعة أو طبقة وتعمل على إضفاء مشروعية على ممارساتها .فهي ترضي الفاعلين وتهدف إلى تأسيس ممارستهم في شكل ممارسات شرعية تجاه الجماعات و/أو الطبقات الأخرى .وفي المنظومة التربوية فهي تأخذ شكل "أيديولوجية الموهبة"IDEOLOGIE DU DON

إن هذه الأيديولوجية ، المتأصلة في أساس المدرسة الجمهورية ، تسلم أن التفاوت في النجاح المدرسي يعكس التفاوت في المقدرات المعتبرة كفطرية . ومنه فهي تلازم بأيديولوجية الإستحقاق التي تعتقد أن كل فرد يمكن أن يصل إلى المواقع الاجتماعية العليا إذا كانت مواهبه وعمله وأذواقه تسمح له بذلك . إن مثل هذا الاعتقاد يستلزم إن تعامل المدرسة كل الأفراد سواسية في الحقوق والواجبات وتضمن لهم تساوي الفرص المدرسية و تتجاهل كل فرق ناتج عن الأصل الاجتماعي . في هذه الحالة فإن المدرسة تنضوي إذن في إطار الأيديولوجية السياسية الليبرالية التي تجعل من الحرية الفردية القيمة الأساسية في المجتمع ومعترفة بذلك للإنسان بحقه في الإستقلالية والمبادرة وتنمية كل مقدراته . هذه الأيديولوجية يتقاسمها حسب بورديو كل أعضاء سلك التعليم .

- أيديولوجية الموهبة تبرر التفاوت و عدم المساواة المدرسية و منها الاجتماعية

-إن الحياد المصرح به للمقررات والبرامج يؤدي في الواقع إلى إقصاء الطبقات المسيطر عليها ويدعم شرعية الطبقات المسيطرة .

في الواقع ، فإن مقاييس النجاح مقاييس اجتماعية وليست مدرسية .والتدرج المدرسي هو في حقيقة الأمر تدرج اجتماعي مغطى بأيديولوجية الموهبة .وهذه الأيديولوجية لا بد أن تكون في الصدارة حتى تؤدي المدرسة وظيفتها المتمثلة في إضفاء الشرعية على النظام الاجتماعي .فهي مطالبة بفعل كل شيء حتى يدرك

اشتغالها وكأنه شرعي ، بمعنى معترف به ومقبول من طرف الجميع .ومن خلال أيديولوجية الموهبة ، فإن المدرسة تقوم ب"بتطبيع الاجتماعDU SOCIAL NATURALISATION مترجمة بذلك عدم المساواة الاجتماعية إلى عدم مساواة في الكفاءات .المدرسة تحول التفاوت الاجتماعي في شكل نتائج تنافس منصف وعادل ، وهكذا فإن منظومة التقييم المدرسي تصبح اعتباطية ومتعسفة.

<< تبرر الامتحانات والمسابقات - نظرا للتقسيمات التي ليست بالضرورة العقلانية مبدؤها وكذلك الشهادات والألقاب التي تتوج النتائج تمثل ضمانة الكفاءة التقنية للكفاءة الاجتماعية وهي في هذا الصدد أقرب إلى ألقاب النبالة (...)- الوظيفة التقنية البديهية والبديهية جدا للتكوين ولتلقين الكفاءة التقنية وأن انتقاء أكثر كفاءة تقنية يخفي الوظيفة الاجتماعية المتمثلة في تكريس المالكين بحكم مواقعهم للكفاءة الاجتماعية لحق التسيير .(...)إذن نحن أمام نبالة مدرسية وريثة قادة الصناعة والأطباء الكبار والموظفين السامين وحتى الزعماء السياسيين . ونبالة المدرسة هذه تتضمن جزءا كبيرا من ورثة النبالة القديمة الذين حولوا ألقابهم النبيلة إلى ألقاب مدرسية .وهكذا فإن المؤسسة المدرسية التي كنا نعتقد في وقت ما أنها تستطيع إدخال شكل من الاستحقاق وذلك بتفضيل القدرات الفردية على الامتيازات الوراثية تنزع إلى إقامة ، عبر العلاقة الخفية بين المقدرة المدرسية والإرث الثقافي نبالة دولة حقيقية ،سلطتها وشرعيتها مضمونة بواسطة اللقب المدرسي .>>[1]

[1] **P.B, RAISONS PRATIQUES,OP.CIT.P.42**

المدرسة موظفة كأداة لإضفاء الشرعية على التفاوت الاجتماعي وبعيدا من أن تكون تحررية فهي محافظة وتعمل على إبقاء سيطرة المسيطرين على الطبقات الشعبية .

-الطبقات الشعبية تخضع لعنف رمزي

-العلاقة البيداغوجية هي علاقة قوة قائمة على افتراضات ضمنية

من جهة المنظومة المدرسية تفرض وتبرر الاعتباط والتعسف الثقافي المسيطر وكما يؤكد بورديو على ذلك :

<< إن كل فعل بيداغوجي هو موضوعيا عنف رمزي لكونه يفرض التعسف الثقافي من طرف سلطة تعسفية .>>[1]

إن المنظومة المدرسية تضمن هذه الوظيفة المتمثلة في إضفاء الشرعية حيث تفرض على الطبقات المسيطر عليها الاعتراف بمعرفة الطبقات المسيطرة وبإنكارها وجود ثقافة شرعية أخرى :

<< إن أحد الآثار غير المرئية للتمدرس الإجباري يتمثل في أنه يتوصل إلى الحصول من الطبقات المسيطر عليها على الإعتراف بالمعرفة وبالمهارة الشرعية في ميدان القانون والطب والتكنولوجيا والترفيه و/أو الفن وينجر عن ذلك انتقاص من قيمة المعرفة والمهارة التي تتحكم فيها هذه الطبقات مثل القانون العرفي والطب التقليدي والتقنيات الحرفية والترفيه والفن ...>>[2]

ومن جهة أخرى فإن المدرسة تنكر الفوارق بين التلاميذ ،أي الفوارق الناتجة عن الملكة . المدرسة تظهر "غير مبالية وغير مفرقة للفوارق " ، فهي تقوم بتنمية وتغذية اللامقول والمخفي والضمني والتي لا يدركها في الواقع سوى الورثة . إلي درجة أنه يمكن الحديث عن "بيداغوجية غياب البيداغوجيا " ويدور المخفي حول القيم كما الحال بالنسبة لاستقلالية التلميذ حيث يعتبر الحافز وتثمين

---

[1] **P.B./J.C.P. LA REPRODUCTION,OP.CIT.**
[2] **IBID**

المعرفة بالنسبة للمدرسة وكأنهما طبيعيان . كما نفترض كذلك بعض المعارف ، "الثقافة الحرة " كالموسيقى والأدب وغير ذلك من الذي لا يدرس بصفة صريحة في الوسط المدرسي .هذه الثقافة مطلوبة في الواقع من قبل المدرسة ويجد الورثة فقط في وسطهم العائلي وسائل تحصيلها .وبالتالي فهؤلاء سيحولون في شكل امتيازات مدرسية المعارف والمهارات وطرائق التمظهر التي استمدوها من وسطهم العائلي خاصة وأن المدرسة تعترف لهم بذلك .

العلاقات بين مختلف الثقافات ينجر عنها تثاقف له نتائج سلبية :

إن غياب التشابه بين ثقافة الفئات المحرومة وثقافة الفئات المسيطرة الناتج عن الاختلاف في الإرث الثقافي ينجر عنه تثاقف خصوصي عند أعضاء الطبقات المسيطر عليها . وإذا كان مفهوم التثاقف يستعمل خاصة للدلالة على العلاقات بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية ، فهو يبدو ملائما خاصة عندما يدل على عملية التغير الثقافي الناتج عن الاتصالات بين جماعات ذات ثقافات مختلفة .وخلافا للورثة ، فإن الأطفال البعيدين عن المؤسسة المدرسية مطالبون بالتعلم وتعلم كل شيء ولكي ينجحوا عليهم تحقيق عملية تثاقف حقيقية .ولأدل على ذلك الفوارق في اللغة ، اللغة البرجوازية تخبرنا بنوع من العلاقة مع الكلام ، أي شكل من التجريد ومن الشكلانية والنزعة الفكرية أي كل المواصفات التي تعد جزءا من معايير الألسنية في المدرسة .بينما اللغة الشعبية وخلافا لذلك ، فهي تتجلى بنزعة تفخيم الحالات الخصوصية وإلى التقليل من استعمال البراهين .وخلافا للمتطلبات المدرسية، فإن اكتساب الثقافة المدرسية يبدو كذلك كشكل من العنف الرمزي إذ يتم كل شيء وكأن أعضاء الطبقات المسيطر عليها عليهم أن يتعلموا لغة أجنبية .وبالتالي فإن عملية تثاقف حقيقية ،بمعنى فقدان الثقافة الأصلية ، تفرض نفسها لضمان البقاء في المؤسسة وإلا فإن الحكم المدرسي سيطردهم .

لكن النظام الأقوى الذي يبعدهم من المؤسسة المدرسية هو الملكة وهي إنتاج لاستبطان الظروف الموضوعية ، فهي تؤدي إلى إقصاء ذاتي للفئات

المحرومة ،حيث يتعلم الأفراد استباق مستقبلهم طبقا لتجربتهم في الحاضر وبالتالي إلى الرغبة عن ما يبدو في جماعتهم الاجتماعية غير محتمل .وعليه ، فإن الاعتقاد بأن المدرسة يمكن أن تشكل وسيلة للتحكم في المسار الاجتماعي يكون منتشرا فقط عند أولئك الذين لهم حظوظ معقولة في النجاح . الطبقات الشعبية تبدو إذن أقل استعدادا في تأسيس أملها في الصعود الاجتماعي على المدرسة لأن أولادها يوصفون بأنهم"غير محفزين ".

في سنة 1987 أجرى دورو-بيلات DURU-BELLATدراسة على 2500 تلميذ متمدرس في 17 متوسطة تابعة لأكاديمية ديجون DIJONوقد بينت هذه الدراسة أن العائلات العمالية تمارس الانتقاء الذاتي إبتداءا من هذا المستوى الدراسي :حيث تبين أن حوالي نصف أبناء العمال يغادرون المتوسطة في نهاية السنة الثامنة مقابل أقل من 10% من أبناء الإطارات .وأن العجز في المعرفة لا يفسر سوى ربع هذا الفارق، أما السببان الآخران فهما غياب الطموح المدرسي لدى العائلات العمالية وتشدد أساتذة المتوسطات في الأحياء الشعبية عندما يتعلق الأمر بالنجاح إلى السنة التاسعة

يلاحظ أن هذا التحليل يستبعد تفسيرات الحس المشترك المنتشرة بكثرة والتي توعز إقصاء الفئات المحرومة إلى انعدام القدرة على الدراسة أو إلى غياب الموارد الاقتصادية كما يأخذ هذا التحليل بعين الاعتبار الإستراتيجيات المختلفة للطبقات الاجتماعية نحو المدرسة .

2-ديمقراطية التعليم و الحركية الاجتماعية

-إن دراسة الظواهر تكشف وجود علاقات مفارقة بين التعليم والحركية الاجتماعية

الدخول إلى المنظومة المدرسية إرتفع بسببه الطلب التربوي المتزايد

إن مؤسسي المدرسة الإجبارية في فرنسا كانوا يعتقدون أن تزايد إمكانيات التعليم سيؤدي ليس فقط إلى تقليص عدم المساواة وإنما يضمن كذلك حركية اجتماعية كبيرة لأن إرتفاع المستوى التعليمي سيترجم لا محالة بحركية اجتماعية تصاعدية بين الأجيال .وهكذا فإنه يبدو من المنطقي أن الشاب الذي له مستوى من التكوين أعلى من مستوى والده سيشغل موقعا اجتماعيا أعلى ، غير ن هذه العلاقة ليست بآلية .

منذ الخمسينيات نلاحظ تزايدا مذهلا للتلاميذ المتمدرسين ، البعض يتحدث عن ديمقراطية التعليم لوصف هذه الظاهرة .في الوقت الحالي تستقبل مؤسسات التعليم الثانوي (العمومية والخاصة) حوالي 5،5 ملايين تلميذ وأن أكثر من 70% من الذين يتقدمون لشهادة البكالوريا ينجحون فيها وداخل جيلهم فهم حوالي 60% ممن يحملون هذه الشهادة . كما تزايدت تعدادات الطلبة في التعليم العالي منذ التسعينيات إلى درجة أنهم يمثلون أكثر من مليونين وتمثل نسبة المتمدرسين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 25 سنة في التعليم العالي مقارنة بإجمالي السكان أكثر من 20%، وإذا إحتكمنا إلى هذه الأرقام فإن ديمقراطية التعليم لا محالة قد أعطت نتائجها .

ما نلاحظه هو الدخول في اللعبة المدرسية لفئات كانت قد أقصت نفسها أو كانت مقصية إلى حد الآن كما هو حال التجار الصغار والحرفيين والمزارعين وكذلك أبناء عمال الصناعة بفعل تمديد التمدرس الإجباري إلى غاية 16 سنة .ولكن هذه العملية أدت إلى تكثيف التنافس وإلى زيادة الاستثمارات التربوية لفئات كانت من قبل من أكبر المستهلكة للمنظومة المدرسية .

- إرتفاع الأعداد عدل من قيمة الشهادات المدرسية

في الواقع ، فإن الزيادة المعتبرة لحاملي الشهادات صاحبه انخفاض في قيمة الشهادات .

<< من الواضح ، أن أبناء الطبقات المحرومة اقتصاديا وثقافيا يمكن أن يصلوا إلى مختلف المستويات المدرسية ولا سيما العليا منها دون أن تتغير القيمة الاقتصادية والاعتبارية للشهادات (...) إن التلاميذ والطلبة المنحدرين من الأسر الأكثر حرمانا على المستوى الثقافي لهم كل الحظوظ لئلا يحصلوا، بعد تمدرس طويل وتضحيات جسام ،سوى على شهادة منتقصة وغير مثمنة .>>[1]

وهكذا وبإجراء تشابه مع آليات الإقتصاد النقدي ، فإن الزيادة الكبيرة في كمية النقود تؤثر في قيمتها .وفي ميدان التعليم ، فإن التوزيع المتزايد للشهادات أنتج "تضخما "بحيث أن القيمة الاسمية للشهادات ، التي تبدو ظاهريا مستقرة ،تشهد في الواقع "إنخفاضا" وبالتالي إنتقاصا من قيمتها الحقيقية رغم أن البكالوريا تظل اسميا بكالوريا اليوم كما هو الحال بالأمس

ولكن موازاة مع ذلك فإن مردودية الشهادات في تناقص.إن زيادة المناصب التي تقتضي شهادة معينة هي أقل من زيادة حاملي الشهادة .وهكذا ،وبالنسبة لنفس المنصب فإن مستوى الشهادة المطلوبة لشغله ما فتئ يرتفع ،فلا تسمح البكالوريا كما هو الحال حتى نهاية الخمسينيات بشغل منصب إطار وحسب بورديو فإن التنافس بين مختلف مستعملي المؤسسة المدرسية أحدث تحولا شاملا في البنية الاجتماعية مع إبقاء التباينات النسبية بين الطبقات :كل شيء تم وكأن كل الطبقات قد تعدلت مواقعها وبالتالي ألغيت كل جهود الصعود الاجتماعي للفئات التي ، في النظام الإنتقائي السابق ،قد تكون مقصية .<< إن مثل هذا التطور المتشابه يشاهد على ما يبدو عندما قوى ومجهودات الجماعات المتنافسة من أجل الحصول على نوع من الخيرات والألقاب النادرة تريد أن تتساوى كما هو الحال في السباق حيث على إثر سلسلة من التجاوز واللحاق فإن الفوارق الأولية تظل على حالها بمعنى كلما تحاول الجماعات المحرومة القيام بمحاولات لإمتلاك الثروات أو الألقاب الممتلكة من قبل الجماعات التي توجد في وضعية أعلي منها في التدرج

[1] **P.B. LA MISERE DU MONDE LE SEUIL,PARIS,1993,P599**

الاجتماعي أو قبلها مباشرة في السباق ، فإن الجماعات الموجودة في وضعية أحسن منها تبذل جهودا للحفاظ على ندرة وتمايز خياراتها وألقابها .>>[2]

هذه الوضعية لم تنتج سوى نوعا من الحسرة لدى الطبقات الشعبية إن لم نقل خيبة الأمل تجاه مؤسسة مدرسية غير قادرة على ضمان شغل ملائم للإنتظارات والتوقعات المرجوة من إمتلاك شهادة ،لأن التباين بين الشهادة والمنصب هو حسب بورديو أحد تفسيرات الأزمة التي تعصف من حين لأخر بعالم التعليم من أحداث ماي إلى احتجاجات تلاميذ الثانويان في1986و1990

<<بعد مرحلة من الوهم وحتى من الغبطة ،فهم حاملو الشهادات شيئا فشيئا أنه إما أنه لايكفي الوصول إلى التعليم العالي للنجاح كما لا يكفي النجاح للوصول إلى المواقع الاجتماعية التي تسمح الشهادات المدرسبة وخصوصا البكالوريا الوصول إليها في وقت مضى حيث لم يكن لنظرائهم مستوى التعليم الثانوي .>>[1]

هذه التعديلات البنيوية، وهي نتيجة إستراتيجيات إستعمال المنظومة المدرسية،مست كذلك في المقابل ممارسات الأعوان بسبب التنافس الشديد الذي لا بد أن يقوموا به.

- الطبقات الاجتماعية تتميز من خلال إستراتيجياتها

- إستعمال المنظومة التعليمية غير عادل

من الناحية الكمية :

ديمقراطية التعليم ليست متشابهة بالنسبة لكل الفئات الاجتماعية .وللوقوف على ذلك أجرت وزارة التربية الوطنية دراسة واسعة حول صيرورة التلاميذ الذين يدخلون إلى السنة السابعة متوسط في سنة 1980 ومن خلال مقاربة تتبعية قائمة على تقنية البانيلpanel لاحظت الوزارة صيرورة نفس الجماعة من التلاميذ حتى

---

[2] **P.B.LA DISTINTION,OP.CIT.P.180**
[1] **P.B. LA MISERE DU MONDE OP.CIT. P.598**

دخولهم السنة الأولى ثانوي وكانت النتائج مترجمة لفوارق كبيرة فيما يخص الدخول إلى السنة الأولى ثانوي.

ما نلاحظه هو أن أبناء المعلمين لهم حظوظا أكثر ب 3،4 للدخول إلى الأولى ثانوي من أبناء العمال غير المؤهلين .

من الناحية الكيفية

تبدو الفوارق أكثر لأن ديمقراطية التعليم يصاحبها إرتفاع هام للتمييز الداخلي وزيادة على عدم المساواة في الدخول إلى التعليم هنالك عدم المساواة في التخصص من خلال الفروع التي تحدد المسارات ومن خلال القيمة المعطاة لكل تخصص وكذلك تشكيلتها البشرية .

<< إن التنوع الرسمي في شكل فروع أو شبه الرسمي في شكل مؤسسات أو أقسام متدرجة من آثاره كذلك المساهمة في إعادة خلق مبدأ مخفي للتمييز : التلاميذ المنحدرون من عائلات ميسورة تلقوا من عائلتهم حس الاستثمار المربح وكذلك الامثلة والنصائح التي تساعدهم في حالة الشك ، هؤلاء التلاميذ هم في وضعية تسمح لهم بوضع استثماراتهم في أحسن وقت وأحسن الأمكنة بمعنى في أحسن التخصصات وأحسن المؤسسات وبالتالي أحسن الفروع ، وفي المقابل فإن التلاميذ المنحدرين من عائلات محرومة وخصوصا أبناء المهاجرين يضطرون منذ نهاية دراستهم الابتدائية إلى توكيل مصيرهم إلى تعليمات المؤسسة المدرسية أو إلى الصدفة لإيجاد طريقهم في عالم معقد أكثر فأكثر وهم كذلك محكوم عليهم باستثمار رأسمالهم الثقافي الذي يظل مع ذلك محدودا جدا.>>[1]

إن اختيار الفروع يصبح رهانا كبيرا ويظهر هناك فرق بين التعليم التكنولوجي والتقني (أين تكون الطبقات الشعبية ممثلة بكثرة) والتعليم العام المثمن للغاية والذي نجد فيه تدرجا للفروع مع إعطاء الصدارة للفروع العلمية وكذلك الشأن عندما يكون للأولياء رأسمال ثقافي واجتماعي مرتفع فهم يملكون.

---

[1] P.B, LA MISERE DU MONDE,OP.CIT. P602

عددا كبيرا من مصادر الإعلام حول الفروع والمؤسسات وبالتالي في وضعية تسمح لهم بتطبيق إستراتيجية تضمن النجاح المدرسي والاجتماعي لأبنائهم وذلك بإبقاء الندرة التمييزية للشهادة المدرسية المكتسبة تسمح هذه الإستراتيجيات بتفسير كيف أن الدخول إلى المؤسسات المشهورة التي تؤدي إلى مواقع السلطة يظل حكرا على الفئات المسيطرة .

وعكس ذلك فإن أبناء الفئات المحرومة يوجهون نحو التخصصات والفروع المنتقصة ويشكلون بالتالي فئة جديدة مقصية من الداخل بمعنى تلاميذ تحتفظ بهم المؤسسة المدرسية لتأجيل إقصائهم .

<< إن تنوع الفروع الذي تصاحبه إجراءات توجيهية وإنتقائية مبكرة أكثر فأكثر يهدف إلى إقامة ممارسات إقصائية لطيفة وغير محسوس بها في المعنى المزدوج أي متواصلة ومتدرجة وغير مدركة سواء من طرف الذين يمارسونها أو من الذين يعانون منها (...)المدرسة تقصي كعادتها ولكن تقصي الآن بصفة متواصلة وفي كل المستويات الدراسية (...) وتحافظ بداخلها على الذين تقصيهم وذلك والإكتفاء بحشرهم في الفروع المنتقصة علميا واجتماعيا.>>[1]

- إن دراسة الإستراتيجيات المدرسية بمعزل عن الإستراتيجيات الاجتماعية يمكن أن تبدو تعسفية واعتباطية.

- إن الإستراتيجيات المدرسية هي عنصر مركزي في إستراتيجيات إعادة الإنتاج وتمس الفئات الأخرى .

حسب بورديو ترتبط أهمية هذه الإستراتيجيات المدرسية للعائلات بالدور المركزي الذي تلعبه المدرسة في إستراتيجيات إعادة الإنتاج .صحيح أن هذه الإستراتيجيات مركزة على المدرسة خاصة وأن المكون الثقافي في الحجم الشامل لرأس المال المكتسب أصبح مرتفعا .وهذا ما يفسر الاستثمار التفاضلي في المؤسسة المدرسية لأعضاء المهن الفكرية مقارنة بالحرفيين والتجار الصغار ،لأن هؤلاء يؤسسون إعادة إنتاجهم على التوريث المباشر لرأسمالهم الاقتصادي .في

[1] **P.B. MISERE P.602**

حين ان ما فتيىء دور الشهادة يتعاظم حتى لدى الفئات التي لها رأسمال إقتصادي معتبر .

إن إستراتيجيات الاستثمار المدرسي تكون ذات مردودية كلما كان الرأسمال الثقافي الأصلي مرتفعا، ولكن الشهادة كذلك يمكن أن تستفيد من الرأسمال الاجتماعي للأولياء وبالفعل فإننا نلاحظ أنه عندما تتساوى الشهادات فإن الأطفال المنحدرين من طبقات مسيطرة يحصلون على مردودية أحسن لشهاداتهم المدرسية في سوق العمل مقارنة بالأطفال المنحدرين من الطبقات المحرومة . وهكذا فإن الأصل الاجتماعي يلعب دورا في الحصول على الشغل ولا سيما من خلال شبكة العلاقات التي تسمح بمعرفة حسنة لفرص التوظيف أكثر من تلك المعروضة من طرف الهيئات العمومية . وعلاوة على ذلك فإن هذا المفعول يستمر أثناء المهنة ويمس الحراك المهني ، إن الأصل الاجتماعي العالي ينزع إلى تفضيل الترقيات أثناء الحياة المهنية. عندما يكون المستوى المبدئي متشابها فإن ابن إطار يبدأ كموظف له حظوظ كثيرة ليصبح إطارا خلال حياته المهنية من زميله ابن الموظف.

إن إستراتيجيات الاستثمار المدرسي ليست بمستقلة عن إستراتيجيات الخصوبة وهكذا فإن ملاحظة نسبة الخصوبة حسب الانتماء الاجتماعي في فرنسا المعاصرة تبين أن الفئات الاجتماعية الميسورة وبنسبة أقل الطبقات المحرومة لها نسبة خصوبة أعلى من نسبة الطبقات المتوسطة.ويستنتج بيار بورديو أن:

<<البرجوازيين الصغار هم بروليتاريون يجعلون من أنفسهم صغارا ليصبحوا برجوازيين >>.[1]

لا يمكن للاستثمار المدرسي أن يكون ذا مردودية إلا إذا لم يشتت : ويتعلق الأمر هنا بتفضيل النوعية على الكمية وذلك لتسهيل التأطير المنزلي للعمل المدرسي.وختاما فإن الإستراتيجيات المدرسية بوصفها مكونة للرأسمال الثقافي هي كذلك عامل قوي للزواج المتشابه في السوق الزواجية وبالتالي المساهمة

---

[1] **P.B. LA DISTINCTION,OP.CIT.P.390**

بصفة غير مباشرة في إعادة الإنتاج الاجتماعي: الأزواج لا يتشابهون فقط نظرا لأصلهم الاجتماعي وإنما كذلك لمستواهم المدرسي .

وخلافا للفكرة القائلة بأن المدرسة مؤسسة محايدة في خدمة المعرفة الكونية والعقلانية وتسمح بالترقية الفردية ،فإن علم اجتماع بيار بورديو بين بأنها من المؤسسات المركزية في إعادة إنتاج المزايا الثقافية .ولكن عدلت هذه الفكرة نوعاما من طرف صاحبها ، وإنطلاقا من تفسير قائم أساسا على آليات إعادة الإنتاج المرتبطة بأسلوب الاشتغال الداخلي للمؤسسة المدرسية تحول التحليل إلى دراسة الإستراتيجيات التي يوظفها الأعوان الاجتماعيين في الاستعمال التفاضلي للمؤسسة وفقا لموقعهم في الفضاء الاجتماعي وفي هذا الصدد فإن علم اجتماع المدرسة لا يمكن فصله عن إسهامات بورديو الأخرى لأن القوانين العامة لاشتغال الحقول تطبق أيضا على الحقل التربوي.

الفصل السادس:الثقافة

1-الثقافة رهان طبقي

الثقافة:رهان للصراعات- منطق إنتاج "الثقافي " يمر على استقلالية الحقل الثقافي

الثقافة المسيطرة تفترض عملا للمشرعة يمر عبر الصراعات الرمزية
صراع الطبقات يأخذ شكل صراع رمزي
العنف الرمزي يقوم على فرض مقولات إدراك العالم الاجتماعي
نشر المعتقدات يتم بفضل المؤسسات

2- الممارسات الثقافية تتميز بالانتماء الاجتماعي ومؤسسة على منطق التمييز

وجود ثقافة شرعية يهيكل المؤسسات
استهلاك الثروات الثقافية يدخل ضمن إستراتيجية التمييز الاجتماعي
التمايزات الاجتماعية توجد في شكل وفي طبيعة الممارسات
التمايزات الاجتماعية تظهر في نفس الممارسة

العلاقة مع الثقافة تختلف حسب الانتماء الطبقي

1- الثقافة رهان طبقي:

إن علم اجتماع الثقافة لا يمكن فصله عن نظرية السيطرة لبيار بورديو:فمن خلال الثقافة يضمن المسيطرون سيطرتهم.كما أن الثقافة هي منظومة من الدلالات المتدرجة:لأن الثقافة هي كذلك رهان للصراعات بين المجموعات الاجتماعية،الغاية من هذا الرهان هي الحفاظ على الفوارق التمييزية بين الطبقات الاجتماعية.وبالتالي، نجد أنفسنا أمام ميدان لتحليل الصراعات والعنف الرمزي يؤدي إلى التساؤل حول الآليات التي من خلالها يساهم المسيطر عليهم في قبول السيطرة عليهم.وعلم اجتماع الثقافة يؤدي إلى تحليل منطق الممارسات الثقافية والتي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الثقافة المسيطرة.

- الثقافة:رهان للصراعات

الثقافة حسب بورديو هي رأسمال منتج في حقل خصوصي.وأن مصطلح "ثقافة"له معان متنوعة،هناك أولا المعنى الأنثروبولوجي،والذي يعني طرائق الفعل والإحساس والتفكير الخاصة بجماعة اجتماعية.وهذا المفهوم الشامل صيغ في مقابل مفهوم الطبيعة،ويدخل ضمن الثقافة كل ما هو مكتسب وموروث أي منقول في مقابل ما هو فطري أي كل ما يجعل من الناس كائنات خلاقة لظروف وجودها الخاصة.وفي هذا المعنى فإن كل جماعة إنسانية تشترك في ثقافة،خاصة وأن كل مجتمع مهما كان يقوم بصياغة ممارسات تقنية وقواعد للسلوك ويبني تمثلا للعالم...ووفق هذا المنطق فإن الثقافة تؤسس الهوية الجماعية لمجموعة كبيرة، عندما نتحدث مثلا عن الثقافة الغربية وعن هوية جماعة محدودة أو عندما نتحدث عن ثقافة "الإنويت"INUITS.

والثقافة في المعنى العام والجاري تعني المعارف العلمية والفنية والأدبية للفرد،وهي تقابل الإنسان المثقف بالفرد "الجاهل" وعلى مستوى المجتمع الشامل فإنها تعني التراث الخاص بالأعمال الفكرية والفنية ولرفع اللبس ،فإن علماء الاجتماع يتحدثون في هذه الحالة عن الثقافة العالمة أو كذلك عن

الثقافة"المثقفة".ويتعلق الأمر بثقافة النخبة المثقفة، والتساؤل المركزي حول هذا التصور للثقافة يكمن في علاقاتها مع الثقافة الجماهيرية التي هي مجموعة المعارف والقيم المنقولة من طرف وسائل الإعلام ووسائل الاتصال الجماهيرية (الصحافة،الإذاعة،التلفزيون) والمؤسسات الثقافية الأخرى (الصناعات السينمائية،صناعة الأسطوانات...).إن انتشار الثقافة الممعيرة CULTURE STANDARDISEE هو أساس التوحيد الثقافيCULTURE UNIFORMISATION DE LA

أما في المعنى السوسيولوجي فإن الثقافة تعني مجموعة القيم والمعايير والممارسات المكتسبة والمشتركة عند مجموعة من الأشخاص.إن هذا التعريف يشهد على تأثير الاستعمال والتوظيف السوسيولوجي،ولكن مع إهمال الإشكالية طبيعة/ثقافة.

إن البحوث السوسيولوجية حول الممارسات الثقافية التي أجريت في فرنسا تتبنى تعريفا واسعا نسبيا للثقافة.ولا تعتبر كثقافية الخدمات الملازمة للأعمال الفنية وكذلك تلك التي لها علاقة بالاتصال(الصحافة والإذاعة والتلفزيون)والترفيه.إن مثل هذه المقاربة تدخل قي الثقافة في معناها السوسيولوجي أي الثقافة العالمة ولكن لا تحصرها في الممارسات "النبيلة"،وبالتالي فإن التعريف السوسيولوجي يشمل عدة معاني ويجعل من مفهوم الثقافة مفهوما صعب الاستعمال.

إن استعمال المصطلح في صيغة الجمع "ثقافات"يرجع إلى مفهوم التعدد الثقافي.وبالتالي فداخل نفس الثقافة يمكن أن تتعايش جماعات لا تتقاسم نفس الممارسات والتمثلات المسيطرة.والوحدة الثقافية التي تفترض وجود ثقافة متشابهة بالنسبة لكل الأفراد يحل محلها التنوع.وعكس المجتمعات التقليدية،فإن المجتمعات المصنعة تتعقد وأن موقع الأفراد في البنية الاجتماعية غير متشابه ويترتب عن ذلك وجود ثقافات مختلفة.وهذه الثقافات يمكن أن تؤسس على خصوصيات جهوية ولكن كذلك على الانتماء إلى جماعات اجتماعية متمايزة كالثقافة العمالية.ونسمي ثقافة فرعية SOUS- CULTURE لتعيين السلوكات والقيم الخصوصية لجماعة

معينة داخل المجتمع الكلي،وثقافة مضادة CONTRE- CULTURE عندما تعارض الجماعات الثقافة المسيطرة وتبحث عن ترقية وإحلال قيم ثقافية جديدة.

إن قراءة أعمال بورديو حول الثقافة أصبحت صعبة خاصة وأن الكاتب يستعمل بصفة غير تمييزية المعاني المختلفة .فهو لا يعتبر الثقافة بمثابة الوصول إلى التراث الثقافي والفني فحسب ولكن كذلك كتدرج للقيم والممارسات.إلا أن ما يهم في التحليل هو أن الثقافة لها كل خصائص رأس المال وبالتالي فهي رهان للصراعات في حقل له استقلاليته.

- منطق إنتاج "الثقافي" يمر على استقلالية الحقل الثقافي

كما هو حال كل الحقول،فإن الحقل الثقافي يشتغل كالسوق بمعنى فيه العارضون والمستهلكون.المنتجون تكمن مهمتهم في إنتاج "القوانين الرمزية"المنظمة في شكل منظومات ثقافية متمايزة.وهذه المنظومات الثقافية مكونة من طرائق الرؤية فيما يتعلق بالسينما والتلفزيون والإشهار والرسم...وطرائق الإحساس فيما يتعلق بإنتاج وتوزيع الرواية أو الشعر ...وطرائق التفكير فيما يتعلق بالتمرن المدرسي على الرياضيات وفن تلخيص النص والتعليق...إن هذا العالم الرمزي يكتسب تدريجيا(كلما تطور وتكونت مؤسساته وأساليب هيمنته على الأفراد) استقلالية تسمح له بدوره بهيكلة العلاقات الاجتماعية.إن عمل صياغة "القوانين الرمزية" يفترض إذن دائما استقلالية الأعوان والتي تكون ممارستهم مرتبطة بهذا الإنتاج الثقافي والذين ينزعون إلى التخصص.وعلى سبيل المثال يمكن دراسة الظهور التاريخي ل"المثقف".

منذ النهضة،بدأ الانتقال من ثقافة تابعة للكنيسة نحو حقل ثقافي متفتح على العلوم الجديدة،والآداب والفنون.وتقدم الطباعة الذي كان سببه الطلب المتزايد على المطبوعات مما أدى وبسرعة إلى ترقية صناعة جديدة.وفي القرن السابع عشر ظهر في الحقل الفرعي للأدب الكاتب المحترف الذي يتعارض مع هيمنة الكنيسة والمملكة وأصحاب المكاتب والناشرين وكل الذين يحددون من حريته.ويمكن أن نوسع هذه الطريقة إلى كل الميادين :الموسيقى والمسرح والرسم...

أما اليوم ،فإن حقل الإنتاج الثقافي حصل على استقلاليته وهو متكون من العديد من المنتجين المتخصصين،والتحاليل والنظريات المتنافسة هي في نهاية المطاف ثمار عمل هؤلاء المختصين.إن الحقل الثقافي يذكرنا بأن الثقافة ليست ببساطة مجموعة من الأعمال وإنما كذلك صياغة لمختلف إدراكات العالم وكذلك طريقة خصوصية لوصفه ولفهمه.إن الثقافة هي مجموعة من بنى الإدراك،هذه البنى مصاغة من قبل الأفراد الذين لهم رأسمال ثقافي مرتفع وسلطة شرعية معترف بها كالمثقفين المكرسين والصحافيين المهمين وقادة الحركات الممثلة المؤثرة كالنقابات وجماعات الضغط.

إن المعتقدات والقيم والبناءات النظرية والنظريات الاجتماعية تتطور مبدئيا داخل هذه الأوساط المحدودة.ولكن انتشار هذه التمثلات على كل المجتمع وتبنيها لا يتم بصفة تلقائية.

- الثقافة المسيطرة تفترض عملا للمشرعة يمر عبر الصراعات الرمزية

إن رهان هذه الصراعات يتمثل في فرض تعريف شرعي للعالم الاجتماعي يسمح بضمان إعادة إنتاج النظام الاجتماعي.ويتعلق الأمر هنا بفهم كيف أن التعسف الثقافي لطبقة معينة تحول إلى ثقافة شرعية.إن أطروحة بورديو تكشف أن الثقافة المسيطرة هي ثقافة الطبقة المسيطرة والتي من خلال عمل طويل للمشرعة أدت إلى نسيان كل مظاهر التعسف التي هي في أساسها.إن المشرعة تعني العملية التي تؤدي إلى الشرعية.والتعسف يعني الشيء الذي له وجود فعلي أي الأمر الواقع لا الوجود

الناتج عن الحق والقانون ولا شيء يبرره ،ولا يلزم على قبوله. من خلال هذه المقاربة فإن الصراع لا يتم بين طبقات "مجندة" ومجتمعة للدفاع أو لتعديل بنية الخصائص الموضوعية ولكن طبقات "موضوعية" (بمعنى هنا)مجموعة من الأعوان يوجدون في ظروف حياة متجانسة.

- صراع الطبقات يأخذ شكل صراع رمزي

يرى بيار بورديو أن الصراعات الرمزية تهدف إلى فرض نظرة للعالم مطابقة لمصالح الأعوان،وهذه النظرة للعالم تخص الموقع الموضوعي في الفضاء الاجتماعي(الجانب الموضوعي)وكذلك التمثلات التي يحملها الأعوان عن العالم الاجتماعي(الجانب الذاتي):

<< يمكن للصراعات الرمزية المتعلقة بإدراك العالم الاجتماعي أن تأخذ شكلين مختلفين. يمكن من الناحية الموضوعية، أن نسلك من خلال أفعال للتمثل فردية أو جماعية تهدف إلى تقديم أو ترسيخ بعض الحقائق:وأذكر هنا على سبيل المثال المظاهرات التي تهدف إلى إظهار جماعة ما بعددها وقوتها وتجانسها وبالتالي إعطائها وجودا مرئيا ، أما على المستوى الفردي يتم ذلك من خلال كل إستراتيجيات التعريف بالأنا(...) نهدف إلى إظهار صورتنا وخاصة(...) مكانتنا في الفضاء الاجتماعي.ومن الناحية الموضوعية، يمكن أن نسلك لمحاولة تغيير مقولات إدراكنا وتقييمنا للعالم الاجتماعي.إن البنى المعرفية والإدراكية والتقييمية ومنظومات التصنيف بمعنى الكلمات والأسماء التي تبني الواقع الاجتماعي والتي تعبر عنه هي بامتياز رهان للصراع السياسي والذي هو صراع لفرض المبدأ الشرعي للرؤية وللتقسيم الشرعي...>>[18]

إن التعريف الخاص لما هو شرعي أصبح إذن مسألة ذات أهمية قصوى بالنسبة لكل جماعة اجتماعية وبالنسبة لكل عون لأن رهانه يتمثل في الحفاظ أو في تغيير النظام القائم،بمعنى الحفاظ أو التمرد على علاقات القوة.إن الواقع الاجتماعي هو كذلك علاقة معنى وليس فقط علاقة قوة:إن كل سيطرة اجتماعية ،إلا في حالة اللجوء إلى العنف المسلح باستمرار،لا بد أن يعترف بها وتقبل وكأنها شرعية.وهذا يفترض إقامة سلطة رمزية وهي سلطة تتوصل إلى فرض دلالات وإلى فرضها وكأنها شرعية وذلك بإخفاء علاقات القوة التي هي أساس قوتها.ومن هذا المنظور فإن العلاقات الاجتماعية هي كذلك علاقات تنافس بين

---
[18] **Pierre .BOURDIEU. CHOSES DITES ED MINUIT PARIS 1987,.P159**

إعتسافات ثقافية (ثقافات)،وبما أنها تدور حول الحقل الرمزي ،فإن بيار بورديو يقترح تسميتها ب"صراعات التصنيف".LUTTES DE CLASSEMENT

- العنف الرمزي يقوم على فرض مقولات إدراك العالم الاجتماعي

<< إن العنف الرمزي هو ببساطة ذلك الشكل من العنف الذي يمارس على العون الاجتماعي بتواطئه...ولقول هذا بكل دقة،فإن الأعوان الاجتماعيين هم أعوان عارفون والذين،حتى وإن أخضعوا إلى حتميات فهم يساهمون بدورهم في إنتاج فعالية ما يحددهم خاصة وأنهم يهيكلون ويؤطرون ما يحددهم(...)أسمي تجاهلا، عندما نقر بوجود عنف يمارس ونتجاهل بأنه عنف،وهذا ما يعني أننا نقبل مجموعة من الأحكام المسبقة الأساسية والتي يستعملها الأعوان الاجتماعيون لأنهم يتخذون العالم وكأنه عادي بمعنى كما هو ويجدونه طبيعيا لأنهم يطبقون عليه بنى معرفية مستنتجة من نفس بنى هذا العالم .ولكوننا ولدنا في عالم اجتماعي،فإننا نقبل عددا من المسلمات التي تأتى من تلقاء ذاتها ولا تتطلب تلقينا.>>[1]

إن التمثلات المسيطرة DOXA بمعنى مجموعة الآراء المشتركة والمواقف القائمة والأفكار المقبولة،كل ما يأتي من تلقاء ذاته بدون مناقشة لا يمكن أن تفرض داخل مجموعة اجتماعية أو في كل المجتمع إلا من خلال عملية تلقين حيث تكون فعاليتها رهينة عاملين.

تكون في البداية ،عقلنة في تعابير عامة ومعولمة لمتطلبات خصوصية خاصة بالوسط الذي شهد ظهورها.لنأخذ مثلا المطالبة بالحرية ،بالنسبة للمثقفين فإنها تدل أولا على حرية الكلام والكتابة والنشر وبالنسبة لأرباب المؤسسات،حرية تحديد الأسعار والأجور والتوظيف والتسريح.المطالبة بالحرية تصبح معولمة عندما ترتقي إلى مرجع إيجابي بالنسبة إلى كل الشعوب بما في ذلك الأفراد الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة أو بالنسبة للذين يعيشون في تبعية اقتصادية

---

[1] Pierre BOURDIEU et L. WACQUANT,REPONSES ED MINUIT PARIS 1992 P143

مطلقة.إن كل هذه المقولات تقترح باسم العقل وباسم العلم ولكنها في الواقع تؤسس من خلال وجود علاقات قوة فكرية وثقافية .

لا بد إذن من التركيز على الدور الأساسي الذي يلعبه الكلام:إن تعريف ما هو شرعي يمر من خلال"معارك الكلمات".إن تسمية الأشياء بهذه الكيفية أو بتلك،يعني إعطاؤها وجودا مغايرا أو محوها من الوجود.إن كل فئات الأعوان المسيطر عليهم سواء تعلق الأمر بالفئات الجنسية أو بالفئات العمرية أو بالفئات الإثنية(العرقية) أو بالفئات الاجتماعية -المهنية...هي محل خطاب قدح وتشهير فج أو حذق وبالتالي محل توصيم كما يمكن أن تعطى لها هوية سلبية.

- نشر المعتقدات يتم بفضل المؤسسات

المؤسسات هي هيئات السلطة التي يتمثل دورها في التأسيس للواقع،وفي الحفاظ بصفة رسمية على العلاقات الاجتماعية وعلى تدعيمها.وتستطيع المؤسسات أن تفرض في ميادينها الخاصة تعاريف شرعية للواقع على الأعوان الذين يثقون فيها. تستعمل إن المؤسسات سلطتها لإعطاء أو لعدم إعطاء مصداقية لمزاعم الأعوان في امتلاك هذه الملكية أو تلك،كما تقوم المؤسسات على الانتقاص من قيمة المعتقدات المنافسة،ثم إن بعض الفاعلين الاجتماعيين الذين يوجدون في وضعية متميزة يفرضون منظومة تمثلاتهم لأنهم يراقبون أو على الأقل يمارسون تأثيرا خصوصيا على هيئات التنشئة الاجتماعية كالمدرسة والمنظمات الدينية أو السياسية ووسائل الإعلام.

وترجع فعالية فعلهم إلى سلطتهم في التعيين،فهم يمنحون الألقاب والشهادات والأوسمة الرسمية وذلك عن طريق تعيين واعتماد وتقليد وتنصيب أعوان بواسطة طقوس تنصيب رسمية.وبالتالي فهم يفرضون "واجب التمظهر" على الأعوان المكرسين من خلال تبني الخطاب المؤسساتي حول الواقع.عندما يعين شخص في الأكاديمية الفرنسية ،فهو مطالب بالإمتثال للدور الذي تنتظره منه المؤسسة.وكذلك

الحال بالنسبة لكل الطقوس المدرسية والجامعية والتي من خلال الامتحانات والمسابقات تضع حدودا بين الأفراد.

إلا أنه يوجد شرط مضاعف للفعالية الرمزية لطقس المؤسسة،فمن جهة لابد أن يكون الأعوان الذين تتوجه لهم المؤسسة مهيئين للخضوع لأحكامها،لأن الخطاب المؤسساتي لا يمكن أن يشتغل إلا إذا وجد عند الأعوان بنى داخلية معرفية وعاطفية مهيأة لقبوله واستقباله.ومن جهة أخرى ،لا بد أن يكون تعريف الواقع مصاغا من قبل الأعوان المسموح لهم والمرخص لهم،بمعنى الأعوان الذين يستمدون سلطتهم من الرأسمال الرمزي الهام نوعا ما والذي اكتسبوه وراكموه بفضل الأحكام الصادرة عن الحقل المعتبر و هؤلاء الأعوان يظهرون وكأنهم الناطقون باسمه.فلا أحد يزعم أو يدعي بصفة شرعية بأنه طبيب إذا كانت هذه الصفة معترف له بها من طرف خباز.إن الشرعية المنتجة بواسطة هذه العمليات المتعددة تدخل أيضا في الممارسات الثقافية لمختلف الطبقات.

2- الممارسات الثقافية تتميز بالانتماء وتؤسس على منطق التمييز

- وجود ثقافة شرعية يهيكل الممارسات

- الفضاء الاجتماعي تخترقه صراعات قائمة على تراكم رأسمال رمزي

إن أي خاصية موضوعية لا يمكن أن توجد إذا لم تكن موضوعا لتمثل يؤدي إلى الانضمام والانخراط.أن نعيش كمتشردين ونحن نملك ثروة كبيرة فهذا يثير الاستهجان وعلى العكس فإن تبيين الدلائل الخارجية للثراء بطمس نوع من البؤس الموضوعي يضمن نوعا من الاعتراف الاجتماعي،لأن الفرق يكمن في الرأسمال الرمزي والاعتباري الذي نملكه.ولا بد من ملاحظة أنه على المستوى الاجتماعي، يوجد الشيء طالما أننا نعتقد أنه واقع وموجود وعكس ذلك لا يوجد الشيء إن لم نعتقد في وجوده.وفي هذا المعنى ، يمكن القول أن الرأسمال الرمزي هو قرض (في معنى الاعتقاد والثقة التامة المعطاة مسبقا) ممنوح للعون بتزكية من أعوان آخرين والذين يعترفون له بهذه الخاصية المثمنة أو بتلك.

يقوم اشتغال الفضاء الاجتماعي على إرادة التمييز بين الأفراد والجماعات بمعنى على إرادة امتلاك هوية اجتماعية خاصة تسمح بوجودنا الاجتماعي.ويتعلق الأمر قبل كل شيء بأن يعترف بنا من قبل الآخرين وأن نكتسب أهمية مرئية وفي الختام أن يكون لنا معنى.

إن هذه الهوية الاجتماعية تقوم على اللقب العائلي وعلى الانتساب إلى عائلة (كالانتماء إلى أصل) وعلى الجنسية وعلى المهنة وعلى الدين وعلى الطبقة الاجتماعية وهي انتماءات تعطي للأفراد علامات وتوصيمات.أن نكون موجودين اجتماعيا فهذا يعنى أننا "مدركون" بمعنى أن نقوم بتعريف قدر الإمكان وبصفة إيجابية بخصائصنا المميزة.ومنه ضرورة تحويل أية خاصية موضوعية إلى رأسمال رمزي.

إذا نجح عون في حقل معين،في إعطاء للآخرين تمثلا مقنعا للرأسمال الذي يزعم أنه يملكه،يمكن أن يحصل على منافع حقيقية من خصائص قد تكون في حد ذاتها وهمية.وهذا يفترض إذن أن الأعوان المهيمنين يجب أن تكون لهم شهرة بمعنى مراكمة رأسمال رمزي يؤدي إلى الاعتقاد أن لهم استحقاقات.وهكذا فإنهم يبنون زعامتهم والتي لا توجد إلا عندما يعطي المهيمن عليهم خصائص نوعية ومثمنة للمهيمنين.

إن السلطة الزعامية المعطاة للأفراد الذين يفترض أن لهم خصائص خصوصية تضمن لهم إشعاعا اجتماعيا استثنائيا،يقوم على تفويض للسلطة من المهيمن عليهم لصالح المهيمنين والذين لا تمارس عليهم سوى السلطة التي وضعوها بين يديهم.وهذا ما يفسر أن العديد من الأفراد والذين في البداية لهم مواهب عادية ولكن محظوظين بفضل الظروف وكذلك من قبل مساعدين وأعوان نشطين(وسائل الإعلام تمثل اليوم الشكل الأكثر فعالية)استطاعوا الوصول في ميدان أو آخر إلى مواقع من السلطة لا علاقة لها بكفاءاتهم الفعلية.

- استهلاك الثروات الثقافية يدخل ضمن إستيراتجية التمييز الاجتماعي.

إن إرادة مراكمة الرأسمال الرمزي تسمح بتفسير الممارسات الثقافية.وأن كل الدراسات الامبيريقية تبين أن الطبقات المسيطرة هي التي تتردد بكثرة على المتاحف أو الأوبرا والمكتبات وعلى شراء الكتب،وبالتالي لا يكون الحصول على الثروات الثقافية غير متساو، وعدم التساوي لا يعكس فقط التفاوت الاقتصادي ولكن هو كذلك انعكاس لإستراتيجيات التمييز بمعنى للصراع الطبقي في الميدان الثقافي.إن الصراع الطبقي يظهر يوميا في شكل غير معروف ومتوارى من أشكال الصراع من أجل خلق تدرج شرعي في مختلف الممارسات بمعنى الصراع من أجل التصنيفات الاجتماعية.

ويرى بورديو أن الثروات الثقافية مصنفة حسب تدرجات :المسرح الكلاسيكي يقابله مسرح الشارع ورياضة الغولف تقابلها كرة القدم...وتوجد ميادين ثقافية نبيلة كالموسيقى الكلاسيكية والنحت والأدب وممارسات أقل نبلا وفي طريق المشرعة (السينما والتصوير والأغنية والجاز ...) ولكن داخل كل من هذه القطاعات نجد مستويات مختلفة من التمييز، فداخل الموسيقى الكلاسيكية يمكن أن نعثر على الذوق الشعبي والذوق المتوسط والذوق المتميز.

وهكذا فإن معرفة واستهلاك هذه الثروات تصبحان عاملا مصنفا،وبهذا المعنى فإن الأعوان الاجتماعيين يصنفون أنفسهم ويتعارضون في الوقت الذي يقومون بهذه الممارسة أو بتلك ،ويعبرون كذلك عن أذواقهم.إن الحقل الثقافي يشتغل إذن كمنظومة من التصنيف المؤسسة على تدرج ينطلق من الأكثر شرعية إلى الأقل شرعية وباستعمال اللغة العادية من المتميز إلى المبتذل.و يسمح الحقل الثقافي للأعوان الاجتماعيين إعداد إستراتيجيات للتمييز تجاه أعضاء الطبقات الأخرى.إن فرص إظهار التمييز متعددة ولا يمكن حصرها وحتى في الممارسات الأكثر بساطة :اللباس،التأثيث الداخلي،السياحة،الترفيه،الرياضة،الطبخ وكما كتب

أيضا بورديو في التمييز فإن الأذواق هي كذلك لا أذواق:الأذواق تشتغل في نفس الوقت كعوامل إدماج تشهد على الانتماء الطبقي وكذلك كعوامل إقصاء.

-التمايزات الاجتماعية توجد في شكل وفي طبيعة الممارسات

التمايزات الاجتماعية تظهر في نفس الممارسة.إن المقاربة في شكل ثقافة جماهيرية تدعو إلى التفكير بأن امتلاك ممارسة ثقافية أمر ممكن من قبل كل الأعوان الاجتماعيين وأن معنى الممارسات هو متشابه بالنسبة للجميع.وضد هذه "الشيوعية الثقافية" COMMUNISME CULTUREL بين بيار بورديو أن الدخول الديمقراطي لأي ممارسة ثقافية يظل مطبوعا بالإنتماء الطبقي الذي هو إنتاج ملكة خصوصية.

وهكذا الشأن بالنسبة لممارسة التصوير،إن الدراسات التي قامت بها فرقة بيار بورديو من 1961 إلي 1964 كانت موضوعا لكتاب عنوانه "فن متوسط"[1] UN ART MOYENالذي يعطينا نموذجا حول الاستعمال والتمثل المتمايز لنشاط في متناول كل الأعوان الاجتماعيين.وبالفعل،فلا يوجد عائق تقني ولا اقتصادي يحول دون إنتشار ممارسة التصوير لأن سهولة استعمال الآلات وانخفاض أسعارها يساهمان في ذلك بكثير،إضافة إلى أن ذلك لا يتطلب أي تحضير فكري وتكوين خصوصي.

إن هذا التبسيط سيخضع ممارسة التصوير عند مختلف الجماعات الاجتماعية لمعايير مختلفة وهو كذلك فرصة لتبيين الفوارق والتمايز.

نلاحظ عند الفئات الشعبية مواقف واتجاهات متمايزة. عند الفلاحين فإن التصوير يعتبر كتجل للثقافة الحضرية وهو موضوع لمقاومات شديدة والتصوير ينظر إليه وكأنه ترف: تعطي الملكة"الفلاحية" الأولوية للمصاريف المتعلقة بالاستثمار وتحديث الآلات قبل مصاريف الترفيه والاستهلاك المعتبر وكأنه تافه.

[1] **P.BOURDIEU UN ART MOYEN ,ED. MINUIT,PARIS,1965**

أما في الأوساط العمالية وعكس ذلك فإن ممارسة التصوير هي موضوع لانضمام سريع،لكن المعنى الجمالي للممارسة مغيب تماما وما يهم هنا هو وظيفة التصويرفقط:ضمان وحدة العائلة وتطوير ممارسات الألفة الاجتماعية حول تمثيل مختلف الأحداث العائلية (زواج،اعتماد)

أما أعضاء البرجوازية الصغيرة فهم يرفضون العلاقة الشعبية مع التصوير،ويعتبرونه كفن وليس كتراث من الذكريات،لأن النشاط التصويري ينظر إليه في مقابل الرسم،والبعض يرى في هذه الممارسة توكيدا للتمايز عن الثقافة الشعبية وذلك بتجاوز علاقة التصوير بالأحداث العائلية،وذلك باتخاذ مواضيع "لا تستحق" صورة (تفاصيل في بناية،يد شخص...)

أما الطبقات الراقية وعلى النقيض من ذلك،فإنها تضع ممارسة التصوير في أسفل سلم الممارسات الجمالية،فلا تعيرها اهتماما كبيرا لأنها تعتبر التصوير"فنا دونيا"وتكفي بساطة وانتشار الممارسة لأن توصف وكأنها مبتذلة.إن الثقافة "المثقفة" CULTURE CULTIVEEكما بين ذلك بورديو في كتابه "حب الفن"[19]تقوم أساسا على زيارة المتاحف والذهاب إلى الأوبرا.

وبعد خمسة عشر سنة من نشر النتائج الأولى،تساءل بورديو من جديد في كتابه "التمييز"حول علاقات الطبقات الاجتماعية المختلفة بالتصوير.

<< إن كانت ممارسات التصوير قد انتشرت بكثرة،فإن السؤال المطروح يكمن في تحديد المعنى الذي يعطيه لها الممارسون الهواة>>[1]

إن طبيعة الأحكام تترجم تدرج الكفاءات الفنية،فالطبقات الشعبية تجند بنى "الإيطوس" لتوصيف التصوير دون اللجوء إلى الأحكام الجمالية المحضة،فهم ينتظرون أن تؤدي كل صورة وظيفة،وكلما ارتقينا في السلم الاجتماعي،فإن الحديث عن التصوير يصبح تجريديا أكثر فأكثر.

---

[19]**P.BOURDIEU. L AMOUR DE L ART, ED MINUIT,PARIS,1966**

[1]**P.BOURDIEU. LA DISTINCTION,ED MINUIT,PARIS,1979,P382**

وإذا كانت الممارسة التصويرية قد انتشرت على مستوى كل الفئات الاجتماعية،فإن إستراتيجيات التمييز تظل قائمة عند الفئات المهيمنة وذلك برفض الاستعمالات المشتركة وبمنحها قيمة جمالية لمواضيع تعتبر بسيطة ،وعليه فإن ممارسة التصوير تدخل ضمن جملة من الممارسات التي تنضوي تحت "الثقافة المثقفة"[20].

- العلاقة مع الثقافة تختلف حسب الانتماء الطبقي

إن الاستهلاك الثقافي يتغي حسب الطبقات الاجتماعية،فهو رهين الموقع الذي نشغله في الفضاء الاجتماعي،بمعني حجم وبنية الرأسمال الذي نملكه وهكذا فإننا نلاحظ تشابها وتماثلا بين بنية الطبقات وبنية الأذواق والممارسات.

تحاول الطبقة المسيطرة الحفاظ على موقعها من خلال استراتبجية التمييز وذلك بتحديد وبفرض"الذوق السليم"LE BON GOUT على باقي المجتمع.

ويكمن منطق التمييز في إبقاء مسافة تمييزية بين الممارسات ،فكلما انتشرت ممارسة فإنها تفقد من سلطتها التمييزية،وبالتالي لا بد من تعويضها بممارسة أخرى مخصصة لأعضاء الطبقات المسيطرة.مثلا في ميدان الترفيه الرياضي،فإن تعميم ممارسة التنس صاحبه انسحاب الطبقات المهيمنة من ممارسة هذه الرياضة.

الطبقات المهيمنة تفرض كذلك دلالات جديدة بواسطة اللغة والكلام وتتحكم في استعمالهما أكثر من الفئات الأخرى،وحسب بيار بورديو فإن الطبقات المهيمنة تملك احتكار الكفاءة اللغوية الشرعية أي المطابقة للقواعد النحوية وللأسلوب الذي يضمن فعاليتها لأن علاقة الطبقات المهيمنة مع الثقافة تتم حسب ووفق أسلوب التماسف والقراءة وراء السطور.

تتميز البرجوازية الصغيرة ب"حسن النية الثقافية" لأن ملكتها تترجم من خلال إضفاء احترام منتظم للثقافة المسيطرة،وباعتراف بالثقافة الشرعية وبالرغبة في اكتسابها،فهي تحاول محاكاة الممارسات النبيلة أو القيام بممارسات تعويضية.

---

[20] **O. DONNAT,LES PRATIQUES CULTURELLES DES FRANCAIS, LA DECOUVERTE,PARIS,1990**

إن هذه السمات تظهر بقوة لدى البرجوازية الصغيرة الصاعدة لأن أعضاءها يستثمرون في الأشكال الدنيا للإنتاج الثقافي ويهتمون بالسينما والجاز ويقرؤون مجلات التبسيط العلمي والتاريخي،كما أنهم في اضطراب مستمر خشية السقوط في ما هو مبتذل (وبالتالي في ما هو شعبي) ولديهم إرادة "التمايز" بمعنى ما يحاول أن يجعل منهم برجوازيين.

إن هذه الوضعية "المزيفة" تتجلى خصيصا في علاقة أعضاء البرجوازية الصغيرة باللغة والكلام والمتميزة بالتصحيح اللغوي المفرط،وهي نزعة تهدف إلى مطاردة عندهم وعند الآخرين كل أشكال الخطأ.

أما الطبقات الشعبية والتي حسب بورديو تتميز ملكتها ب"اختيار الضروري" وبتثمين الفحولة فلها ممارسات ثقافية تجد منطقها في رفض الاندماج مع البرجوازية الصغيرة،وهكذا فإن "الثقافة المثقفة" ينظر إليها على أنها تخل عن مبدأ الفحولة والمواضيع التي لها صبغة أو طابع "برجوازي" فهي محظورة ومحرمة في محادثاتها.

وحسب بيار بورديو فإنه لا توجد ثقافة شعبية في المعنى السوسيولوجي للكلمة ولكن توجد فقط مجموعة من الممارسات والتمثلات والتي هي عبارة عن:

<<أجزاء متناثرة لثقافة عالمة قديمة نوعا ما(كالمعارف الطبية) منتقاة ومؤولة حسب المبادئ الأساسية للملكة الطبقية ومدمجة في الرؤية السائدة للعالم المترتب عنها.>>[1]

وعليه،فلا وجود لثقافة شعبية مضادة لأن الشرعية الثقافية للمهيمنين ليست محل مراجعة .

وبالتالي ،فإن علم اجتماع الثقافة ،في المعنى المزدوج للمصطلح،قائم على نظرية الهيمنة الثقافية ،فلكل موقع في السلم الاجتماعي ثقافة خصوصية:ثقافة نخبوية ومتوسطة وجماهيرية وهي على التوالي متميزة بالتمييز والإدعاء والحرمان.

---

[1]P.B. LA DISTINCTION,OP.CIT.P.459

إن علم اجتماع الثقافة عند بيار بورديو يؤكد على أهمية الصراعات الرمزية في الصراع الطبقي وذلك من خلال فرض دلالات وتناسي التعسف وهذا هو منطق العنف والهيمنة الرمزيين. ويترتب عن هذا أن الثقافة تشكل عنصرا من مجموعة أوسع أي حقل الإنتاج الرمزي والذي يساهم فيه بصفة تنافسية كل من الحقل السياسي والحقل القانوني والحقل الديني وكل حسب شرعية مختلفة وحسب الأزمنة ينتج تمثلات للعالم بهدف نشرها وفرضها.

وفي المجتمعات المعاصرة ،تحصل المنتجون الثقافيون على استقلاليتهم ولهم مؤسساتهم التي تساهم في تحديد الثقافة المثقفة كثقافة شرعية توجه ممارسات كل الطبقات الاجتماعية حسب منطق مؤسس على التمييز ،ومما لا شك فيه فإن المؤسسة المدرسية دون غيرها من المؤسسات الأخرى،هي التي تمشرع وتعيد إنتاج السلم والتدرج الثقافي.

<u>الثقافة تحديات و تسليع الإبداع</u>

في هذا السياق أرد المؤلف حيزا للحديث عن الثقافة من خلال دراسة بعنوان : "الثقافة في خطر". و ليست هي المرة الأولى التي يفرد فيها بيار بورديو حيزا للثقافة و أحوالها و مصيرها ي عالم متغير يشهد بوتيرة متسارعة تحولات جذرية في مجالات عدة. فلقد فلقد تطرق إلى هذا الموضوع في الكثير من أبحاثه لا سيما في كتابه المعنون "قواعد الفن" الذي كشف من خلاله عن طبيعة التعامل مع الثقافة ي عدد من الدول الغربية، فوضع هذا الموضوع في إطاره الاقتصادي و الاجتماعي العام. و هاهو يعود إليه اليوم في كتابه الجديد "صد النار" ليبرهن أن مايحدث الآن على مستوى النتاج الإبداعي و الفني ي معظم الدول الصناعية المتقدمة إنما يعكس حالة جديدة لا سابق لها. فما أحرزته الثقافة ي إنتاجها و توزيعها عبر عقود بل قرون من الزمن يبدو اليوم مهددا أمام المنطق التجاري الذي يتدخل في كل مراحل الإنتاج الثقافي. و هذا يعني تحويل الثقافة إلى بضاعة خاضعة لعملية العرض و الطلب، كأي بضاعة أخرى يتم تسليعها و تسويقها. منطق الربح إذن هو المنطق المتحكم بالنتاجات الفنية و ما يعنيه من الإبداع هو

المردودية المادية في المقام الأول. و الأخطر ي الموضوع أن هذا المنطق يتحلى بمظهر ديمقراطي، ذلك أن النتاج الذي لا يلتفت إليه الجمهور الواسع، و بالأخص الشبان بوصفهم أدوات كبرى للاستهلاك، يصبح محظورا بالضرورة مهما كانت قيمته الجمالية و نوعيته. إنها المرة الأولى في التاريخ يتحول فيها كل ما هو بشع و مبتذل إلى موضة ثقافية قائمة بذاتها و تجد من يتبناها و يروج لها بحماسة كبيرة. من هنا فإن حضارة "الدجينز" و "الكوكا كولا" و "الماك دونالدز"، كما يسميها بيار بورديو، لا تمتلك فقط السلطة الاقتصادية بل السلطة الرمزية التي تمارسها من خلال لعبة إغواء يساهم فيها ضحاياها أنفسهم.

إنه المنطق ذاته الذي تعتمد عليه الشاشة الصغيرة بصورة عامة. من هذا المنطلق نشهد على سينما تجارية و موسيقى تجارية و مسرح تجاري و رواية تجارية و حتى على شعر تجاري. و تصبح وظيفة وسائل الإعلام الحديثة الترويج و أحيانا في وقت واحد – لهذه البضاعة التي يكون في الغالب وليدة كلفة ضئيلة من أجل تحقيق أكبر ربح ممكن. هذا النسق يجتاح اليوم معظم الميادين الثقافية، و ينتج عن ذلك هيمنة الشركات الكبرى المندمجة بشبكات الاتصال و التي لا تتحكم قط في النتاج السينمائي بل أيضا في سياسة نشر الكتب لدرجة أن الدور الصغيرة بدأت تخضع لضغوط تجارية تهدد وجودها بالكامل، و ثمة دور عديدة أغلقت أبوابها. و هذا التهديد هو انعكاس لتهديد أعم و أشمل و يتمثل في مقومات الثقافة ذاتها. و المقصود هنا هو الثقافة غير الموجهة بصورة تجارية بحتة و غير الخاضعة لنظم الذين يسيطرون على وسائل الإعلام الجماهيري من خلال سيطرتهم على وسائل التوزيع و الإعلان الكبرى.

لقد انتظر الفنانون حوالي خمسة قرون من الزمن ليحظوا بالظروف الاجتماعية اللازمة التي مهدت لولادة فنانين من أمثال بيكاسو. لقد كافحوا طويلا (و هذا ما تؤكد عليه الوثائق التاريخية) حتى لا ينظر إلى نتاجهم بوصفه مجرد سلعة يتم تقويمها و تثمينها انطلاقا من سطحها الملون و من ثمن الألوان التي استعملت في إنجازها. و كافح الفنانون أيضا من أجل حقهم في التوقيع على

أعمالهم الفنية، أي من أجل حقهم ي أن يعاملوا كمبتكرين لهذه الأعمال. كما ناظلوا من أجل اختيار الألوان التي كانوا يستعملونها بأنفسهم، و كذلك طريقة استعمالها و انتقاء موضوع العمل ذاته. هذا ما ينطبق ايضا على مجالات السينما و الموسيقى و الكتابة. و هي لم تصبح مشروعة في الغرب إلا منذ عقود فقط. و كان ساندهم في معركتهم العديد من النقاد و البحاثة و أساتذة تاريخ الفنون. كذا الحال بالنسبة للفن السابع الذي عمل مؤسسوه و العاملون فيه كل ما ي وسعهم لتأمين الشروط اللازمة من أجل انتاج أفلام قائمة على البحث و الاختبار، بالإضافة إلى تأسيس مجلات نقدية متخصصة وصالات صغيرة مكرسة لعروض الأفلام التجريبية، تلك الأفلام التي لا تنتظر النجاح السريع، بل التي تغامر و تجدد و تساهم دائما في الكشف عن مناطق مجهولة. فأين هي هذه السينما الطليعي اليوم، و ما مصيرها أمام هيمنة السينما التجارية التي يقودها المنتجون و الموزعون الكبار؟ هنا يمكن الوجه الآخر لتحويل العمل الفني إلى السلعة. و المعارك التي يقودها حاليا بعض السينمائيين الذين يرضون الخضوع لقرار المنتج في امتلاك الحق النهائي على نتاجهم يذكر، على نحو ما، بتلك المعارك التي شهدتها الفنون التشكيلية في القرن الخامس عشر في إيطاليا.

هكذا يتبدى أن المسار الذي اتبعه المبدع – إلى أي حقل إبداعي انتمى – و الذي أفضى حتى مطلع النصف الثاني من القرن العشرين إلى إنجازات كثيرة تصب في صالح الفن و الفنانين. هذا المسار بدأ يتحرك إلى الوراء بعد أن كان يتحرك محو الأمام، ما يجعل الثقافة في حالة نكوص و تراجع. إن الهاجس الأساسي للمنتجين اليوم هو اجتذاب أكبر نسبة من المستهلكين و ذلك بالتلاعب على نوازعهم الأولى و باستعمال كل وسائل الدعاية و الإعلان و التشويق. و في ظل هذا التوجه أصبحنا نشهد على ولادة فن هجين يتقن لعبة السوق و يتماهى مع أبحاث طليعة تدعى الحداثة و تحاول خداع النقاد و المستهلكين معا.

من هذا المنطلق، ما عاد الخيار قائما بين العولمة بما ه خضوع للقوانين التجارية السارية (و هي النقيض الدائم لمعنى الثقافة)، و بين الدفاع عن الثقافات الوطنية أو

هذا الشكل الخاص منها. فالمواجهة تتحدد إذا بين الخارجية عن النسق العام المتمثل بالأخص في النموذج الأمريكي. و من ممثلي هذا التيار كوريسماكي، مانويل دو اوليفيرا، ساتياجيت راي، كيلوسكي، كياروستامي و عدد آخر من السينمائيين المعاصرين في غير دولة، و الذين يبنون نتاجهم السينمائي على معطيات لا تستلهم على الإطلاق الأنساق التي تمليها هوليبود على العالم. و ما كان لهذه الفئة "المتمردة" و الهامشية أن تستمر و تفرض اسمها على المستوى الدولي لو لا عدد من المنتجين و النقاد و المتلقين الذين لا يريدون لهذا الحيز الحر أن يموت. لكن بورديو لا يلبث أن يؤكد أن حقول الإنتاج الثقافي و التي استغرقت وقتا طويلا و تضحيات كثيرة كي تفرض نفسها، هذه الحقول شديدة الهشاشة في مواجهة قوى التكنولوجيا المرتبطة بالقوى الاقتصادية. لذلك فإن النسبة الكبرى من العاملين في الحقول الثقافية يخضعون لمتطلبات السوق و يفيدون منها ماديا و رمزيا. و هؤلاء اليوم أكثر سلطة و تأثيرا و إن بصورة مؤقتة من أولئك الذين يملون بدون تقديم أي تنازلات فنية و نقاد من العالم أجمع، و هم يواجهون بصعوبة بالغة القوى الاقتصادية التي تضع تحت سيطرتها، و تحت ستار العولمة، الإنتاج الثقافي و تخضعه لقانون الربح السريع حسب.

و يدرج المؤلف في هذا الإطار التهديدات التي تمثلها المعايير النيوليبيرالية على الثقافة، و منها الاتفاق العام لتجارة الخدمات و الذي وقعت عليه مختلف الدول بانتمائها إلى منظمة التجارة الدولية و تطبيقها الآن قيد الدرس. و هي تفرض على المئة و ست و ثلاثين دولة الأعضاء تح كل الخدمات على قوانين التبادل الحر، و بذلك تتحول إلى سلعة و مصدر ربح كل الخدمات بما ي ذلك تلك التي تستجيب لحقوق الإنسان الجوهرية، أي التربية و الثقافة، ضمن هذا الأفق و ي حال تم اقرار المعايير الجديدة، ينتهي مفهوم الخدمة العامة و المكتسبات الاجتماعية الأساسية كالتمكن من العلم المجاني و الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة، و تندرج في هذا الإطار المكتبات و مراكز التوثيق و المتاحف و الفنون و المسرح و الإذاعة و التلفزيون و الرياضة. هذه السياسة تجعل الثروات و الموارد الثقافية

في خدمة المصالح الاقتصادية التي تؤثر على كل إبداع يتوخى الحد الأدنى من الإستقلالية. البنك الدولي و الشركات الكبرى و المنظمات الدولية الكبرى و متفرعاتها الكثيرة غير المعروفة من قبل الجمهور الواسع تولد ما يمكن اعتباره حكومة فعلية عالمية غير مرئية و مجهولة من السواد الأعظم. و هذه الحكومة تؤثر على جميع المؤسسات الاقتصادية و الثقافية، و هي التي تحدد ما يجب أن نأكل و نشرب و نقرأ..

يخلص بيار بورديو إلى القول أن الثقافة مهددة فعلا لأن الشروط الاقتصادية و الاجتماعية التي تنمو ضمنها مطبوعة بقوة بمنطق الربح، و هذا ما يطال الدول المتقدمة و النامية على السواء. فالنظام العالمي الجديد بات هو المنتج الأول للثقافة كما أنه هو اليوم منتج المنتجين و المستهلكين أنفسهم.

أمام الاجتياح التجاري لكل شيء حتى لبعض القيم الجمالية و الروحية التي كانت و لأمد قريب في منأى عن التجارة و المال، بتنا نشهد على أفول عصر كامل. أما منتجو الثقافة المستقلة فلم يكونوا في وضعية أكثر ضعفا مما هم اليوم لكنهم لم يكونوا أيضا يوما بمثل هذه الندرة و الفائدة و الأهمية.

علم العلم والانعكاسية

الدروس التي كان بيار بورديوPIERRE BOURDIEU يلقيها في الكوليج دي فرانس COLLEGE DE FRANCE صدرت في كتاب تحت عنوان علم العلم والانعكاسية في هذا الكتاب الذي يحتوي على ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة يتعرض بيار بورديو لعدة مسائل ويثير العديد من القضايا الحساسة التي لا تهم فقط علماء الاجتماع وإنما كل المشتغلين في الحقل العلمي.

يرى بورديو أن عالم العلم LE MONDE DE LA SCIENCE مهدد بالتقهقر والانحدار لأن استقلاليته التي افتكها من السلط السياسية والدينية وحتى الاقتصادية وجزئيا من بيروقراطية الدولة بدأت تهن العلم اصبح في خدمة غايات وأهداف مفروضة عليه من الخارج ويخضع أكثر فأكثر للمصالح الاقتصادية والى الاغراءات الإعلامية ،أضف علاوة عن الانتقادات التي يتعرض لها من الداخل ومن الخارج .وقصارى القول ،فإن العلم يوجد في وضعية خطيرة ولهذا فإن العلم أصبح خطيرا.

وحسب بورديو ،فإن الضغوط الاقتصادية على الفعل العلمي تزداد يوما بعد يوم وهذا لابد أن يدعونا إلى التفكير ،لأن الضغوط على العلم تمس بالدرجة الأولى الميادين التي تكون فيها المنتوجات البحثية ذات مردودية كبيرة كما هو الحال في العلوم الطبية والبيوتكنولوجيا دون الحديث بطبيعة الحال عن البحث في الوراثيات والبحث في المجال العسكري.

كما يرى بورديو أن الحدود الفاصلة بين البحث الأساسي الذي يتم في المخابر الجامعية والبحث التطبيقي بدأت تزول بل تكاد تكون منعدمة وأن العلماء الذين لا يعرفون أي برنامج بحثي آخر إلا ذلك الذي يفرضه عليهم منطق بحثهم ويرفضون تقديم تنازلات عدا التنازلات الضرورية التي تضمن لهم الحصول على الاعتمادات الضرورية للقيام ببحثهم يخشى أن يهمشوا لصالح فرق بحثية شبه صناعية تعمل على تلبية الطلبات المرهونة بمستلزمات ومتطلبات الربح والفائدة.

هناك تشابك وتداخل بين الصناعة والبحث إلى درجة أنه لا يمر يوم إلا وتظهر فيه خلافات بين الباحثين والمصالح التجارية ولا أدل على ذلك أن شركة كاليفورنية معروفة بإنتاج لقاح يهدف إلى زيادة المناعة ضد فيروس السيدا قد تدخلت لمنع نشر مقالة علمية تشكك في نجاعة هدا اللقاح.

أما فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية فهي غير معرضة للاغراءات لكونها غير قادرة على إعطاء منتجات ذات منفعة مباشرة بمعنى قابلة للبيع ،لكن وحسب بورديو فإن الأخصائيين في هذه العلوم هم موضوع لطلب كبير من إما بصفة إيجابية ويكون غالبا مثمنا ماديا ورمزيا بالنسبة للذين يتعاملون مع النظرة المسيطرة وإما سلبية وإنتقاصية بالنسبة للذين يؤدون بتواضع وموضوعية مهمتهم العلمية ويساهمون في الكشف عن حقيقة وخبايا العالم الاجتماعي .

ولإماطة اللثام على هذه الوضعية التي يوجد فيها العلم اليوم ينطلق بورديو من تساؤل مركزي وهو هل يمكن إخضاع العلم إلى التحليل التاريخي

والسوسيولوجي دون أن نضفي الطابع النسبي على المعرفة العلمية بحصرها في ظروفها التاريخية ؟

وفي حديثه عن الأسس السوسيولوجية للمعرفة العلمية يعلن بورديو ولاءه للتفكير الابستمتولوجي الواقعي ويعارض في ذات الوقت الحصرية السوسيولوجية المتمثلة في "البرنامج القوي " PROGRAMME FORT لبلورBLOOR والنظرة السيميولوجية للعلم للاتور LATOUR اللذان يريان أن المعرفة العلمية هي بمثابة سرد تاريخي محدد تاريخيا أو أنها يجب أن تؤول تفسر فيلولوجيا دلائله لخصوصيته الحقل العلمي لأن مقاربتهم ابستيمولوجية محضة للعلم قائمة على إعادة إنتاج النظرة المثالية التي يحملهما الباحثون عن ممارستهم البحثية .

يرى بورديو أن المعرفة العلمية تتعالى الخصوصيات والأشخاص وهي معرفة معولمة فالفعل العلمي يبني وينتقد ويقيم جماعيا وهو ليس إنتاج أيديولوجية معينة ،كما يرى بورديو أن خصوصية العمل العلمي تمكن في أن الأشخاص المؤهلين للحكم على قيمته وبحكم الطابع التقني لهذا الحقل ،هم في ذات الوقت ،أسوأ منافسيه ومعارضيه

الخطاب العلمي ليس هو انعكاس مباشر للواقع لأن العلم هو عملية مشيدة ويخضع لبناء محكم ويظهر هذا البناء في شكل اكتشافات لا تقبل أن تحصر أو تترجم في الظروف الاجتماعية التي جعلتها ممكنة أوكانت وراء ظهورها وحسب بورديو ، فإن العملية التي تسمح للإنتاجات العلمية الإفلات من تجذرها الاجتماعي والتاريخي تكمن في عمل المؤسسات العلمية من اختيار الباحثين الأكفاء والخضوع للفرضيات وللاستدلالات الذين هم مؤهلون لنقدها بتغليب احسن البراهين وباختصار "الطبيعة الاجتماعية للعلم الذي هو مسؤول عن موضوعيته .

وفي نقده لأصحاب علم اجتماع العلوم الجديد " NOUVELLE SOCIOLOGIE DES SCIENCES الذين يزعمون أنه يمكن تفسير نجاح النظريات العلمية بعيدا عن صراعات المصالح والعوامل الاجتماعية ،يرى بورديو

انه أضحى من الضروري إخضاع العلم للتحليل التاريخي والسوسيولوجي وذلك حتى نسمح للذين يشتغلون في العلم بفهم الآليات الاجتماعية التي توجه ممارستهم العلمية وبهذه الطريقة سيكونون ليس فقط أسياد ومالكي "الطبيعة حسب "مقولة ديكارت DESCARTES وإنما كذلك وهذا ليس بالأمر الهين ،أسياد ومالكي العالم الاجتماعي الذي تنتج فيه المعرفة العلمية.

الفصل السابع:

الرأس مال الرمزي والسلطة الرمزية

6- خصائص الرأسمل الرمزي

7- المنظومات الرمزية والتحليل البنيوي

8- الانتاجات الرمزية أدوات هيمنة

9- المنظومات الرمزية تعطي للعالم بنيته

10- المنظومات الايديولوجية احتكار للانتاج

يقول بورديو "أن تكون نبيلا معناه أن تبذر وأن تكون مرغما على التظاهر وأن يكون محكوما عليك بالرفه والبذخ ويذهب إلى التأكيد بأن الميل إلى التبذير احتد عند بداية القرن الثالث عشر وجاء كرد على الارتقاء الاجتماعي للأثرياء الجدد.[21]

التميز عن الفلاحين حسب بورديو كان يقتضي التفوق عليهم طبقيا وذلك بالتظاهر بالتفوق عليهم في الكرم والسخاء. هذا ما يبرزه أدب العصر. فما الذي يميز الفارس الأصيل عن حديث العهد بالنعمة؟ ذلك أن الثاني بخيل، أما الأول فهو نبيل لأنه يصرف كل ما لديه بكامل الانشراح ولأنه مثقل بالديون.

و يرى أن كل سعي وراء تقسيم العلم للطبقات ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار كون الأعضاء الفاعلين في المجتمع يظهرون كما لو كانوا يتحددون موضوعيا بنوعين متباينين من الخصائص :

فمن جهة هناك الخصائص المادية وهي ابتداء من الجسم، قابلة للتكميم والحصر والقياس، شأن أي موضوع من موضوعات الطبيعة.

ومن جهة أخرى، الخصائص الرمزية التي تنتج عن علاقتهم مع ذوات قادرة على إدراكهم وتقدير قيمتهم تتطلب هي كذلك أن ينظر إليها من خلال منطقها الخاص

هذا يعني أن الواقع الاجتماعي يسمح بنوعين متباينين من التأويل :

فمن جهة، هناك التأويلات التي تتسلح بتوظيف موضوعي للإحصاء لإقامة جداول وتقسيمات (بالمعنى الإحصائي والاقتصادي كذلك) وهي التعبير المكمم عن كيفية توزيع كمية محدودة من الطاقة الاجتماعية بين عدد كبير من الأفراد المتنافسين.

وهذه الكمية تحدد من خلال "مؤشرات موضوعية" (أي من خلال خصائص مادية)

21

ومن جهة أخرى، هناك التأويلات التي ترمي إلى استخراج الدلالات وإبرازالعمليات الذهنية التي ينتج الأعضاء عن طريقها هذه الدلالات والمعاني ويستخرجونها.

يرمي الاتجاه الأول إلى إدراك "واقع" موضوعي لا سبيل إلى أن تدركه التجربة العادية، كما يسعى إلى الكشف عن "قوانين أي عن علاقات دالة، ولكنها ليست علائق عشوائية، تربط الأقسام فيما بينها.

أما الاتجاه الثاني، فيتخذ موضوعا له، لا "الواقع" عالم اجتماعي "مستقل عن وعي الأفراد وإرادتهم"، فيقيم العلم على القطيعة مع التمثلات الذائعة عن العالم الاجتماعي (أي ما يطلق عليه دور كهايم المفاهيم المسبقة) ثم هناك من يرد الواقع الاجتماعي إلى التمثل الذي يكون لدى الأفراد عنه، فيتخذ موضوعا له المعرفة الأولى للعالم الاجتماعي.

إن هذا العلم الذي هو "مجرد تقرير عن التقارير" كما يقول جرفينكل GARFINKEL والذي يتخذ موضوعا له "علما" آخر، هو الذي يمارسه الأعضاء خلال ممارساتهم، لا يمكنه إلا أن يسجل تسجيلات عالم اجتماعي لا يكون، في نهاية الأمر إلا وليد البنيات الذهنية، أي اللغوية.

وخلافا للفيزياء الاجتماعية، لا يمكن للعلم الاجتماعي أن يرتد إلى مجرد تسجيل لأقسام (غالبا ما تكون متصلة فيما بينها) المؤشرات المادية لمختلف أنواع الرأسمال ودون أن يؤول هذا العلم إلى مجرد "تقرير عن التقارير" ينبغي عليه أن يجعل معرفته (العلمية) عن الموضوع تأخذ بعين الاعتبار المعرفة (العملية) التي تكون لدى الأعضاء (أي الموضوع) عن الموضوع.

وبعبارة أخرى، إن عليه أن يجعل معرفته (العلمية) عن الندرة والمنافسة من أجل احتكار الخيرات النادرة، تشمل المعرفة العملية التي تكون لدى الأعضاء عند إنتاجهم للتقسيمات الفردية والجماعية، تلك التقسيمات التي لا تقل موضوعية عن الأقسام التي تضعها جداول المحاسبة في الفيزياء الاجتماعية.

وحسب بورديو فان مسألة الطبقات الاجتماعية فرصة مواتية لإدراك التعارض بين المنظورين السابقين :

فالنزاع الملحوظ بين من يريد إثبات وجود الطبقات ومن يصر على إنكارها، عندما يظهر للعيان أن التوزيع والتقسيمات الاجتماعية هي محل صراع يخفي في الواقع تعارضا دا أهمية، وهو المتعلق بنظرية معرفة العالم الاجتماعي ذاتها.

هناك من يتبنى، بناء على ما تمليه عليه حاجياته وجهة نظر الفيزياء الاجتماعية ويأبى إلا أن يرى في الطبقات الاجتماعية مجرد مفاهيم منهجية أو مقولات إحصائية يفترضها الباحث تعسفا فيقحم الانفصال داخل واقع مترابط، أما الآخرون فيسعون إلى إقامة الطبقات الاجتماعية على تجربة الأعضاء، فهم يتشبثون بأن يثبتوا أن الأعضاء يعترفون بوجود الطبقات المتمايزة حسب الامتيازات التي يتمتعون بها وأن بإمكانهم أن يعينوا أفراد ينضوون تحت هذه الطبقات وفق معايير تزداد صراحة أو تقل وهم يدركون أنفسهم كأعضاء في طبقات.

إن التعارض بين النظرية الماركسية، في الصورة الموضوعية الضيقة التي تتخذها في أغلب الأحيان وبين نظرية ماكس فيبر الذي ميز الطبقة الاجتماعية عن المجموعة التي تحتل منزلة ما STAND والتي تحدد بخاصيات رمزية كتلك التي تحدد أسلوب الوعي، إن هذا التعارض يشكل صيغة أخرى، لا تقل وهما للتعارض بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية :

فأسلوب الوعي، تحديدا، لا يؤدي دوره ووظيفته في التمييز إلا بالنسبة للأعضاء المؤهلين للاعتراف به وتظل نظرية فيبر حول "المجموعة التي تحتل مكانة ما" شديدة الاقتراب من كل النظريات الذاتية عن الطبقات، تلك النظريات التي تدخل أسلوب الوعي والتمثلات الذاتية في تشكل التقسيمات الاجتماعية، مثلما هو الحال عند قارنر WARNER. إلا أن فضل فيبر يتجلى في كونه لا ينظر إلى هذين الموقفين كما لو كانا متنافرين شأن معظم شراحة وأتباعه الأمريكيين، بل إنه يؤلف بينهما، مقيما بذلك مسألة الأصل المزدوج للتقسيمات الاجتماعية على

موضوعية التمايزات المادية وذاتية التمثلات وبالرغم من ذلك فهو يعطي لهذه المسألة حلا لا يخلو من واقعية ساذجة وذلك عندما يميز بين "نموذجين" من المجموعات، حيث لا وجود إلا لأسلوبين في الوجود لكل مجموعة.

إن نظرية الطبقات الاجتماعية مضطرة لأن تتجاوز التعارض بين النظريات الموضوعية التي ترى في الطبقات (حتى عندما تريد تثبت عن طريق البرهان عدم وجودها) مجموعات متناثرة ومجرد جماعات قابلة للقياس والحصر تفصل بينها حدود موضوعية متجسدة في الواقع وبين النظريات الذاتية (أو إن شئنا فلنقل النظرية الحدية) التي ترد "النظام الاجتماعي" إلى نوع من التقسيم الجماعي الذي يكون حصيلة الجمع بين التقسيمات الفردية أو على الأصح، بين الإستراتيجيات النظرية المقسمة والمقسمة والتي يقسم وفقها الأعضاء أنفسهم ويقسمون غيرهم.

إن التحدي الذي يعلنه أولئك الذين يعمدون إلى القول بارتباط الأقسام الاجتماعية واتصالها فيما بينها لنفي وجود الطبقات الاجتماعية هو من الشدة بحيث لا يقوى أمامه أولئك الذين يحاولون مجاوزته بالنظر إليه كبرهان سقيم وفخ نظري : فهو لا يترك أمامنا إلا خيارا واحدا هو أن نواجه فيما بين التقسيمات المتناقضة للطبقات الاجتماعية التي نلفيها في مؤلفات ماركس أو أن نطلب من الإحصاء حل هذه الأشكال المستجدة من المفارقات التي نطوي عليها الركام الذي تفرزه والقضاء عليه في ذات العملية التي يكشف فيها عن التمايزات ويسمح بقياس سعتها وذلك بالعمل على إلغاء الحدود بين الأغنياء والفقراء، بين البرجوازيين والبرجوازيين الصغار، بين سكان المدن وسكان الأرياف، بين صغار السن والشيوخ، بين سكان الضواحي وسكان العاصمة....

إن علماء الاجتماع الذين يقولون بالاستمرار والاتصال والذين هم، في معظمهم مجرد "منظرين" – بمعنى أن أقوالهم لا تستند إلى أي تمحيص تجريبي – عندما يتركون لخصومهم عناء الإثبات التجريبي، فإن الأمر سيكون في صالحهم على مختلف الأوجه. لذا يكفي إيراد ما يقوله باريتو Pareto الذي يعمدون إليه

عادة لتأكيد ما يذهبون إليه : "لا مكننا رسم خط كي نفصل فصلا مطلقا الأغنياء عن الفقراء، وأصحاب الرأسمال عن العمل، يدعي معظم الكتاب أن في استطاعتهم أن يستخلصوا من ذلك أن ليس بإمكاننا الحديث عن طبقة رأسمالية في المجتمع الغربي ولا التمييز بين البرجوازية والعمال" ويخلص باريتو إلى القول إن من يذهب هذا المذهب كمن ينكر وجود الشيوخ لأننا نجهل بالضبط في سن وأية لحظة تبدأ الشيخوخة.

أما رد العالم الاجتماعي إلى التمثل الذي يكون لدى البعض عن التمثيل الذي يلعبه الآخرون أمامه، أو بعبارة أدق إلى حصيلة التمثلات (الذهنية) التي تكون لدى كل عضو من الأعضاء الآخرين والتمثلات (الذهنية) التي تكون لديهم عنه الذي يمثله أمامهم.

إن رد العالم الاجتماعي إلى هذه التمثلات يعني تجاهل كون التقسيمات الذاتية قائمة على الوجود الموضوعي لتقسيم لا يرتد إلى التقسيم الجماعي الناتج عن ضم التقسيمات الفردية إلى بعضها البعض: فالنظام الاجتماعي لا يتشكل، انطلاقا من المستويات الفردية، على غرار الكيفية التي تتم وفقها نتائج الانتخابات أو يتحدد ثمن السوق.

إن الوضعية الطبقية التي عندها الإحصاء الاجتماعي من خلاف مختلف المؤشرات المادية عن الموقع داخل علاقات الإنتاج، أو بعبارة أدق، عن القدرة على الامتلاك المادي لوسائل الإنتاج المادي والثقافي (الرأسمال الاقتصادي) والقدرة على الامتلاك الرمزي لهذه الوسائل (الرأسمال الثقافي)، إن هذه الوضعية تتحكمن مباشرة أو بكيفية غير مباشرة وعبر المكانة التي يخولها لها التقسيم الاجتماعي، في التمثلات التي تكون لدى كل عضو من مكانته والاستراتيجيات التي ينهجها "في عرض نفسه" على حد تعبير غوفمان GOFFMAN، أي الكيفية التي يعرض بها المكانة التي يحتلها. يتضح هذا حتى في أبعد الحالات، سواء أتعلق الأمر بميدان الطبقات المتوسطة الأمريكية وتراتبها المتعدد والمتداخل كما

تقدمه النزعة التبادلية، أم بالحد الخالص الذي يمثله عالم المباهاة والتفاخر كما نجده عند بروست PROUST.

إن هذه العوالم الاجتماعية التي تعمل فيها استراتيجيات الادعاءات والتمايزات تعطينا صورة تقريبية عن عالم يكون فيه "النظام الاجتماعي" الناتج عن عملية خلق مستمر، كل لحظة، حصيلة مؤقتة مهددة لصراع طبقي يؤول إلى صراع ترتيب ومواجهة بين استراتيجيات رمزية ترمي إلى تغيير الوضع بإدخال تحول على تمثلات الوضع، كتلك التي ترمي، على سبيل المثال، كي تضمن الاعتراف بتلك التمثلات، أو على العكس من ذلك، الاعتراف المؤقت بها كي تضمن إنكارها (بنوع من لعبة شليميل SCHLEMIEL كما يصفها إ. بيرن E.BERNE).

إن هذا الفضاء حيث تؤول كل الفروق الاختلافات إلى فكر الاختلافات وحيث تكون المسافات التي "تتخذها" أو "تراعيها"، إن هذا الفضاء هو مجال استراتيجيات يقودها دوما هدف التشبه أو التميز :

فهي إما تلجأ إلى الكذب، عاملة على التشبه بالمجموعات العليا لأنها تشتهر بذلك، أو إلى المباهات محاولة التميز عن المجموعات المعروفة بأنها مجموعات دنيا. ذاك هو قانون تراكم "الامتياز" الدنيوي : دق أبواب أكثر المجموعات سموا وانغلاقا ونخبوية، وسدها في وجه عدد يتزايد من الناس.

إن امتياز صالون يتوقف على صرامة رواده إذ لا يمكن للمرء أن يقبل في ضيافته من لا يحظى باحترام كبير و"جودة" الأشخاص الذين يستقبلهم، تلك الجودة التي تقاس هي بدورها بــ "جودة" الصالونات التي تحتضنهم :

إن ارتفاع بورصة القيم وانخفاضها يقاسان بهذين المعيارين، بعالم من التلوينات الدقيقة، تتطلب عينا حريصة متنبهة في عالم يجد فيه كل شيء رتبته ومكانه، أي في عالم يكون فيه الكل مرتبا مصنفا كالأماكن التي ينبغي أن يرى فيها المرء على سبيل المثال والمطاعم الفاخرة والميادين الرياضية والمحاضرات والمعارض

والعروض التي ينبغي رؤيتها والمدن التي نبغي زيارتها والباليات الروسية والأماكن الخاصة الموقوفة على البعض من صالونات ونواد.

في هذا العالم تكون هناك ضرورة للتمكن من القدرة على التصنيف والترتيب ذلك التصنيف الذي يلجأ حكام الأناقة بسرعة إلى سحبه من الموضة بمجرد أن يصبح سهل الريادة للاستفادة الجيدة منه وضمان الترفع على المجموعات قليلة الاعتبار.

إن المجموعات البشرية في المجتمع والطبقات الاجتماعية على الخصوص، توجد مرتين وهذا قبل أن تتدخل نظرة العالم : فهي توجد في موضوعية المستوى الأول، تلك الموضوعية التي ترسمها تقسيمات الملكيات المادية، ثم إنها توجد في موضوعية المستوى الثاني، أي موضوعية التصنيفات والتمثلات المتناقضة كما تتولد عن الأعضاء الفاعلين بناء على معرفة عملية بالتقسيمات كما تتخلى في أساليب العيش.

هذان النمطان من الوجود ليسا مستقلين أحدهما عن الآخر، رغم أن التمثلات تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي بالنسبة للتقسيمات :

إن التمثل الذي يكون لدى الأفراد عن وضعهم في الفضاء الاجتماعي وكذا التمثيل بالمعنى المسرحي كما هو عند غوفمان الذي يمثلون به ذلك الوضع يتولد عن منظومة من الإدراك والتقدير التي تتولد بدورها عن وضعية معينة تحددها المكانة في توزيع الخيرات المادية الموضوعية والرأسمال الرمزي والتي تدخل في اعتبارها التمثلات التي تكون لدى الآخرين عن هذه الوضعية والتي يحدد تجمعها الرأسمال الرمزي الذي يسمى عادة امتيازا وسيادة وكذا المكانة في التوزيع وقد وجدت تعبيرها الرمزي في أسلوب العيش.

يرفض بورديو القول بأن الاختلافات والفروق توجد إلا لكون الأعضاء يعتقدون أو يوهمون بالاعتقاد بأنها توجد ولكن علينا أن نقبل في ذات الوقت أن الفروق الموضوعية التي توجد في الثروات المادية وما تدره من فوائد تتحول إلى امتيازات معترف بها في التمثلات التي تكون لدى الأعضاء.

كل اختلاف وفرق معترف به، مقبول كفرق مشروع، يعمل بفعل ذلك كرأسمال رمزي يخول فضل الامتياز.

لا وجود للرأسمال الرمزي، مع ما يخوله من فائدة وسلطة، لا وجود له إلا في العلاقة بين ملكيات متميزة ومميزة مثل الجسد واللغة وبين أفراد وجماعات تتوفر على إدراك وتقدير تمكنها من الاعتراف بتلك الملكيات والتعرف عليها، أي من جعلها أساليب معبرة وأشكال محولة من الأوضاع داخل علاقات القوة.

ليست هناك ممارسة ولا ملكية تحدد أسلوبا معينا للحياة لا تتخذ قيمة مميزة بدلالة مبدأ محدد اجتماعيا ولا تعبر، تبعا لذلك، عن وضعية اجتماعية :

دليل ذلك أن السمة المادية أو المعنوية ذاتها كالجسم الثخين أو النحيف على سبيل المثال والبشرة البيضاء أو السمراء واستهلاك الكحول أو الامتناع عنها، إن هذه السمة يمكن أن تتخذ قيما متعارضة عند المجتمع نفسه في فترات مختلفة أو في مجتمعات مختلفة. لكي تعمل ممارسة أو ملكية كرمز مميز، يلزم ويكفي أن تدخل في علاقة مع ممارسات أو ملكيات يمكن أن تحل محلها في عالم اجتماعي معين أي أن توضع في غالم رمزي من الممارسات والملكيات التي تترجم الفروق الاقتصادية إلى علامات مميزة.

إن الرمز المميز اعتباطي شأن العلامة اللغوية وهو لا يتلقى التحديدات التي تجعله يظهر ضروريا لوعي الأعضاء إلا من دخوله في علاقات التعارض التي تكون منظومة العلامات المميزة التي تحدد تشكيلة اجتماعية.

إن النظرية الموضوعية عن الطبقات الاجتماعية ترد حقيقة الترتيب الاجتماعي إلى الحقيقة الموضوعية لهذا الترتيب ناسية أن تدخل في التعريف الجامع للعالم المجتمعي الحقيقة الأولى التي قامت تلك النظرية ضدها والتي تؤول إلى الممارسة السياسية التي توجهها تلك الحقيقة الموضوعية في صورة عوائق ينبغي عليها أن تقهرها على الدوام كي تفرض رؤية عن العالم موافقة لتلك النظرية.

إن الموضوعية العلمية لا تكتمل إلا إذا هي صدقت كذلك على التجربة الذاتية التي تقوم ضدها والنظرية لا تكون ملائمة إلا إذا أدخلت في اعتبارها الحقيقة الجزئية التي تدركها المعرفة الموضوعية وكذا الحقيقة الخاصة بالتجربة الأولى من حيث هي تجاهل قد يطول وقد يقصر، قد يعم وقد لا يعم لتلك الحقيقة وبعبارة أخرى معرفة العالم المجتمعي ومعرفة الاعتراف لمعرفة مشوهة يكون موضوعا لها في التجربة الأولى.

إن تجاهل الأسس الفعلية للفروق وأسباب استمرارها هو ما يجعل العالم المجتمعي لا يدرك كميدان للصراع والمنافسة بين مجموعات تتعارض مصالحها وإنما "كنظام اجتماعي".

إن كل اعتراف هو تجاهل : وكل نوع من أنواع السلطة وليس السلطة التي تفرض نفسها من خلال الأوامر فحسب وإنما تلك التي تمارس من غير أن يكون علينا ممارستها، تلك التي ندعوها سلطة طبيعية والتي تسكن اللغة وأنماط السلوك وأسلوب العيش وحتى الأشياء كالصولجان والتاج واللوحات والأثاث العتيق والسيارات، كل نوع من أنواع السلطة يستند إلى شكل من أشكال الاتقاد الأصلي أكثر عمقا وتجذرا مما نفهمه عادة من هذا الاسم.

العالم اجتماعي هو عالم من النوايا المسبقة :

الأدوار والرهانات التي يقدمها والتراتبات والأفضليات التي يفترضها، أي مجموع الشروط الضمنية للانتماء، كل ما يبدو طبيعيا في أعين من يمارسونه وما يبدو ذا قيمة في أعين من يصبون إليه، كل هذا يستند، في نهاية الأمر، إلى التلاؤم المباشر بين بنيات العالم الاجتماعي ومقولات الإدراك التي تكون الدوكسا أو البروتودوكسا على حد تعبير هوسرل. إن إدراك العالم الاجتماعي كعالم طبيعي لا يحتاج إلى دليل والنزعة الموضوعية لتي ترد العلائق الاجتماعية إلى الحقيقة الموضوعية لعلائق القوى تنسى أن هذه الحقيقة يمكن أن تكبت وتنسى بفعل سوء

الطوية الجماعي والإدراك المفتن الذي يحولها إلى علاقات هيمنة مشروعة إلى سيادة و مجد.

إن كل رأسمال، مهما كانت الصورة التي يتخذها، يمارس عنفا رمزيا بمجرد أن يعترف به، أي أن يتجاهل في حقيقته كرأسمال ويفرض كسيادة تستدعي الاعتراف.

ليس الرأسمال الرمزي إلا طريقة أخرى للدلالة على ما أسماه ماكس فيبر الزعامة لو أن هذا العالم، الذي كان سجين منطق النماذج الواقعية والذي أدرك أكثر من غيره أن سوسيولوجيا الديانة فصل من فصول سوسيولوجيا السلطة، لو أنه لم يجعل من الزعامة شكلا خاصا من أشكال السلطة عوض أن يرى فيه بعدا من أبعاد كل سلطة، أي اسما آخر للمشروعية ونتيجة للاعتراف والتجاهل والاعتقاد وهي أشباه مترادفات "الذي يخول للأشخاص الذين يمارسون السلطة نوعا من المجد.

السلطة الرمزية :

إذا كانت "هجرة الأفكار" قلما تتم، كما يقول ماركس، دون أن تفقد تلك الأفكار من قيمتها، فذلك، لأنها تفصل الإنتاجات الثقافية عن منظومة الأطر المرجعية النظرية التي تحددت بالنسبة إليها، وعيا أو بدون وعي عن مجال الإنتاج الموسوم بأسماء بعينها ونزعات فكرية لا يساهم في تحديدها بقدر ما تسهم هي في تعيينه.

لذا فإن ظروف الهجرة تتطلب، بنوع من الحدة، إبراز الأطر المرجعية التي قد لا تتضح في الظروف العادية ولعل من نافلة القول التذكير بأن إعادة هذا المنتوج إلى موطنه الأصلي ينشأ عنه خطر شديد، إذ ربما يجعلنا نسقط في نوع من السذاجة والتبسيط، كما قد تتولد عنه مخاطر عظمى مادام يمكن أداة لبناء الموضوعية.

وبالرغم من ذلك، فلن يكون من غير المفيد، في مجال أصبح ينظر إلى السلطة فيه كما لو كانت شائعة ذائعة لا يخلو منها مكان، مثلما كان الاعتراف بها مرفوضا في الوقت الآخر، حتى حينما كانت تبهر الأعين، لن يكون من غير المفيد إذن التذكير بأن علينا أن نعرف كيف نكشف عن السلطة وبالضبط حيث تبدو أقل ظهورا وحين لا يؤبه بها مطلقا. أي حيث يعترف بها.

ولكن هذا لا يعني أن علينا أن نجعل منها "دائرة يحل مركزها في كل شيء دون أن يحل في شيء"، إذ أن هذه كيفية أخرى لإلغائها والقضاء عليها : ذلك أن السلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها ويمارسونها.

"المنظومات الرمزية(الفن والدين واللغة) من حيث هي بنيات تعطي للعالم بنيته:

ينظر التقليد الكنطي الجديد هومبلت – كاسيرر، أو كما هو في شكله الامريكي عند سابير ووف فيما يتعلق باللغة إلى مختلف العوالم الرمزية، من أسطورة ولغة وفن وعلم، كأدوات للمعرفة لبناء عالم الموضوعات وتركيبها، أي "كأشكال رمزية"، معترفا، كما يقول ماركس في أطروحته حول فيورباخ، "بالمظهر الفعال للمعرفة". لا يحيد بانوفسكي عن هذا المنحى وإن كان مرماه تاريخيا، فهو يفهم المنظور كشكل تاريخي دون أن يذهب، بالرغم من ذلك، إلى إعادة بناء الشروط الاجتماعية لإنتاجه.

أما دور كايم فهو يضع نفسه صراحة ضمن التقليد الكنطي ومع ذلك فبحكم أنه يسعى إلى إيجاد حل "وضعي" و"تجريبي" لمشاكل المعرفة، ليتفادى ثنائية القبلية والتجريبية، فإنه يضع أسس سوسيولوجيا الأشكال الرمزية (سيصرح كاسيرر بأنه يستعمل مفهوم الشكل الرمزي كمقابل لأشكال التصنيف.. ستكف أشكال التصنيف مع دوركايم عن أن تكون أشكال كلية ترنسندنتالية لتصبح كما هو الشأن عند بانوفسكي أشكالا اجتماعية أي أشكالا اعتباطية تتعلق فقط بمجموعة بعينها لكنها تشرط اجتماعيا.

يتحدد المعنى الموضوعي للعالم، في هذا التقليد المثالي، عن طريق إجماع الذوات التي تعطي للعالم بنيته : (Sensus = Consensus).

2-"المنظومات الرمزية" كبنيات تستدعي تحليلا بنيويا :

يشكل التحليل البنيوي الأداة المنهجية التي تسمح بتحقيق مطامح الكنطية الجديدة وذلك بإدراك المنطق النوعي الذي يتحكم في كل شكل من الأشكال الرمزية : يتبع التحليل البنيوي قراءة لا تحيل الأسطورة لغير ذاتها محققا بذلك أمنية شيلنغ وهو يسعى إلى إبراز البنية التي تتحكم في كل إنتاج رمزي. غير أن التقليد البنيوي، على عكس التقليد الكنطي الجديد، الذي كان يلح على الفعالية المنتجة الخلاقة للوعي، يفضل الإلحاح على التحليل البنيوي للبنيات. يتخلى هذا تجليا واضحا في الكيفية التي يتمثل بها سوسور اللغة ضمن هذا التقليد. فهو إذ ينظر إليها كنظام بنيوي، يعتبرها شرطا لفهم الكلام وواسطة ضرورية لتفسير العلاقة الثابتة التي تربط الصوت بالمعنى (و عندما يميز بانوفسكي بين الفنولوجيا والفنوتيك، فإن لا يحدد عن هذا التقليد).

لا يمكن المنظومات الرمزية، باعتبارها أدوات للمعرفة والتواصل، أن تمارس سلطة وتفرض البنيات لكونها تتحدد هي كذلك كبنيات.

إن السلطة الرمزية هي سلطة بناء الواقع وهي تسعى لإقامة نظام معرفي : فالمعنى المباشر للعالم (والعالم الاجتماعي على الخصوص) يفترض ما يدعوه دوركايم المحافظة المنطقية "مفهوما متجانسا عن الزمان والمكان والعدد والعلة، ذلك المفهوم الذي يسمح للعقول بأن تتفاهم فيما بينها".

يعود الفضل لدوركايم ولرادكلايف براون فيما بعد الذي يعتبر أن مرد التضامن اجتماعي الاشتراك في ذات المنظومة الرمزية لكونه أبرز الوظيفة الاجتماعية (بالمعنى البنيوي – الوظيفي) للرمزية. وهي وظيفة سياسية لا تقتصر على وظيفة التواصل التي يتحدث عنها البيويون، فالرموز هي أدوات التضامن الاجتماعيبلا منازع : ومن حيث هي أدوات معرفة وتواصل فهي تخول الإجماع

بصدد معنى العالم الاجتماعي، ذلك الإجماع الذي يساهم أساسا في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي. فالتضامن "المنطقي" شرط للتضامن الأخلاقي.

3-الإنتاجات الرمزية كأدوات هيمنة :

يعلي التقليد الماركسي من شأن الوظائف السياسية "المنظومات الرمزية" وذلك حسب بنيتها المنطقية ووظيفتها المعرفية (هذا بالرغم من أن أنجلز يتحدث فيما يخص القانون عن "التعبير عن النظام").

هذه الوظيفة التي لا علاقة لها بالبنيوية الوظيفية التي يقول بها دوركايم أو رادكلايف براون تمكن من تفسير الإنتاجات الرمزية بردها إلى مصالح الطبقة السائدة وفي مقابل الأسطورة،التي هي منتوج جماعي في حوزة الجماعة بكاملها، تخدم الأيديولوجيات المصالح الخاصة وتسعى إلى تقديمها كما لو كانت مصالح جماعية تشترك فيها الجماعة بكاملها. تعمل الثقافة السائدة على التكتل الفعلي لأفراد الطبقة السائدة لكونها تضمن التواصل المباشر بين جميع أعضائها وتميزهم عما عداهم من الطبقات وهي تساهم بهذا في خلق التكتل الوهمي لأفراد المجتمع في مجموعة وشل الوعي الخاطئ للطبقات المسودة وبالإضافة إلى ذلك فهي تعمل على تبرير النظام القائم وذلك بإقرار الفروق وإقامة المراتب وتبريرها.

تنتج الثقافة السائدة مفعولها الإيديولوجي بتغليف التقسيم وإخفائها تحت قناع وظيفة التواصل. فالثقافة الموحدة (وسيلة التواصل) هي ذاتها الثقافة الفاصلة المقسمة وأداة التمايز التي تبرر الفوارق بإرغامها مختلف الثقافات التي تعتبر ثقافات دنيا أن تتحدد بمدى ابتعادها عن الثقافة السائدة.

لا يكفي أن نذكر بأن علاقات التواصل هي دوما علاقات سلطة تتوقف شكلا ومضمونا، على السلطة المادية أو الرمزية التي تشكل رصيد الأعضاء أو المؤسسات الذين يدخلون في هذه العلاقات التي يمكنها، كما في الهبة أو البوتلاتش، أن تسمح بتوفير رصيد من السلطة الرمزية.

إن المنظومات الرمزية، بما هي أدوات تواصل ومعرفة تشكل بنيات تخضع العالم لبنيات، تؤدي وظيفتها السياسية من حيث هي أدوات لفرض السيادة

وإعطائها صفة المشروعية التي تساهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى العنف الرمزي، وذلك عندما تفد لنجدتها وتطعيم علاقات القوة والغلبة التي تؤسسها مساهمة بذلك في "مؤالفة المسودين" على حد تعبير فيبر.

تدخل مختلف الطبقات والفئات التي تتفرع عنها في صراع رمزي للعمل على فرض التصور عن العالم الاجتماعي الذي يكون أكثر ملاءمة لمصالحها، في حين أن مجال اتخاذ المواقف الإيديولوجية يقوم بإعادة إنتاج مجال الأوضاع الاجتماعية وإعطائه شكلا مغايرا وباستطاعتها أن تدخل في ذلك الصراع، إن مباشرتن من خلال النزاعات الرمزية التي تعرفها الحياة اليومية أو بالتفويض عبر الصراع الذي يناصبه المختصون في الإنتاج الرمزي والذين يقضون وقتهم بكامله في الإنتاج بعضهم لبعض والذي يدور حول احتكار العنف الرمزي المشروع وعن سلطة سن أدوات اعتباطية لمعرفة الواقع الاجتماعي والتعبير عنه، إلا أن اعتباطية هذه الأدوات تظل مجهولة.

يشكل مجال الإنتاج الرمزي عالما صغرا للصراع الذي يدور داخل مجال الإنتاج فإنهم يخدمون مصالح الجماعات الخارجة عن ذلك المجال. تشكل الطبقة السائدة مكان الصراع من أجل فرض مراتب مبادئ التراتب الاجتماعي :

فالفئات السائدة، التي ترتكز سلطتها على رأسمالها الاقتصادي، ترمي إلى فرض مشروعية سيادتها إما عن طريق إنتاجها الرمزي أو بفضل أولئك الذين يدافعون عن إيديولوجيا المحافظة والذين لا يخدمون مصالح الفئات السائدة إلا فضلا عن ذلك الدفاع ويهددون على الدوام بأن يجعلوا سلطة تحديد العالم الاجتماعي تلك السلطة التي توكل إليهم تعمل لصالحهم. أما الفئة المسودة من رجال دين ومثقفين وفنانين حسب العصور فهي تسعى دوما إلى أن تضع رأسمالها الخاص الذي يخول لها المكانة التي تحتلها في قمة مراتب مبادئ التراتب الاجتماعي.

المواقف الإيديولوجية التي يتخذها أصحاب السيادة هي استراتيجيات لإعادة الإنتاج تسعى داخل الطبقة وخارجها إلى تقوية الإيمان بمشروعية السيادة الطبقية.

المنظومات الإيديوليجية التي ينتجها المختصون بفضل ومن أجل احتكارهم للإنتاج الإيديولوجي المشروع وبما هي أدوات سيطرة تعطي للعالم بنيته لأنها تنتظم في بنيات، فإنها تعيد إنتاج بنية مجال الطبقات الاجتماعية في صور لا يؤبه لها وعن طريق التوافق بين مجمل الإنتاج الإيديولوجي ومجال الطبقات الاجتماعية

وتتباين "المنظومات الرمزية" أساسا حسبما إذا كانت من إنتاج الجماعة بكاملها وبالتالي ما إذا كانت الجماعة كلها تتملكها أو ما إذا كانت، على العكس من ذلك، من إنتاج ثلة من المتخصصين أو بكيفية أدق من إنتاج مجال إنتاج وتوزيع يتمتع باستقلال نسبي. مثلا، تاريخ تكون ثلة من المنتجين المختصين في شؤون الخطب ولشعائر الدينية وأعني عن تاريخ نمو تقسيم العمل الديني الذي يشكل بدوره بعدا من أبعاد نمو تقسيم العمل لاجتماعي وبالتالي التقسيم الطبقي والذي يؤدي من بين ما يؤدي إليه، إلى أن يسلب أولئك الذين ليسوا رجال دين أدوات الإنتاج الرمزي.

تدين الإيديولوجيات ببنيتها ووظائفها النوعية للشروط الاجتماعية لإنتاجها وتزيعها وتداولها وأعني للوظائف التي تؤديها أولا خدمة للمختصين الذين يتنافسون من أجل احتكار الكفاءات التي ينظر إليها بعين اعتبار سواء كانت دينية أو فنية أو غير ذلك ثم لغير المختصين فضلا عن ذلك. إن التذكير بأن الإيديولوجيا تتحدد دوما تحديدا مزدوجا وأنها لا تدين بأكثر خصائصها نوعية للمصالح الطبقية التي تعبر عنها فحسب بل للمصالح الخاصة لأولئك الذين ينتجونها وللمنطق النوعي الذي يتحكم في مجال الإنتاج الذي عادة ما ينقلب إلى إيديولوجيا "الإبداع" و"المبدعين)،

هذا التذكير هو الكفيل بأن ينقذنا من الاختزال التعسفي الذي يرد المنتوجات الإيديولوجية إلى المصالح الطبقية التي تخدمها وهذا الاختزال كثيرا ما يرد في النقد "الماركسي دون السقوط في الوهم المثالي الذي ينظر إلى المنتوجات

الإيديولوجية على أنها كليات تتمتع باكتفاء وخلق ذاتيين ويكفي فيها التحليل الخالص والتحليل الباطني وحده.

تحقق الوظيفة الإيديولوجية لمجال الإنتاج الإيديولوجي بكيفية تكاد تكون آلية بفعل التناظر الذي يوجد بين بنية مجال الإنتاج الإيديولوجي ومجال الصراع الطبقي. وهذا التناظر يجعل الصراعات الدائرة من أجل احتكار المجال المستقل تتمخض عن أشكال متسترة مقلوبة من الصراعات الاقتصادية والسياسية بين الطبقات :

في هذا التوافق بين بنية وأخرى تتحقق الوظيفة الإيديولوجية للخطاب السائد، ذلك الخطاب الذي يشكل واسطة، تنتظم في بنية وتفرض بنيات وتسعى إلى فرض النظام القائم على أنه نظام طبيعي وذلك بالترسيخ المقنع لنظم التصنيف ولبنيات الذهنية التي تلائم موضوعيا البنيات الاجتماعية وإن كون هذا التناظر لا يكون إلا بين منظومة وأخرى يحجب عن أعين المنتجين أنفسهم كما يحجب عن غيرهم أن منظومات التصنيف الباطنية تعيد بكيفية لا يؤبه لها التصنيفات السياسية وأن الصورة التي ينبني عليها كل حقل هي صيغة محولة وفق قوانين خاصة بالحقل للمبادئ الأساسية لتقسيم العمل.

مثال ذلك نظام الترتيب الجامعي الذي يسخر بكيفية لا يؤبه بها التقسيمات الموضوعية للبنية الاجتماعية وبالأخص تقسيم العمل– النظري والتطبيقي يحول خصائص اجتماعية إلى خصائص طبيعية يمثل التأثير الإيديولوجي هنا في فرض نظم التصنيف السياسية تحت قناع مشروعية التصانيف الفلسفية والدينية والقانونية . تدين المنظومات الرمزية بقوتها الذاتية لكون علاقات القوة التي تعبر عن نفسها لا تتجلى فيها إلا في شكل علاقات بين معاني .

إن السلطة الرمزية، من حيث هي قدرة على تكوين المعطى عن طريق العبارات اللفظية ومن حيث هي قدرة على الإبانة والإقناع وإقرار رؤية عن العال أو تحويلها ومن ثمة قدرة على تحويل التأثير في العالم وبالتالي تحويل العالم ذاته،

قدرة شبه سحرية تمكن من بلوغ ما يعادل ما تمكن منه القوة الطبيعية أو الاقتصادية بفضل قدرتها على التعبئة.

إن هذه السلطة لا تعمل عملها إلا إذا اعترف بها، أي إذا لم يؤبه بها كقوة اعتباطية وهذا يعني أن السلطة الرمزية لا تتجلى في لمنظومات الرمزية وإنما في كونها تتحدد بفضل علاقة معينة تربط من يمارس السلطة بمن يخضع لها،أي أنها تتحدد ببنية المجال التي يؤكد فيها الاعتقاد ويعاد إنتاجه.

إن ما يعطي للكلمات وكلمات السر، قوتها وما يجعلها قادرة على حفظ النظام أو خرقه هو الإيمان بمشروعية الكلمات ومن ينطق بها وهو إيمان ليس في إمكان الكلمات أن تنتجه وتولده.

السلطة الرمزية هي سلطة تابعة وشكل من أشكال السلطات الأخرى تخضع للتحويل وللتجاهل والقلب والتبرير ولا يكون في مقدورنا أن نتفادى الاختيار الضيق الذي يجعلنا نتبنى إما نموذج الطاقة فنصف العلاقات الاجتماعية كما لو كانت علاقات قوة وتغلب أو النموذج السيبرنطيقي الذي يجعل منها علاقات تواصل، إلا شريطة وصف قوانين التحول التي تتحكم في قلب مختلف أنواع الرأسمال وردها إلى رأسمال رمزي وعلى الخصوص في عملية الإخفاء والقلب التي تحقق تحولا جوهريا لعلاقات القوة والتغلب عاملة على تجاهل ما تنطوي عليه من عنف1، والى الاعتراف به في نفس الوقت، محولة إياها إلى سلطة رمزية قادرة على التأثير الفعلي دون بذل للطاقة.

إن القضاء على سلطة الترسيخ الرمزي التي تقوم على التجاهل وعدم الاعتراف يفترض وعيا بطابعها الاعتباطي والكشف عن الحقيقة الموضوعية والقضاء على الاعتقاد الراسخ وحين يعمل الخطاب المتنكر لهذا الاعتقاد على القضاء على البداهات الخادعة التي يبثها الخطاب المحافظ ويشل قوتها على التجميد والتحجر، يكون منطويا على سلطة رمزية وقوة على الخلخلة وهي قوة تمكن من إيقاظ القوة الكامنة عند الطبقات المسودة

الفصل الثامن:

السوق اللغوية:الكلام واللغة المشروعة

4- الملكة اللغوية في السوق اللغوية

5- مادا يعني الكلام

6- اللغة المشروعة

الملكة اللغوية والسوق اللغوية

في البداية بقدم بورديو عددا من المفاهيم والمبادئ تبدو جوهرية تتمثل في توضيح نموذج تمكن صياغته على النحو الآتي :

الملكة الغوية + سوق لغوية = تعبير لغوي بمعنى خطاب.

ومن هذه المعادلة يمضي في شرح مصطلحات بدءا بفكرة الملكة اللغوية. محدرا من الإتجاه الدي يحاول فرض فرض الطابع الأقنومي على المفاهيم .

ينبغي أخذ المفاهيم على محمل الجد والتحكم فيها وعلى الأخص جعلها تعمل تحت السيطرة وتحت الرقابة في البحث. وبهذه الطريقة تتحسن تدريجيا وليس بواسطة التحكم المنطقي الخالص الذي يحولها إلى حفريات.

إن مفهوما جديدا وهذه هي حالة مفهوم الملكة اللغوية يحطم كثيرا من المشاكل الزائفة ويجعل الكثير من المشاكل تنبثق ولكنها مشاكل حقيقية.

حينما يكون المفهوم جيد البناء وجيد التحكم فيه فهو يميل نحو الدفاع عن نفسه بنفسه ضد الإختزالات.

وتتميز االملكة اللغوية عن القدرة من النوع الذي يقول به تشومسكى، بواسطة حقيقة أنه نتاج شروط إجتماعية وحقيقة أنه ليس إنتاجا بسيطا للخطاب.

الملكة اللغوية إنتاج للخطاب المتكيف مع سوق أومع موقف ما أو بالأحرى المتكيف مع سوق أو حقل وفكرة الوضع قد أثيرت في وقت مبكر جدا.

يدكر بورديو على سبيل المثال برتيو PRIETO الذي أصر في مبادئ علم الروح (العقل) PRINCIPES DE NOOLOGIE على حقيقة أن كثيرا من أنواع السلوك اللغوية لا يمكن فهمها في استقلال عن إشارة ضمنية إلى الوضع .

لقد كان أساتذة الكلام يعرفون أنه لا يكفي تعليم الناس أن يتكلموا، بل ينبغي بالإضافة إلى ذلك تعليمهم أن يتكلموا في الموضوع الملائم في الوقت الملائم أو بعبارة أخرى إن فن الكلام، الكلام الجيد، صناعة تراكيب ومجازات من الكلمات

والفكر وحسن استعمال اللغة والسيطرة عليها ليس شيئا بدون استعمال هذا الفن في الموضوع الملائم في الوقت الملائم إن أصل كلمة KAIROS هو هدف التصويب، فعندما تتكلم ولديك مقصد فأنت تصيب الهدف، فلكي تصيب الهدف ولكي تصل الكلمات إلى قلب المقصد ولكي تكون ذات جدوى وتؤتي نتائجها فلا ينبغي فحسب قول الكلمات الصحيحة نحويا بل الكلمات المقبولة اجتماعيا.

وفي مقاله حول "اللغة الفرنسية" حاول بورديو أن أوضح أن فكرة دواعي القبول التي أعادت مدرسة تشومسكي إدخالها تبقى غير كافية تماما، لأنها تختزل الجدارة بالقبول في الجانب النحوي وفي الواقع إن دواعي القبول (الجدارة بالقبول) في تعريفها السوسيولوجي لا تنحصر فحسب في واقعة الكلام السليم بلغة ما، ففي بعض الأحوال إذا لزم الأمر على سبيل المثال اتخاذ مظهر الاسترخاء فإن لغة فرنسية شديدة التمسك بالصواب يمكن ألا تكون مقبولة.

فالجدارة بالقبول في تعريفها الكامل تفترض مطابقة الكلمات لا للقواعد الباطنة في اللغة وحدها بل أيضا لتلك القواعد التي يتم الإلمام بها حدسيا والتي هي باطنة في وضع ما، أو بالأحرى في سوق لغوية معينة .

فما هي هذه السوق اللغوية ؟

يقدم بورديو تعريفا مؤقتا، ويدخل عليه تعقيدات لاحقة : فهناك سوق لغوية في كل مرة ينتج منها شخص ما خطابا موجها نحو مستقبلين قادرين على تقييمه وتقديره وإعطائه ثمنا ولا يسمح المعرفة بالقدرة اللغوية وحدها بالتنبؤ بما سيكون عليه قيمة أداء لغوي في سوق ما.

االثمن الذي ستلقاه منتجات قدرة معينة في سوق معينة تعتمد على قوانين تكوين الثمن الخاصة بهذه السوق. وعلى سبيل المثال، ففي السوق المدرسية فإن صيغة الفعل الناقص المنصوب'IMPARFAIT DU SUBJONCTIF قد تلقى قيمة كبيرة من طرف الاساتدة على الأخص في صيغة الغائب المفرد.

ولكن ذلك الآن يدفع إلى الابتسام ولم يعد ممكنا استعماله أمام جمهور من الطلبة إلا بتقديم علامة لغوية شارحة للإشارة إلى أن المرء يستعمل تلك الصيغة وأنه كان يستطيع ألا يستعملها. بل إن الميل المتحكم فيه إلى أقل تصحيح عند المثقفين اليوم يمكن تفسيره بالخشية من المبالغة في التصحيح وهو بتأثيرات السوق.

إن السوق اللغوية هي موضوع شديد العيانية وشديد التجريد في آن معا. فمن الناحية العيانية، إنها وضع اجتماعي رسمي طقسي إلى هذه الدرجة أو تلك، مجموعة معين من المتحدثين يوجدون على هذه الدرجة أو تلك من التراتب الاجتماعي، بالإضافة إلى الكثير من الخصائص التي تدرك وتقدر على نحو دون مستوى الوعي وهي التي توجه الإنتاج اللغوي بطريقة غير واعية.

ومن ناحية التعريف المجرد، انها نوع من القوانين (المتغيرات) التي تحكم ثمن المنتجات اللغوية. والتذكير بأن هناك قوانين لتكوين الثمن هو التذكير بأن قيمة قدرة معينة تعتمد على السوق المعينة التي تعمل فيها تلك القدرة، أو بدقة أكبر على حالة العلاقات التي تتحد فيها القيمة المنسوبة إلى النتاج اللغوي للمنتجين المختلفين. ويؤدي ذلك إلى أن نحل محل فكرة القدرة فكرة الرأس المال اللغوي.

والكلام عن رأس المال اللغوي معناه أن هناك أرباحا لغوية، فإن أي فرد ولد في الأحياء الراقية وهذا هو الوضع الفعلي لمعظم الناس الذين يحكمون في فرنسا، بمجرد أن يفتح فمه يتلقى ربحا لغويا، ليس خياليا ولا وهميا لإن طبيعة لغته نفسها والتي يمكن تحليلها صوتيا تقول إنه مؤهل ومفوض للكلام بصرف النظر عما يقوله.

إن ما يقدمه اللغويون باعتباره الوظيفة المتميزة أي وظيفة الإتصال، يمكن ألا تتحقق على الإطلاق دون أن تكف وظيفتها الحقيقية الاجتماعية عن التحقق

لهذا السبب، فأوضاع علاقات القوى اللغوية هي الأوضاع التي يتحقق فيها الكلام دون اتصال.

ولهذا السبب فقد اهتم بورديو بنظام الطقوس.

هذه هي الحالات التي يوضع فيها متكلم قد خول قدرا ملائما من السلطة، حيث يكون تحت تصرفه على نحو واضح المؤسسة وقوانين السوق وكل الحيز الاجتماعي الذي يمكنه من أن يتكلم لكيلا يقول شيئا ويكون بذلك قد تكلم.

إن رأس المال اللغوي هو السلطة على آليات تكوين الأثمان اللغوية، سلطة جعل قوانين تكوين الأثمان اقتطاع فائض القيمة النوعية (القيمة الزائدة) تعمل من أجل ربحه.

إن كل فعل من أفعال تبادل التأثير (التفاعل)، كل إتصال لغوي حتى بين شخصين، بين زميلين بين صبي وصديقته الصغيرة، أي كل التفاعلات اللغوية هي أنواع من الأسواق الصغرى التي تظل دائما خاضعة لسيطرة البنى الكلية وكما توضح جيدا الصراعات القومية حيث تكون اللغة رهانا مهما .

توجد علاقة تبعية شديدة الوضوح بين آليات السيطرة السياسية واليات تكوين الأثمان اللغوية المميزة لوضع اجتماعي معين.

وعلى سبيل المثال فالصراعات بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالعربية التي تلاحظ في عدد من البلاد الناطقة بالعربية والتي احتلتها فرنسا لها بعد اقتصادي حسب بورديو أي بمعنى أنه من خلال الدفاع عن سوق لمنتجات لغوية مخصوصة يدافع حائزو قدرة معينة عن قيمتهم الخاصة كمنتجين لغويين.

وأمام الصراعات القومية يتأرجح التحليل بين النزعة الإقتصادية ونزعة صوفية وتسمح النظرية التي يقدمها بفهم أن الصراعات اللغوية تستطيع ألا تكون لها أسس اقتصادية واضحة ومع ذلك فهي تشتبك مع مصالح شديدة الحيوية، قد تكون أحيانا أكثر حيوية من المصالح الاقتصادية (بالمعنى المحدد).

ومنه فإن إعادة إدخال فكرة السوق هي بمثابة التذكير بتلك الحقيقة البسيطة وهي أن القدرة ليس لها من قيمة إلا طالما وجدت لها سوق وعلى هذا النحو فإن أولئك الذين يريدون اليوم الدفاع عن قيمتهم بوصفهم حائزي سوق للغة اللاتينية مضطرون للدفاع عن وجود سوق للاتينية، أي على وجه الخصوص لإعادة انتاج مستهلكين للغة اللاتينية بواسطة النظام التعليمي وليس من الممكن فهم نمط معين من النزعة المحافظة، قد تكون مرضية احيانا، في النظام التعليمي إلا انطلاقا من ذلك القانون البسيط، وهو أن قدرة دون سوق تصير بلا قيمة أو بدقة أكبر تكف عن أن تكون رأس مال لغوي لكي تصير قدرة بسيطة بمعناها عند اللغويين .

وهكذا فإن رأس مال ما لا يتحدد بوصفه كذلك، ولا يعمل بوصفة كذلك ويدر أرباحا إلا في سوق معينة.

ينبغي إضفاء مزيد من الدقة على فكرة السوق ومحاولة وصف العلاقات الموضوعية التي تضفى على هذه السوق بنيتها فما هي السوق؟

هناك منتجون أفراد يقدمون إنتاجهم ثم تتبادل أحكامهم التأثير فيما ويخرج من ذلك سعر للسوق.

والنظرية الليبرالية للسوق هي خاطئة أيضا بالنسبة للسوق اللغوية مثلما هي خاطئة بالنسبة لسوق السلع الاقتصادية : فكما أنه هناك في السوق الاقتصادية احتكارات وعلاقات قوى موضوعية تجعل كل المنتجين وكل المنتجات بعيدة عن التساوي في البداية كذلك الحال في السوق اللغوية، فثمة علاقات قوة ومن ثم فلسوق اللغوية قوانين تكوين للأثمان تفرض بطريقتها ألا يكون المنتجين اللغة والأقوال متساوين.

وهناك علاقات القوة اللغوية : إنها علاقات متعالية على الوضع أو الموقف، لا يمكن اختزالها إلى علاقات التفاعل التي يمكن الإمساك بها في الموقف. وترجع أهمية ذلك إلى أنه حينما يدور الكلام عن الوضع أو الموقف فإن المرء يعتقد أنه أدخل مجددا ما هو اجتماعي لأن الكلام يدور عن الوضع أو الموقف لأنه أعاد إدخال التفاعل.

الوصف التفاعلي للعلاقات التفاعل هذه ليست مثل إمبراطورية داخل إمبراطورية وإذ نسينا أن ما يحدث بين شخصين، بين سيد وخادمه أو بين زميلين أو بين زميل يتكلم الفرنسية وزميل يتكلم الألمانية، إذا نسينا أن هذه العلاقات بين شخصين هي دائما محكومة بالعلاقات الموضوعية بين اللغات المناظرة، أي بين المجموعات التي تتكلم هذه اللغات. وحينما يتكلم سويسري ناطق بالألمانية مع سويسري ناطق بالفرنسية فإن السويسرية الألمانية والسويسرية الفرنسية هما اللتان تتبادلان الكلام.

هناك أشكال من السيطرة النوعية ليست قابلة إطلاقا للإختزال إلى السيطرة الإقتصادية بالمعنى الدقيق، لا في نمط فعلها ولا في الأرباح التي تدرها وإحدى نتائج هذا التحليل تتعلق بموقف البحث نفسه بوصفه تفاعلا أو تبادلا للتأثير يصير أحد المواقع التي تتحقق فيها علاقات القوى اللغوية والثقافية، أي السيطرة الثقافية. ولا يمكن الحلم بموقف بحث "نقي" متخلص من كل أثر للسيطرة (كما يعتقد أحيانا بعض دارسي علم اجتماع اللغة والخشية من أخذ بعض النتائج باعتبارها وقائع، حقيقية، يجعلنا لا ندخل في التحليل إلا"معطيات، تحليل حلها إلا إذا أدخلنا تغيرا يتعين اعتباره عاملا لهذين المتغيرين وهو طبيعة السوق التي تطرح فيها المنتجات اللغوية أو الثقافية.

إن نظرية المعرفة العلمية تؤخذ غالبا باعتبارها نوعا من ما بعد الخطاب أو الخطاب الشارح متجاوزا أو متعاليا على الممارسة العلمية ولكن تأمل في الممارسة أو انعكاس لها يغير بالفعل من تلك الممارسة، ويؤدي إلى تفادي أخطاء، من قبيل عدم قياس فاعلية عامل مع نسيان عامل العوامل أي الموقف أو الوضع الذي تقاس فيه العوامل جميعا.

كان سوسير يقول تنبغي معرفة ما يقوم به اللغوي ونظرية المعرفة هي واقع العمل من أجل معرفة ما يقوم به اللغويون

فما يسجله أو يثبته البحث الثقافي أو اللغوي ليس تجليا مباشرا للقدرة، بل تتاجا مركبا للعلاقة بين قدرة وسوق، فهو نتاج لا يوجد خارج تلك العلاقة، إنه قدرة في موقف، قدرة بالنسبة إلى سوق معينة ، أي من حيث العلاقة به هو نفسه.

الطريقة الوحيدة للتحكم في العلاقة هي جعلها تتغاير مع دخول التغيرات على مواقف وأوضاع السوق، بدلا من إعطاء امتياز لأحد مواقف السوق من بين المواقف الأخرى مثلما فعل لابوف LABOV على سبيل المثال مع الخطاب زنجي من هارلم بالنسبة لزنوج آخرين من نفس الحي ورؤية حقيقة اللغة.

اللغة الشعبية الدارجة الحقة، في الخطاب الذي يجري إنتاجه في هذه الشروط.إن تأثيرات السيطرة، وعلاقات القوة الموضوعية للسوق اللغوية تمارس فعلها في كل المواقف اللغوية: ففي العلاقة مع باريسي، "يفقد" البورجوازي الإقليمي بلغته ذات اللهجة المحلية "وسائله"، وينهار رأس ماله. وقد اكتشف لابوف أن ما يحيط به تحت اسم اللغة الدارجة (الشعبية) في البحث، هو اللغة الشعبية على نحو ما تظهر في موقف أو وضع للسوق تسيطر علي القيم السائدة، أي لغة محاصرة معطلة. أما المواقف التي تمارس بها علاقات السيطرة اللغوية تأثيرها، أي المواقف الرسمية فهي مواقف تكون فيها العلاقات الفعلية التي أقيمت وتكون التفاعلات مطابقة تماما للقوانين الموضوعية للسوق. ونعود للفلاح البيارني الذي يقول لا أعرف كيف أتكلم، هو يعني أنه لا يعرف كيف يتكلم كما ينبغي الكلام في المواقف الرسمية.

فإذا صرت مسؤولا ستكون شخصية رسمية ملزمة بالقيام بخطب رسمية ومن ثم خاضعة للقوانين الرسمية للغة تعيينات إجتماعية للموقف الذي أنتجت فيه أي تحليل السوق اللغوية التي أقيمت فيها الوقائع التي يجري تحليلها.

إن اللغة الشعبية الحقة هي اللغة الصريحة الحرة. إنها ليست أكثر حقيقة من الأخرى : حقيقة القدرة الشعبية ماثلة أيضا في واقعة أنها حينما تواجه بسوق رسمية فإنها تصبح معطلة، أما حينما تكون على أرضها داخل علاقة عائلية ذات ألفة مع أهلها فإنها تكون كلاما حرا صريحا.

ومن المهم أن نعرف أن الكلام الصريح الحر موجود ولكن بوصفه جزيرة متنوعة من قوانين السوق ولكنها جزيرة تحصل عليها بالتوافق مع إعفاء ما هناك مؤشرات لقول إننا سنؤسس ممارسة استثنائية يمكن السماح بها لأنفسنا.

تمارس آثار السوق فعلها دائما شاملة الطبقات الشعبية التي يفترض دائما أنها تحاكم بمقتضى قوانين السوق وهذا ما يسمى الشرعية والكلام عن الشرعية اللغوية، معناه التذكير بأنه ما من أحد يفترض أنه يتجاهل القانون اللغوي.

تمارس قوانين السوق تأثيرا رقابيا شديد الأهمية على أولئك الذين لا يستطيعون الكلام إلا في موقف الكلام الحر الصريح (أي بأن يجعلوا من المفهوم أن من الواجب في لحظة ما التخلي عن المقتضيات العادية) والذين يكونون محكوما عليهم بالصمت في المواقف الرسمية حيث تجري رهانات سياسية واجتماعية وثقافية مهمة (إن سوق الزواج هي على سبيل المثال سوق يلعب فيها رأس المال اللغوي دورا محددا.

تأثير السوق التي تفرض الرقابة على الكلام الصريح الحر هو حالة خاصة من تأثير للرقابة أكثر عموما يؤدي إلى إشاعة لطف التعبير :

فكل مجال متخصص يمثل المجال الفلسفي والمجال الديني والمجال الأدبي... الخ له قوانينه الخاصة ويميل إلى إحكام الرقابة على الأقوال التي لا تتوافق مع هذه القوانين وتبدوا هنا العلاقات باللغة شديدة من العلاقات بالجسم.

اللغة المشروعة

الشروط الاجتماعية للخطاب الطقوسي

إن من يهمل مسألة استعمالات اللغة وبالتالي مشكلة الشروط الاجتماعية لاستخدام الكلمات لابد وأن يظل طرحه لمسألة سلطة الكلمات ونفوذها طرحا ساذجا.

إذا سلمنا بأن اللغة يمكن أن تدرس كموضوع مستقل كما هو الحال عند سوسور وان اللسانيات تقتصر على اللغة في باطنها وتلك التي تهتم بما هو خارج عنها بين علم اللسان ولم نتحدث عن الاستعمالات الاجتماعية للغة فإننا نحصر أنفسنا في البحث عن قوة الكلمات وسلطتها داخل الكلمات ذاتها أي بالضبط حيث لا وجود لتلك القوة ولا مكان لتلك السلطة .

أن قدرة العبارات على التبليغ لا يمكن أن توجد في الكلمات ذاتها.

تلك الكلمات التي لا تعمل إلا على الإشارة إلى تلك القدرة أو تمثيلها على الأصح ولا يحدث إلا نادرا أي في عمليات التجريب المجردة المصطنعةوأن تتحول المبادلات الرمزية إلى مجرد علاقات تواصل ويؤول فحوى التواصل بكامله إلى المضمون الإخباري للتبليغ.

ليست سلطة الكلام إلا السلطة الموكلة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة الذي لا تكون كلماته أي فحوى خطابه وطريقة تكلمه في ذات الوقت على أكثر تقدير، إلا شهادة، من بين شهادات أخرى، على ضمان التفويض الذي وكل للمتكلم.

مصدر الخطأ يكمن قي الاعتقاد أن الخطاب ذاته، أي في المادة اللغوية للكلام علة تفسير فعالية الكلام.

إن من يحاول أن يفهم، علة فعالية لغة المؤسسة والمنطق المتحكم فيها، ينسى أن اللغة تستمد سلطتها من الخارج.

اللغة تمثل هذه السلطة وتظهرها وترمز إليها ولها قواعد بلاغية معينة تميز جميع أشكال الخطاب الذي يصدر عن المؤسسة، أي الكلام الرسمي الذي ينطق به من سمح له أن يكون ناطقا بلسان، ومن عهدت إليه السلطة التكلم علانية،

والسلطة تتحدد بحدود التفويض الذي تسنده المؤسسة. إن الخصائص اللغوية التي تميز أسلوب رحال الدين والأساتذة وجميع المؤسسات عموما، كالتقليد

والتكرار وترديد القوالب الجاهزة وانعدام المعاناة، تتأتى من المقام الذي يحتله، في ميدان تنافس وسباق، هؤلاء الذين أسندت إليهم بعض السلطات.

فلا يكفي أن يقال، مثلما يتم في بعض الأحيان تجنبا للصعوبات التي لابد وأن تلاقيها كل دراسة تقتصر على النظرة الباطنية للغة، بأن استعمال متكلم معين للغة في مقام بعينه، مع ما يتميز به من أسلوب وبلاغة وسمات خصية طبعها به المجتمع، هو الذي يضفي على الكلمات "معاني ثانوية" ترتبط بسياق خاص فيزود الخطاب بفائض المعنى الذي يمكنه من قوة التبليغ".

في الواقع، إن استعمال اللغة، و أي فحوى الخطاب وكيفية إلقائه في ذات الوقت، توقفان على المقام الاجتماعي للمتكلم، ذلك المقام الذي يتحكم في مدى نصيبه من استعمال لغة المؤسسة واستخدام الكلام الرسمي المشروع.

إن التمكن من أدوات التعبير المشروعة وحده، أي المساهمة في سلطة المؤسسة، لا الخطاب ذاته، هو الذي يجعلنا نميز بين غش المضللين الذين يغفلون القول التفضيلي فيقدمونه على أنه مجرد وصف تقريري وبين التضليل المروع الذي نجده عند أولئك الذين يقومون بنفس التغليف، لكن بترخيص من مؤسسة واعتمادا على سلطتها..

إذا كانت هناك عبارات لا تمكن مهمتها، كما يلاحظ في وصف مقام أو إقرار واقع" و إنما أيضا في القيام بعمل فذلك لأن قوة الكلمات وسلطتها لا تمكنان قي كونها تستخدم لمجرد التعبير الشخصي عند من لا يكون إلا "حاملا" لها ناطقا بلسانها.

من عهد إليه أن يكون ناطقا باللسان لا يستطيع أن يؤثر عن طريق الكلمات على أعضاء آخرين، ويؤثر عبر أعمالهم، على الأشياء ذاتها، إلا لأن كلامه يكثف الرأسمال الرمزي الذي وفرته الجماعة التي فوضت إليه الكلام ووكلت إليه أمر النطق باسمها وأسندت إليه السلطة.

لا تحيد قوانين الفيزياء الاجتماعية، إلا ظاهريا عن قوانين الطبيعة والقدرة التي تنطوي عليها بعض كلمات الأمر للحصول على عمل دون بذل أي جهد وعمل

وهذا ما يطمح إليه التأثير السحري بالضبط تجد أساسها في الرأسمال الذي ورثه الجماعة بفضل عملها، والذي يتوقف استثماره على مجموعة من الشروط التي ينبغي أن تتوفر كي يعمل الإنجاز الكلامي عمله.

ان المنطق اللغوي الذي يتحكم في مختلف الأشكال الاستدلالية والبلاغية والأسلوبية، بسبب الفعالية الرمزية لتلك الأشكال لابد وأن يبوء بالفشل ما دام لا يقيم علاقة بين خصائص الخطاب وصفات من يلقيه وسمات المؤسسة التي تسند إليه أمر الإلقاء.

تكمن خصوصية الخطاب السلطوي (كدرس الأستاذ، وخطبة الواعظ..) في أنه لا يكتفي بأن يكون مفهوما مستوعبا بل إنه يمكن ألا يكون كذلك في بعض الأحوال دون أن يفقد نفوذه. وهو لا يفعل فعله الخاص إلا شريطة أن يعترف به كخطاب نفوذ وسلطان. وهذا الاعتراف الذي قد يصاحب بالهم أولا لا يتم بيسر وسهولة إلا بشروط خاصة و هيالتي تحدد الاستعمال المشروع :

الخطاب ينبغي أن يصدر عن الشخص الذي سمح له بان يلقيه أي عن هذا الذي عرف، واعترف له، بأنه أهل لأن ينتج فئة معينة من الخطابات وأنه كفء جدير بذلك كرجل الدين ولأستاذ والشاعر كما أنه ينبغي أن يلقى في مقام مشروع أي أمام الملتقى الشرعي.

أخيرا ينبغي للخطاب أن يتخذ الصورة الشرعية القانونية أي أن يخضع لقواعد النحو والصرف.وهكذا فإن ما يمكن أن نطلق عليه شروطا طقوسية أي مجموع القواعد التي تتحكم في كل المظهر العمومي للسلطة ومراسيم الاحتفالات وللقواعد التي تضبط الأعمال والتنظيم الرسمي للطقوس، لا تشكل إلا شرط واحدا أكثر تجليا من بين مجموعة من الشروط التي أهمها هي تلك التي تهيئ لتسليم سلطة تعطي الخطاب المشروع قوته وتؤمن بنفوذه.

الفصل التاسع:الهيمنة الذكورية

هيمنة الطبيعة

الفروقات الجنسية بناء اجتماعي

ادخال الهيمنة فب الدات

العنف الزمري

الدكورة كشهامة

الكائن الانثوي ككائت ملاحظ

الزؤية الانثوية للزؤية الدكورية

على ماذا ترتكز الهيمنة الذكورية ؟

أهي معطى طبيعي أم بناء تاريخي ؟

ذلك هو السؤال الذي يطرحه بورديو[22] وهو سؤال أساسي يمكن أن نضيف إليه سؤالا آخر يتيح المقاربة بالسلطة التفكير في الشأن الأنثوي ؟

وعلبنا في البداية ان نتجاوز ما هو معتاد لدى بورديو من تعقيد في الأسلوب ومرجعية ذاتية لنبيـــــن الغني المثير لنص يرمي إلى القيام "بسوسيولوجيا تحليلية حقيقية عبر الإثنولوجيا".

في هذه المحاولة لإزاحة الستار عن لا شعور تاريخي، ينعطف بيير بورديو إلى المجتمع القبائلي (مجتمع الحس العملي) حيث يقرأ نفسه، بمعنى ما، وبكيفية سافرة لاستكشاف نظيره في المجتمعات العصرية الغربية، انطلاقا من تأملات ودراسات حالات مختارة من ضفتي الأطلسي و سنعرض محاوره الكبرى التي تقع في الخط المستقيم لأعمال بيار بورديو.

1 هيمنة الطبيعة:

تقدم الهيمنة الذكورية التي تشيع ممارستها على الصعيد الكوني باعتبارها ظاهرة طبيعية، متجدرة في اختلاف الجنسين غير أن هذه الهيمنة في الواقع هي نتيجة بناء تاريخي مقام انطلاقا من "عناصر متماثلة" على هذا النحو نفكر هيمنة مقولات الفكر التي تعتبر هي نفسها نتيجة لهذه الهيمنة. على قاعدة الاختلاف الفيزيولوجي الملاحظ، يقوم نظام من التصنيف كوني يقابل في جميع المجالات بين الأعلى والأسفل، الحار والبارد، النشيط والسلبي، الوالج والمولج، الثمين والزهيد، القوي والضعيف.

لبناء هذه "الأركيولوجيا الموضوعية في لا شعورنا"، يستعمل بيير بورديو التقليد القبائلي الذي يعلن عن نفسه باعتباره "رؤية فالونرجسية" "كسمولوجيا أندرو مركزية" مشتركة بين سائر مجتمعات البحر الأبيض المتوسط ومن ثمة يبين

---

[22] **P.B. LA DOMINATION MASCULINE**

بالتفاصيل كيف يسقط مجتمع ما تشغيل رأسماله الرمزي (الشرف) على التقابل مذكر / مؤنث، بإعادة تفسير معطيات الحياة الاجتماعية والرمزية بحسب هذا التقابل الأولي.

إن سلطة الرجال وشرفهم هما اللذان يقتضيان أن تعمل النساء في المنزل، وهذا يجد تبريره في كونهن ضعيفات غير قادرات على التصدي للأعداء : "أكيد أن الطبيعة صنعت أشياء... وتكمن أصالة بورديو هنا في إظهار "أولية قلب العلاقة بين الأسباب والنتائج" التي أدت إلى تقديم هذا البناء الاجتماعي كأنه طبيعي : إن الاختلافات المرئية بين الجسدين الذكوري والأنثوي تغذو هي ضامن القيم المصنوعة غير القابل للنقاش. تصور رهيب ما دام "يشرعن علاقة الهيمنة بتسجيلها في طبيعة بيولوجية هي بدورها بناء اجتماعي مطبع".

في الواقع، يعتبر هذا "العمل في بناء الشأن الرمزي تشغيلا لعنف رمزي وكأنه عنف طبيعي، ذلك أنه يطبع النساء والرجال على حد سواء. هكذا تجد النساء أنفسهم تحكين وضعيتهن استنادا إلى معايير الإيديولوجيا الذكورية المهينة، محرضات على انتقاصهن الذاتي وبالاستناد إلى إحصائيات، يظهر بيير بورديو إلى أي حد تتبنى أغلبيتهن، وكيفية لا شعورية كليا، وجهة نظر الرجال في تقييم تصرفاتهن وهكذا، فإن النساء الفرنسيات يصرحن برفضهن الاقتران برجل يصغرهن سنا، مبديات بذلك تعلقهن بعلامات التربية الجنسية.

في السابق، كانت نظرية ليفي ستروس القائلة بأن "الرجال يتبادلون النساء" تثير صراخ النسويين... بيد أن مقصد الأنثروبولوجي الشهير لم يكن سيئا، إذ يرى أن الرجال بتبادلهم النساء إنما يتبادلون علامات تبادل استمد صبغة الضرورة من المؤسسة البشرية المرتكزة على منع غشيان المحارم. لقد نظر مؤلفون آخرون إلى هذا التبادل من زاوية أكثر مادية، لدرجة بدا معها من الصحيح أن النمذجة العامة مذكر / مؤنث نسخة هي ذات موضوع، فاعل / أداة. بين هاتين النظريتين لتبادل النساء باعتبارهن علامات أو بضائع، يدخل بيير بورديو "الغموض الأساسي الذي يطبع اقتصاديا الممتلكات الرمزية" : هذا الاقتصاد "يحول أدوات

خامة مختلفة، في مقدمتها النساء... إلى هبات (وليس إلى منتوجات)، أي إلى علامات للتواصل غير قابلة للفصل عن أدوات الهيمنة. في هذا التبادل لألعاب المصارعة ، والمتمثل في الإستراتيجيات الذكورية الساعية إلى نيل الشرف والسلطة، تكون النساء موادا للتبادل يطلب منها الرجال بالخصوص ألا تظهر بمظهر الفاعل (حتى عندما يبدو هذا واضحا بما فيه الكفاية، كما في الحبل...).

ومثل هذا العطش للهيمنة لا يدعو بالتأكيد إلى الإحساس بالراحة الكاملة. إذا كان ثمة عنف يمارس على النساء، فهناك أيضا عنف بين الرجال. "الامتياز الذكوري هو أيضا فخ ويجد مقابله في التوتر والنزاع الدائم المدفوع أحيانا إلى العبث"، الذي يفرضه على كل رجل "واجب لإثبات رجولته في كل مناسبة". الرجولة موقع محفوف بالمخاطر : في اليمين يجب مواجهة الرجال، وفي الشمال يجب الارتياب من النساء "القويات بسائر أسلحة الضعف" بالسحر وهذا ما لا شك فيه، لكن خصوصا بالمخاوف التي تثيرها استبهامات لم يثرها عمل بورديو.

القسم الثاني، الدي يحمل عنوان "سوابق الثوابت الخفية"، يعيد بورديو تناول مختلف العمليات التي بها يمكن لهذه الرؤية الذكورية أن تنخرط في لا شعور فردي وجماعي عبر ترويض الأجساد : الذكورة باعتبارها نبلا، ترسيخ الكائن الأنثوي باعتباره مدركا من قبل الرجل. أعاد تناول ذلك مستدعيا الروائية فرجينيا وولف لولوج "رؤية أنثوية للرؤية الذكورية".

أما القسم الثالث، فيدرس عوامل الديمومة وعوامل التحول. إعادة إنتاج القيم الذكورية تدوم في تعدد الأوضاع التاريخية بدعم من المؤسسات التربوية : العائلة بالتأكيد، والدولة، والكنيسة، ثم مؤسسات أخرى : الحقول الواسعة المفتوحة في وجه الكفاحات النسوية.

ولا يمكننا إلا أن نؤيد صلابة بنائه العقلاني الذي يتجاوز مجرد THE RACE THEORY وهو ما يؤاخذ بيير بيرديو به الغير، لا يمكننا إلا أن نشاطر انشغاله، عبر سوسيولوجيته التحليلية، بالبرهنة على خطاطات شديدة النسبية بقدر ما هي قمعية جدا. ومع ذلك، يبقى سؤال يحول بيننا والاقتناع كليا بهذا البناء كما ويمنعنا

من الانخراط فيه كليا : هل عالج هذا الكتاب السؤال في العمق ؟ هل تتيح أطروحته للمرأة أن تجد مكانتها؟ ما هو هذا اللاشعور الذي يكشف لنا بيير بورديو عن ستاره؟

إذا اتبعنا خط التحليل الذي اختاره بورديو، فأي منظور يمنح نفسه للنساء؟ هل سيتمكن من المشاركة على قدم المساومة في السابق على السلطة الذي هو قدر البشرية؟ إذا ما تعرض هذا البناء الاجتماعي للتقليص، فهل ستكون المرأة رجلا؟

في هذا المستوى بالضبط ندرك فجأة أن سياق الهيمنة والسلطة هو رؤية ذكورية لاختلاف الجنسين : إنها تطبع هذا (الرجل الأكثر "نبلا"، لكن الآخر (الأنثى) ما هو ؟ هل الأنوثة انعدام رجولة؟ أكيد أن بوريدو عندما يعرف هذه الرجولة – بتبني أطروحات فرويد وعدد كبير من المحللين النفسانيين الذكور اليوم – بأنها حرمان من القضيب PHALLUS، فإنه يسد الطريق أمام الطبيعة الفعلية للشأن الأنثوي، وكأنه وقع، بانقلاب عجيب للأشياء، في فخ الإيديولوجيا التي يشجعها. في هذه الحالة، قد يخامرنا الشك في الأثر التحريري الذي يمكن أن تجنيه النساء من سوسيولوجيته.

أحد الأجوبة عن الأسئلة السابقة تقدمه لنا المحللة النفسانية موريل دجيريبي. في رد فعل ضد تحليلات فرويد الجزئية، تدحض فرانسواز دولطو التقابل بين الرجل "الذي يملكه (القضيب) والمرأة التي لا تملكه. وتقوم بذلك ليس استنادا إلى معايير نظرية، ولكن بإنصات للإناث من مرضاها. والأساس في دحضها تمثل REPRÉSENTATION الجنس لدى الطفل ولدى الطفلة. فمقابل قضيب الطفل، ليس للطفلة "لا شيئ"، وإنما لها "ثقب وبرعم" : هانحن تخلصنا من البديل "ملكية/عدم ملكية". أكثر من ذلك، فهي تميز بين قضيب نابذ (قضيب الطفل و قضيب جابذ (ما تود البنت الحصول عليه). "عكس ما كان يعتقد فرويد. فإن القضيب تم تجاوزه بسرعة . ففي جميع حالات الصحة الوجدانية، لا نقاش في شعور الاعتزاز الذي يساور البنات لكونهن يمتلكن فرجا شكله التناسلي "ثقب وبرعم". لدى كل من الجنسين، هناك دينامية تكاملية، لكنها واقعية.

لا يكف المحللون النفسانيون عن ترديد أن اختلاف الجنسين تعليم إعدادي للاختلاف. هذا الوعي بالاختلاف، ومن ثم بالحد، هو ما يتيح الانفلات من وهم القوة المطلقة، ومن جنون السلطة. وهذا المحتوى الإيجابي للاشعور الأنثوي لا يستطيع أن يتفتح إلا في تكامله – لا في تقليصه و لو بذريعة المساواة التي تميز الجنس الآخر. هناك بالتأكيد استيهام ذكوري لـــ "حكي الأصول" بتخطي النساء"، استيهام لأخذ مكانتهم في الإنجاب، كما يشير إلى ذلك بيير بورديو، من أجل وضع حد نهائي لـــ "مجيئ الواحد من اثنين"، حتى داخل أسطورة فرنكشتاين الحديثة. لكن، رغم جميع "البلاغات" فإن المرأة تستمد من الإنجاب اطمئنانا يظل الرجل محروما منه "لأن المرأة تكون دائما موقنة من أمومتها فهي لا ترى ضرورة في منح اسمها للطفل وذلك بخلاف الرجل الذي لا يمكنه معرفة أبوه إلا عن طريق كلام أمه. لكي تكون المرأة امرأة، فهي ليست في حاجة لأن تقوم لها الآخرون باستمرار : إنك امرأة" وهو ما يبين جيدا إمكانية تحقيق تطور يمكن أن يكون شيئا آخر غير بارانويا السلطة الراسخة في الرؤية الذكورية للجنس.

لا يمكن أن يتحقق تحرير المرأة في العمق إلا داخل الاعتراف بتكامل الجنسين فيما بينهما.

2 الفروقات الجنسية بناء إجتماعي

يركز بورديو على التحليل الأنتوغرافي الذي يهدف إلى كشف "فئات الوفاق"، أو أشكال التصنيف" التي بواسطتها نبني العالم، أو الصور اللاواعية للإدراك والتقدير المدخلة في ذواتنا، أو البنى التاريخية للنظام الذكوري أو اللاوعي الذكوري الطابع INCONSCIENT ANDROCENTRIQUE.

يرى بورديو أن التعارض بين الذكوري والأنثوي كالتعارضات المتماثلة المتجانسة المسجلة في الأجسام كتعارضات طبيعية عن طريق صور التفكير. كرس النظام الأسطوري الطقوسي النظام القائم من خلال مبادئ التقسيم التي يقترحها.

ويبدو التقسم الجنسي كأمر طبيعي بديهي شرعي موجود في الأشياء في كل العالم الإجتماعي وفي الأجسام في استعدادات الفاعلين. هذا التوافق بين البنى الموضوعية والبنى المعرفية يأخذ صفة "الموقف الطبيعي" أو "التجربة الطبيعية"، دون أي إعتبار للشروط الإجتماعية.

وينتقد بورديو المفكرين الذين يرجعون التأثيرات الرمزية للإقرار الشرعي بالتعارضات القائمة إلى عوامل واعية قصدية. ويكمن الخطأ في عدم إدراك الميكانيزمات العميقة للتوافق بين البنى المعرفية والإجتماعية ويعتبر الهيمنة الذكورية في أساس النظام الإجتماعي : التقسيم الجنسي للعمل وقد يظهر الفرق البيولوجي بين الأجناس، أي بين الأجسام الذكورية والأنثوية وبشكل خاص الفرق التشريحي بين الأعضاء الجنسية، كتبرير طبيعي للفرق الاجتماعي بين الأنواع، وبالتحديد، للتقسيم الجنسي للعمل ومبدأ الرؤية الإجتماعية هو الذي يبني الفرق التشريحي ويعطيه صفة الطبيعة أو البديهية ويخلق علاقات الهيمنة وتبقى الرجولة في وجهها الأخلاقي غير منفصلة، ضمنا على الأقل عن الرجولة الفيزيائية . وتفرض الهيمنة أفعالا من الاعتراف والخضوع ويحتكر الذكر الاستخدامات الشائعة للجسم. والتفكير في فعل الجماع هو وفق مبدأ الأولية الذكورية وتختلف تصورات الجنسين عن الفعل الجنسي أو علاقة الحب لا لأن وجهات نظرهما مختلفة وإنما لأن الفعل الجنسي نفسه يدرك من قبل الرجال كشكل للهيمنة والتملك .

وتبدو المواقع والأدوار في العلاقات الجنسية غير منفصلة عن الشروط الأجتماعية التي تحدد إمكانياتها و معناها.

3 إدخال الهيمنة في الذات:

يشدد بورديو على أهمية ميكانيزم البناء الإجتماعي للفروقات بين الجسم الأنثوي والجسم الذكوري والصفة الطبيعية لهذا البناء ويعتبر أن الطبيعة البيولوجية هي نفسها بناء اجتماعي مطبع والتكييف هو في أساس هذا البناء حيث الفروقات التي ينشئها التعسف الثقافي تتجسد في استعدادات متمايزة وفق مبدأ التقسيم المهيمن وتدرك العالم وفق هذا المبدأ والنظام الذكوري مسجل في الأشياء وفي الأجسام من خلال إيعازات مبطنة على علاقة بروتين تقسيم العمل أو بطقوس جماعية أو خاصة وتتوافق عمليات التمايز بين الرجل والمرأة مع التعريف الاجتماعي للتمايز الجنسي وتلقن التربية الطرق المتوجب اتباعها وهكذا، فهذا التلقي لخضوع الجسم يجد تواطؤا من المرأة وهو ملاحظ بقوة اجتماعيا، وإدخال الأنوثة في الذات هو غير منفصل عن إدخال التمايز والتقسيمات المكونة من الإستعدادات المختلفة.

4 **العنف الرمزي** :

يتمثل العنف الرمزي في الاعتراف بالهيمنة الذكورية أو في الصور الملازمة لأنظمة الاستعدادات والتصورات التي تعمل كصور للإدراك والتفكير والفعل لكل أفراد المجتمع وكصور استعلائية وتأخذ الممارسات صفة الطبيعية وتطبق النساء صورا للتفكير هي نتيجة لعلاقات السلطة المأخوذة بها وفعل الاعتراف أو الاعتقاد هو الذي يسبب العنف الرمزي الذي يخضعن له وينتقد بورديو الأبحاث الأنتولوجية التي تنعش خرافة "الأنثوي الأبدي" (أو الذكوري) أو تؤبد بنية الهيمنة ليست غير تاريخية، بل هي نتيجة عمل دائم من الانتاج يشارك فيه فاعلون مفردون و مؤسسات مثل العائلة والكنيسة والمدرسة والدولة ويتحدث عن العلاقات العادية لـــ "التراتبية" الجنسية. ويعتبر الزواج كتسوية أو مطابقة لا واعية مع الإحتمالات المرتبطة ببنية موضوعية من الهيمنة

وبهذا وخلافا للتصور الرومنطيقي، فالحب غير مجرد من عقلنة محددة والمنطق الغريب للهيمنة الذكورية وللخضوع الأنثوي الذي هو عفوي لا يفهم إلا إذا أدركنا

التأثيرات الدائمة التي يمارسها النظام الاجتماعي في النساء (و الرجال)، أي الاستعدادات المتوافقة عفويا مع هذا النظام وتأخذ غالبا أفعال الاعتراف التي بواسطتها تحصل الهيمنة بشكل انفعالات جسدية أو عواطف ومشاعر وانفعالات مؤلمة أحيانا ولا يمكن تعليق هذه العواطف أو الانتصار عليها لمجرد وعيها أو إدراكها، لأن تأثيرات وشروط فعاليتها مسجلة دائما في الأجسام بشكل استعدادات (علاقة القرابة، الحب البنوي، الأخوي، إلخ).

ولا تمارس السلطة الرمزية بدون مساهمة أو تواطؤ من أولئك الذين يتلقونها، هذه المساهمة هي فوق الوعي والإرادة ونتيجة شروط اجتماعية.

ليس بوسع النساء إلا أن يظهرن كــ "أشياء" أو كرموز تؤدي وظيفتها إلى استدامة وزيادة رأس المال الرمزي الذي هو بحورة الرجال وفي البناء الإجتماعي لعلاقات القرابة والزواج الذي يحدد للنساء موقعهن الاجتماعي كأشياء للتبادل معرفة وفق المصالح الذكورية وتؤدي إلى إعادة الإنتاج الرمزي للرجال، يمكن تفسير الأولوية المعطاة للذكورية في التصنيفات الثقافية وهكذا يصبح الجسم الأنثوي "شيئا" يثمن وللتبادل بين الرجال بدرجة النقد أو المال.

يقطع بورديو مع النظرة الرمزية (ليفي ستروس) التي تدرك تبادل النساء كعلاقة اتصال، مخيفة بذلك البعد السياسي لعقد الزواج، أو ميزان القوى الرزي الذي يهدف إلى الحفاظ على القوة الرمزية أو زيادتها ومع التفسير "الإقتصادي" المحض، الماركسي أو غيره، الذي يطابق منطق نمط الإنتاج الرمزي مع منطق نمط الإنتاج الاقتصادي،

ويناول تبادل النساء كتبادل سلع وهاتان النظريتان تتفلتان من الغموض الأساسي لاقتصاد المنافع الرمزي الذي يتجه نحو زيادة رأس المال الرمزي (الشرف) ويسجل التقسيم الجنسي في النشاطات الإنتاجية وفي الاستعدادات الخاصة بالنساء والرجال . ويطاول هذا التقسيم كل ميادين الممارسة فيبلغ النشاطات الدينية أو الطقوسية.

5 الذكورية كشهامة :

تفرض الاستعدادات المرتبطة بالهيمنة أو الخضوع أو التصور المهيمن بطريقة مختلفة في التفكير والتصرف والاعتقاد لدى الجنسين. فالرجل يوجه أفكاره وممارساته بطريقة القوة والضرورة المنطقية ولكي تتميز بالشهامةويبحث الرجل عن المجد والفرادة وما على المرأة إلا إنكار الذات لخضوع والسكوت، فضيلتها في العذرية والإخلاص وشرفها بأن يدافع عنها.

الإستدعاء أو الاستحصار عند بورديو لا يتناول جواهر الأشياء، كما عند أفلاطون ولا سيرورة فردية وإنما النسالة وتطور تكون الكائن الفرد المتعلقين بلاوعي جماعي وفردي في الوقت نفسه، أو الأثر الدخل في الذات لتاريخ جماعي وتاريخ فردي يفرض على كل الفاعلين، رجالا أو نساءا، نظام افتراضاته الملزمة.

ليس غريبا مقارنة الذكورية بالشهامة إذا أدركنا التمايز في الأشياء التي يقوم بها أو لا يقوم بها الرجل أو المرأة، أو "التوقعات الجماعية" أو "الإمكانات الموضوعية" المختلفة كثيرا حسب الجنس، مثل التناقض بين العالم العام الذكوري والعالم الخاص الأنثوي والتناقض في المراكز ومحتليها، في تقسيم العمل، وفي المظاهر المرئية بين الجنسين والتصرفات اليومية.

ويكفي الرجال أن يغتصبوا الأدوار الانثوية المشهورة لتأخذ صفة نبيلة ويسمح التعريف المهيمن للمارسة باختلاف التوجه نحو الاختصاصات بين المرأة الرجل ولكي تنجح المرأة في احتلال مركز ما، عليها أن لا تملك فقط ما هو مطلوب منها صراحة وإنما مجموعة خصائص أدخلها "المحتلون" الذكريون في المركز.

6 الكائن الانثوي ككائن ملاحظ :

يتحدث بورديو عن الطريقة الخاصة في الحفاظ على الجسم وتقديمه للآخرين وبالتالي عن الفروقات بين الجسم المختبر أو الجسم الشرعي و"الجسم المسلوب". ويرجع ذلك إلى صور أساسية ناتجة عن إدخال البنى الإجتماعية في الذات والهيمنة الذكورية التي تكون النساء كأشياء رمزية، حيث الكائن هو كائن ملاحظ، تضعهن في حالة دائمة من عدم الأمان الجسدي ومن التبعية الرمزية وما يسمى بـــ "الأنوثة" ليس غالبا سوى شكل من مراعاة التوقعات الذكورية الحقيقية أو المفترضة. وبالتالي، فعلاقة الخضوع أو التبعية إزاء الآخرين (و ليس فقط الرجال) تصبح عنصرا مكونا لشخصيتهن وتحت نظرة الآخرين يصبحن محكومات باختبار المسافة بين الجسم الحقيقي والجسم المثالي وهن بحاجة لنظرة الآخرين لكي يتكون وتقع المرأة في التناقض إذا ما تمكنت من الوصول إلى مركز في السلطة بين أن تتصرف مثل الرجل أو مثل النساء.

7 الرؤية الأنثوية للرؤية الذكورية :

التمايز في التكييف يهيئ الرجال لأن يحبوا ألعاب السلطة والنساء لأن يحببن الرجال الذين يلعبونها .

للهروب كليا من نظرية الجواهر، لا يكفي الأمر بان ننفي الثوابت واللامتغيرات (الهيمنة الذكورية) التي تشكل بدون شك جزءا من الحقيقة التاريخية وإنما بأن نبني تاريخ العمل التاريخي للاتاريخية.

يجب إعطاء موقع لتاريخ الفاعلين والمؤسسات التي تسهم بشكل دائم في تأمين هذه الثوابت : الكنيسة، الدولة، المدرسة، إلخ. ويجب أيضا ألا نرضى بأن نسجل مثلا استبعاد النساء من هذه المهنة أو تلك، من هذه السلسلة أو تلك، ومن هذا النظام أو ذاك.

يمكن ذكر العوامل التالية : الحركة النسائية التي ظهرت في مناسبات عديدة كأمر يجب الدفاع عنه أو تبريره، والوصول إلى التعليم الثانوي والعالي وإلى العمل المأجو. ونلاحظ زيادة كبيرة للنساء في المهن الفكرية أو الإدارية، وفي مختلف

أشكال مبيع الخدمات الرمزي، وكذلك في المهن القريبة من التعريف التقليدي للنشاطات الأنثوية ونجدهن في المهن الوسيطة ولكن يبقين مستبعدات عن مراكز السلطة والمسؤولية وتحديدا في الاقتصاد والأعمال المصرفية والسياسة وتخفي التغيرات المرئية للظروف ثوابت في الأوضاع النسبية : المساواة في حظوظ الوصول ونسب التمثيل يجب ألا تخفي عدم المساواة في التوزيع بين مختلف الأنظمة المدرسية والمهن الممكنة، في الشعب العلمية والمدارس المهنية وبعض الاختصاصات ودراسة الحقوق .

ويزداد عدد النساء بين المثبتين والذين يقومون بعمل مؤقت والوظائف التي تتوافق معهن هي امتداد للوظيفة المنزلية ويحتكر الرجل الأمور التقنية والآلات ويعتبر ثبات الاستعدادات التي تنتج عن الهيمنة الذكورية أحد العوامل الأكثر أهمية في الثبات لبنية التقسيم الجنسي للعمل.

في المجتمعات قليلة التمايز،تعتبر النساء كوسائل للتبادل تسمح للرجال بتراكم رأس المال الإجتماعي ورأس المال الرمزي من خلال الزواج بإقامة تحالفات واسعة تقريبا وذات اعتبار ويعمل العالم الاجتماعي كسوق للمنافع الرمزية تحكمها الرؤية الذكورية ويشرح الوضع الخاص للنساء في سوق المنافع الرمزية الأساسي في الاستعدادات الأنثوية.

يؤدي الفهم العلائقي لعلاقة الهيمنة بين الرجال والنساء إلى تفكيك الصورة الاستيهامية لـــ "الأنثوي الأبدي" بإظهار ثبات بنية هذه العلاقة، أو الميكانيزمات والأفعال التاريخية التي تنزع الهيمنة الذكورية من مظهرها اللاتاريخي وكما يعتبر فوكو، نجهد بإرجاع اللاوعي الذي يحكم العلاقات الجنسية، ليس فقط إلى تطور الكائن الفرد الذي يحمله، وإنما إلى تطور السلالة، أو إلى التاريخ الطويل للاوعي الذكوري الطابع وليست صور اللاوعي الجنسي عبارة عن "بدائل بنائية أساسية" كما يعتقد كوفمان، إنما بنى تاريخية تحصل خلال التلقي.

لا بد بالنسبة إلى هذا الموضوع من الحديث عن الحب. هل هو استثناء في قانون الهيمنة الذكورية، أو تعليق للعنف الرمزي، أو الشكل الأعلى له، لأنه أكثر دقة وإخفاء له؟ وعندما يأخذ الحب شكل المصير الاجتماعي، يصبح هيمنة مقبولة ومجهولة بحد ذاتها ومعترفا بها عمليا في العاطفة السعيدة أو غير السعيدة وهناك حالات تذكر بتأثيره الخفي في الرجال، وهذه القوى الخفية (سحر الارتباطات العاطفية) تنسيهم الوجبات المتعلقة بكرامتهم الاجتماعية وتقلب علاقة الهيمنة. وتستبعد عن الحب القوة وميزان القوى الذي يبدو مكونا لتجربة الحب القوة وميزان القوى الذي يبدو مكونا لتجربة الحب أو الصداقة. وفي هذا النوع من الهدنة العجائبية حيث الهيمنة تبدو مهيمنا عليها أو ملغاة ولعنف الذكوري هادئا، نتخلص من الرؤية الذكورية للعلاقات بين الجنسين ومن استراتيجيات الهيمنة. ومن خلال عمل متجدد، ننزع "الجزيرة الساحرة" للحب من الحساب والعنف والمصلحة وهذا العالم المغلق الاستكفائي هو مكان لسلسلة متتابعة من العجائب : عالم اللاعنف الذي يجعل أمرا ممكنا إقامة علاقات ترتكز على التبادلية الكاملة التي تجيز التخلي عن "الحب الصافي" أو فن الحب، كما بالنسبة إلى الفن للفن وهو نادر الحدوث وعن "الحب المجنون" الذي هو، جوهريا، سريع العطب لأنه مرتبط دائما بمتطلبات متزايدة وبحالات "جنون" (أليس لأننا ثمرنا كثيرا فيه، فــ "زواج الحب" يبدو غالبا معرضا للطلاق؟)، وهو مهدد بالأزمة التي تثيرها عودة الحساب الأناني والتأثير البسيط للنمطية ويرتكز على تعليق الصراع من أجل السلطة الرمزية التي يثيرها البحث عن الاعتراف والمحاولة التبادلية للهيمنة، الاعتراف المتبادل الذي يؤدي إلى تجاوز تناوب الأنانية وحب الغير والتمايز بين الذات والموضوع حتى حالة الذوبان والوحدة : اعتراف متبادل، تبادل في تبريرات الوجود، شواهد متبادلة من الثقة، ولكثير من علامات التبادل الكامل الذي يعطي للدائرة التي يحتجز فيها الزوجان المتحابان وحدة اجتماعية أولية لا تجزأ وتمتلك قوة رمزية استكفائية وتعتبر كبديل دنيوي عن الخالق.

الفصل العاشر:بين التحمس والرفض

إشعاع لا جدال فيه

شهره بورديو أصبحت عالمية

أعمال بورديو لها تأثير منهجي وأمبريقي

تطوير التفكير حول تقنية سبر الآراء

إنتقادات مختلقة

تصور المجتمع تجاوزه الزمن

صراع الطبقات مفهوم متقادم ومهجور

الجماعات الاجتماعية لهل هوية خاصة ولا تعرف أو تحدد فقط

في مقابلتها بالطبقات المهيمنة

تحليل التغير الاجتماعي مغيب من علم اجتماع بوردبو

نظرية إعادة الإنتاج أهملت دور الفاعلين

في علم الاجتماع وهو فرع غير متجانس ، لا يمكن لمقاربة بيار بورديو أن تترك الإنسان غير مبال،خاصة وأنه كما يعتقد بورديو ذاته إن تحليل العلم يمكن أن يتم انطلاقا من مفهوم الحقل ،لأن الصراعات بين الأعوان الموجودين فيه تترتب عنه بالضرورة،ومذاك، سيعد البعض منهم إستراتيجيات للمحافظة على الوضع القائم أو للتوسع،والبعض الآخر للتمرد.

هكذا يتجلى حاليا حقل علم الاجتماع، إذ لدينا من جهة: مناصرو البنيوية النشوئية والذين يضمنون مع مؤسسها انتشارا واسعا ومن جهة أخري :المدافعون عن المقاربات البديلة ، وغالبا ما يتم ذلك بصفة منغلقة وبدون تبادل علمي حقيقي ،وتكمن المفارقة في أنه عندما تشترك المقاربتان في نفس الموضوع التفكيري تظهر الصراعات العلمية بأكثر حدة ولكن كذلك بإنتاجية أكثر.

1- إشعاع لا جدال فيه:

أصبحت مقاربة بيار بورديو مدرسة ،وما يؤكد ذلك تعدد الدراسات المستوحاة من مقاربة بورديو في مختلف حقول علم الاجتماع.إن شبكة قراءة الظواهر الاجتماعية المقترحة من طرفه عرفت تطورا منتظما ويشهد على ذلك العديد من المؤلفات والمقالات التي تستلهم منها،وخصوبتها تفسر من خلال تعدد المسالك التي فتحها في كتاباته الخاصة.

لكن بيار بورديو يرفض أن يعتبر"شيخا" لمدرسة مؤسسة مكونة من مريدين طيعين لأن النقد الذي يوجهه لكافة الأسلاك ولأيديولوجيتها بجعل مثل هذا التصور غير ملائم لموقعه في الحقل السوسيولوجي،وفي المقابل ،فإن العديد من الباحثين

يوظفون البعض من مفاهيمه أما لتعميق خصوبتها الاستكشافية وإما لنقلها إلى مواضيع سوسيولوجية أخرى، ولكن طريقتهم لا تعني بالضرورة أنهم يشاطرون كل تصوره النظري.

إن التقدمات العلمية البارزة التي كان وراءها بيار بورديو يمكن ملاحظتها في العديد من الميادين المختلفة.

يمكن في البداية ذكر الأعمال الخاصة بعلم اجتماع الثقافة في المعنى العام للمصطلح وذلك بإدخال علم اجتماع المؤسسات المدرسية والجامعية وعلم اجتماع الفن الذي تطور في الستينيات حول إشكالية بورديو وذلك من خلال نظرية الشرعية الثقافية القائمة على فرضية التشابه والتماثل بين تدرج الأعمال الفنية وتدرج الجمهور،ونظرية الحقل الفني والملكة التي ترجع تحليل الإستراتيجيات إلى منظومة "المواقع"وإلى"استعدادات"الأعوان والتي تحاول أن تحدد خصوصيات "المهنة"،والدراسات حول منطق استقلالية الحقل الثقافي وحول اختراع "المثقف"،كل هذه الأعمال تدور حول نفس التساؤل.

كما أن التساؤلات انتقلت نحو الممارسات الفنية المسماة "دونية"في مقابل الممارسات العالمة،وبالموازاة مع ذلك وفي نفس الحقل تعددت الدراسات حول الاستهلاك الثقافي،والعديد منها يجمع بين علم اجتماع الثقافة وعلم اجتماع الفن وعلم اجتماع التربية في علم اجتماع واسع للخيرات الرمزية،وكل هذه المحاولات صدرت في مجلة "أعمال البحث في العلوم الاجتماعية"

كما يمكن كذلك الحديث عن الإسهامات في علم اجتماع الجماعات الاجتماعية،ودراسة لوك بولتنسكي الصادرة في 1982 حول الإطارات تبين كيف تم فرض مفهوم الإطار ،بمعنى كيف تم إنتاج مقولة إدراكية من خلال عمل قائم على التمثل والتقنين.إن كتاب بولتنسكي BOLTANSKY يوضح الطريقة التي تتم بها صراعات التصنيف لأن كل جماعة تحاول أن تفرض تمثلها الذاتي كتمثل موضوعي.

وتبرز عمال ماريسكا MARESCAحول الفلاحين صعوبات إيجاد استراتيجيات لأعادة الإنتاج في جماعة اجتماعية تشهد تقهقرا كبيرا والاستعدادات المرتبطة بها من خلال استبطان هذا المسار،وكذلك أبحاث بينسون PINCON حول أساليب حياة البرجوازية الكبيرة والنبالة الجديدة.

كما شهد علم اجتماع فئات العمر هو الآخر تطورا،وأجريت دراسات حول الشيخوخة ، نذكر منها دراسة لونوارLENOIR حول"اختراع العمر الثالث"حيث يتساءل الكاتب حول العمليات التي بواسطتها ينتج المجتمع الشيخوخة وأساليب وجودها،وقد بينت الأعمال الأولى أن ظهور العمر الثالث كمقولة خصوصية كان متصلا بتحولات أسلوب إعادة الإنتاج الاجتماعي لدى بعض الطبقات،ويرى لونوار أن في خلق "المعاشات" تعبيرا عن تحول في علاقات القوة بين الأجيال لأن أسلوب إعادة الإنتاج المسيطر غير قائم على توريث التراث العائلي،فالمعاشات المقدمة من قبل نظام الحماية الاجتماعية عوض آليات التضامن التقليدية،ويعبر ظهور دور التقاعد والعجزة عن استقلالية الأبناء تجاه أوليائهم المتقاعدين ،علاوة على كونه إنتاج لطلب اجتماعي يتعلق بالتكفل،وبالموازاة مع ذلك فإن تحديد هذه الجماعة الخصوصية سمح بتطور مجموعة من المهن توفر مناصب شغل للطبقات المتوسطة الجديدة الحاملة للشهادات.

ويمكن تعداد الحقول التي اخترقتها أعمال بورديو ولكن هذه النماذج تكفي في اعتقادنا لبيين أهمية نظريته السوسيولوجية وتوظيفاتها المختلفة.

ولا بد من الإشارة إلى أن أعمال بورديو تجاوزت إطار علم الاجتماع وقد تجلت في العلوم الإنسانية الأخرى.لقد بينا إشكالية استقلالية الحقل الاقتصادي،وبصفة عامة فإن العديد من الدراسات والبحوث بينت أن الاقتصادي لا يمكن أن يتصور بصفة مجردة دون أخذ بعين الاعتبار العلاقات الاجتماعية.

إن الاقتصاد هو كذلك صياغة اجتماعية حيث نستطيع أن نبين أن مفاهيمه التي تريد أن تكون معولمة ما هي في الواقع إلا إنتاجات للتاريخ الاجتماعي،وإن كاتبا

مثل "صالي"SALAIS واصل هذه التساؤلات بدراسة ظهور مفهوم البطالة من سنة 1890 إلى 1980.

إن أعمال بيار بورديو ساهمت أيضا فبي تقريب علم الاجتماع والتاريخ،وذلك من خلال حث علماء الاجتماع على إدماج التاريخ في مقارباتهم،لأن المقابلة بين الماضي والحاضر تعتبر تعسفية،وبالفعل وكما يدل على ذلك أحد عناوين مقالاته"الميت يتحكم في الحي"،فإن التاريخ يسجل في أجسامنا في شكل ملكة.

يوجد التاريخ في شكلين:في الحالة المموضعة (في الآلات،والمعالم،والكتب والنظريات) وفي الحالة المدمجة (في شكل استعدادات).وهنا يلتحق بيار بورديو بالمؤرخ فرانسوا برودال BRAUDELالذي يرى بأننا نعيش 95 % من حياتنا في الماضي.

يدعو بورديو المؤرخين إلى تبني منظور بنائي،وكتاب نواربيل NOIRIEL"العمال في المجتمع الفرنسي في القرنين ال19وال20"يعتبر نموذجا على خصوبة هذه المقاربة،وقد بين الكاتب كيف أن العمال تجندوا في الثلاثينيات وكانوا وراء ميلاد وظهور تمثيل جماعتهم في شكل طبقة.

أما في العلوم السياسية ،فإن البحوث التي أجريت حول محددات المشاركة والمواقف ولآراء السياسية إعتمدت على تمثل الفضاء الاجتماعي المقترح من طرف بيار بورديو،لأن التعارض السياسي يمين /يسار لا يمكن حصره في تعارض بين أغنياء وفقراء.

يجب أن لا نأخذ فقط بعين الاعتبار حجم الرأسمال المكتسب ولكن كذلك بنيته لملاحظة المنطق السياسي الخاص بكل شريحة طبقية،لأن هناك فوارق بين الخاص والعام،والعامل المؤجر والحر،والرأسمال الثقافي والرأسمال الاقتصادي،وهكذا،فإننا نلاحظ أن التصويت على اليسار محتمل جدا لدى الفئات الشعبية المؤجرة المرتبطة بالوظيف العمومي وبالقطاع العام بمعنى عند مجموعة غير متجانسة يلتقي فيها العمال والمعلمون والمهن الفكرية والموظفون.أما

التصويت على اليمين وعلى العكس من ذلك فهو يرتبط بامتلاك رأسمال مرتفع ولكن يغلب عليه الطابع الاقتصادي:إطارات القطاع الخاص والمهن الحرة ورؤساء المؤسسات ولكن كذلك التجار والحرفيون والمزارعون.

وقد استعمل بعض الكتاب إسهامات بورديو للتساؤل حول المشرعة مثل لاغرويLAGROYE،أو قاموا بوصف منطق اشتغال الأحزاب السياسية باستعمال مفهوم الحقل وهو حال أوفرليOFFERLE.

وفي كتاب موسوم "المعنى المخفي"قام غاكسيGAXIE بنقد أحد مكونات الأيديولوجيا التي توجد في صلب الأنظمة الديمقراطية ألا وهي المشاركة الفعلية للمواطنين في تعيين ممثليهم والقائمة على اختيار عقلاني،ولاحظ أنه يوجد تفاوتا كبيرا في ممارسة المشاركة ابتداء من العمل النضالي إلى الحضور إلى الاجتماعات السياسية...وقد كشفت الدراسة أن نسبة هامة من المواطنين لها ممارسة غير منتظمة،بل ليس لها أي إلتزام منتظم عدا المشاركة في الانتخابات،وعلاوة على ذلك فإن محددات الاختيار السياسي ترجع لمتغيرات اجتماعية-اقتصادية(العمر،الجنس،الموقع الاجتماعي،المستوى الدراسي،الحالة العائلية)أكثر منها لإختيارات سياسية معقولة ومدروسة.وهكذا،فإن شرائح من المجتمع، وكما هو الحال في السابق،تظل بعيدة عن النشاطات السياسية.

صحيح ،أن الإقصاء لا يتم على أساس الثروة الفردية وإنما على أساس الكفاءة السياسية والتي تعرف على أنها قدرة الأفراد على التمييز بين الفوارق الموجودة في مواقف رجال السياسة ومترشحي مختلف الاتجاهات،إلا أن الأفراد المنتمين إلى الجماعات المهيمن عليها اجتماعيا يبدو أنهم غير مؤهلين،بمعنى لا يتحكمون في قواعد اللعبة الخاصة بالحقل السياسي ولاسيما الكلام التجريدي والمتخصص الذي يسمح بفهم الرهانات،وعدم المشاركة هو كذلك دليل على المصادرة.

- شهرة بورديو أصبحت عالمية

يهدف بورديو إلى ترقية التبادل بين علماء الاجتماع على المستوى الدولي.

على المستوى الأوروبي، نستتشف هذه الإرادة من خلال نشر مجلة "ليبار"وهي مجلة أوروبية تهتم بالكتب ويديرها بورديو والتي تصدر في فرنسا كملحق لمجلة "أعمال البحث في العلوم الاجتماعية".

"تصدر مجلة "ليبارLIBER في العديد من الدول الأوروبية وهي ليست عبارة عن قراءات ببليوغرافية فحسب وإنما تقوم بمواجهة مختلف آراء علماء الاجتماع من جنسيات مختلفة حول موضوع سوسيولوجي خصوصي (مثل: المثقفون،المهاجرون) أو تقوم بتقديم بحوث والتعريف بعلماء اجتماع من بلد معين.وهذه التبادلات تتم كذلك من خلال العديد من المحاضرات المقدمة في أنحاء عديدة من العالم من الولايات المتحدة إلى اليابان،كما أن ملتقيات بيار بورديو في المدرسة العليا للدراسات في العلوم الاجتماعية يتابعها العديد من الطلبة من كل القارات.

2-أعمال بورديو لها تأثير أمبيريقي ومنهجي

كانت لأعماله في علم اجتماع التربية تأثيرات على أسلوب اشتغال المنظومة التربوية.

يعتبر الكشف عن عدم المساواة في الفرص المدرسية لمختلف الفئات الاجتماعية مكسبا غير قابل للنقاش ولا جدال فيه في علم الاجتماع.كما أن أعماله الأصيلة في علم اجتماع المدرسة التي بدأها في السنوات الستين كانت لها ردود فعل عند المختصين بالبيداغوجيا ورجال السياسة المكلفين بتسيير القطاع التربوي.

في بداية الأمر، أبدى الفاعلين في المنظومة التربوية نوعا من عدم الاكتراث ،لأن إثارة مسألة العوائق الاجتماعية -الثقافية كانت ذريعة لعدم القيام بأي شيء خاصة وأن هؤلاء الفاعلين يعتقدون أن بعض الأطفال محكوم عليهم بالفشل بحكم انتمائهم الاجتماعي ولا يوجد هناك أي إجراء بيداغوجي بوسعه أن يصحح من تأثير هذه الحتمية،إلا أن هذه النتيجة تبدو مستخلصة من قراءة متسرعة

لكتاب"الورثة" لأن بيار بورديو يشير فيه إلى إمكانية معالجة عدم المساواة وذلك من خلال تعليم ديمقراطي "حقيقي" وبواسطة بيداغوجيا مغايرة والتي يمكن أن تبحث في تحييد بصفة منهجية فعل الامتيازات الثقافية.

وبالفعل اتخذت منذ 1964، عدة إجراءات تهدف إلى مكافحة الرسوب المدرسي:المتوسطة الموحدة للجميع مع إصلاح "هابيHABY" في سنة 1974،وتنويع مناهج التدريس وذلك من خلال الطرائق المسماة بالنشطة والتي ترسي بناء المعرفة على نشاطات المتعلم،وخلق مناطق التربية ذات الأولوية وذلك بإعطاء تلاميذ الأحياء المحرومة ظروفا حسنة للتعليم.وبالموازاة مع ذلك ،فإن البحث في علوم التربية تطور وذلك بتعدد الدراسات حول مختلف عوامل النجاح والفشل المدرسي.

- المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية اعتمد على الدراسات السوسيولوجبة لوضع تسمية المهن والفئات الاجتماعية

إن أعمال ديروزييرDEROSIERES وتيفينوTHEVENOT الخاصة بالمهن والفئات الاجتماعية-المهنية تستعمل إسهامات علم اجتماع بيار بورديو.وإصلاح 1982 هو نتاج تعاون بين المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية وعلماء الاجتماع.ووجود بعض الفوارق الداخلية بين بعض الفئات الاجتماعية تم اتخاذه بعين الاعتبار وهكذا،فإن المزارعين تم تمييزهم حسب مساحة مزارعهم وطبيعة إنتاجهم،كما أن المزارعين الذين يملكون مزارع كبيرة لهم رأسمال ثقافي مقارنة بالمزارعين الصغار.أما الجماعات المهنية الوسيطة ففيها تقابل بين الفئات المرتبطة بالمؤسسة وتلك المرتبطة بالوظيف العمومي:وهذه الفئات يغلب عليها الطابع الأنثوي ولها شهادات عالية.

إن العديد من الدراسات حول أسلوب حياة الأسر التي قام بها المعهد الوطني للدراسات الاقتصادية تشهد وتؤكد على أهمية مفهوم الفضاء الاجتماعي.

- تطوير التفكير حول تقنية سبر الآراء

يعرف الرأي العام على أنه تشابه في الأحكام التي يصدرها عدد كبير من الأشخاص حول بعض المسائل،إلا أن بيار بورديو في مقالة مشهورة ومستفزة نوعا ما قال أن << الرأي العام لا يوجد >>[23]،وقد واصل الكثير من الباحثين هذا التساؤل ومن بينهم شامباني CHAMPAGNEالذي اهتم بالأحكام المسبقة وبالآثار الاجتماعية لسبر الآراء.

إن عملية سبر الآراء قائمة على مسلمة مفادها أن كل فرد يستطيع أن يعطي إجابة على سؤال سياسي،في حين أن النتائج ما هي سوى عرضية.وعلاوة على ذلك ،فإننا نلاحظ عددا كبيرا من الإجابات خاصة عندما يتعلق الأمر بالمسائل السياسية التجريدية،كما أن النتائج المنشورة لا تذكر دائما نسبة عدم الإجابة.

ومن جهة أخرى،فإن الممارسة المتكررة لعملية سبر الآراء تعدل من اشتغال الأنظمة الديمقراطية[2]،لأن سبر الآراء خلافا للوهم الأمبيريقي ليس عبارة عن تقنية محايدة وعادية جدا لجمع المعطيات،بل هو عبارة عن استفتاء صغير يتكرر والذي عندما تنشر نتائجه في شكل مساومة إعلامية لا يمكن أن تترك الممثلين المنتخبين غير مبالين،لأنه عندما تكون نتائج نسبة الرضى أو الثقة "رديئة" فهذا يدعو الحكام إلى المزيد من اليقظة وكذلك الأمر عندما تكون فوارق في الرؤى بين "الرأي العام والحكام حول مسألة معينة،أو إجراء ما،فهذا يدعو إلى القيام بعمل تفسيري معمق.وعلبه،فإن تقنيات سبر الآراء تخلق سلوكات جديدة لدى رجال السياسة وبظهر سبر الآراء وكأنه تعويض للإشتشارة الانتخابية.

---

[23] P.B. QUESTIONS, OP.CIT,P.222

[2] **P. CHAMPAGNE ,FAIRE L OPINION,Ed, MINUIT,PARIS,1990**

2- إنتقادات متعددة

1- تصور المجتمع حسب بورديو تجاوزه الزمن

يرى منتقدو بيار بورديو أنه ما يزال متشبثا بالنظرة التقليدية للبنية الاجتماعية،المقسمة في شكل طبقات اجتماعية متصارعة،حتى وإن أضاف إلى الصراع القائم على رهانات مادية صراعات أخرى تتعلق بمراكمة الرأسمال الرمزي فهذا لن يغير من الحكم وهكذا ،فإن مقاربة بورديو هي محل نفد ثلاثي:

- حسب بعض علماء الاجتماع،فان مفهوم الطبقة الاجتماعية غير مناسب في المجتمعات المعاصرة.

وفي مقابل الطبقة الاجتماعية،فإن العديد من المؤلفين يفضلون استعمال مفهوم الشريحة،وبالفعل،فإن مفهوم الطبقة الاجتماعية هو مفهوم نظري أي تجمع في ذاته حسب علماء الاجتماع وعكس ذلك ،فإن مفهوم الشريحة الاجتماعية يرجع إلى مقاربة أمبيريقية وبدون تضمينات نظرية،إلا أن استعمال هذا المصطلح يكشف مع ذلك توظيفا نظريا،وبالفعل،فإن استعمال مصطلح شريحة يعنى أولا أننا قمنا بتصنيف الأفراد الذين يشكلونها حسب معيار معين والذي يسمح بترتيبهم،إن الشريحة،بهذا المعنى هي عبارة عن فئة بسيطة بمعنى تجمع إحصائي.

عندما نستعمل مفهوم الشريحة فهذا يدل كذلك على أننا نرفض الحديث عن المجتمع في شكل طبقات وأنه توجد عدة جماعات اجتماعية متدرجة حسب مقاييس متنوعة:المداخيل ،الشهادات،السلطة،السمعة...

ويصبح مفهوم الطبقة مبررا عندما نتوصل إلى تبيين أن هناك علاقة بين كل هذه المقاييس،إلا أنه حسب مناصري هذه المقاربة، يستحيل الوصول إلى ذلك،لأن موقع الفرد أو الجماعة على سلم الشهرة والسمعة لا علاقة بالضرورة مع دخله أو مع شهادته،وبالتالي فإنه يوجد تدرج منتظم في مواقع الجماعات المختلفة وليس تعارض.

وفي هذا الصدد، يقترح هنري مندراس MANDRAS ,هو عالم اجتماع فرنسي معاصر "نظرة كوسموغرافية" للمجتمع الي يشبهه بالسماء أين تنتظم النجوم في شكل أجرام مختلفة[1].

وقد اتخذ مندراس مقياسين للتصنيف وهما مستوى الشهادة والدخل وكل مهنة وفئة اجتماعية تتدرج حسب هذين السلمين وأن التقاطع بين البعدين يسمح التفريق بين مجموعتين:الجرم الشعبي المكون من العمال والموظفين والجرم المركزي المكون من الإطارات والمعلمين والمهندسين وفي محيط هذين البرجين تتوزع مختلف الكوكبات والمجرات الصغيرة والمنعزلة من أصحاب المهن الحرة والمقاولين الكبار والتقنيين والمزارعين،وفيما يتعلق بالقادة،فإن عددهم محصور جدا وتنوعهم كبيرا يحول دون أن يظهروا في شكل جماعة خصوصية.

ومذاك،فإنه من الخطأ اعتبار أنه توجد طبقات اجتماعية في المعنى الذي يعطيه لها بيار بورديو،من جهة،لأن البرجوازية، كمالكة وحيدة للرأسمال،لا توجد وأن الطبقة العاملة،المتناقصة عدديا، تشهد أزمة على مستوى هويتها يغذيها انهيار الماركسية ومن جهة أخرى،وبسبب تصاعد الفردانية التي تعطي للأفراد إمكانية اختيار أسلوب حياتهم،يرى مندراس أن:

<< الإطارات يمكن أن يختاروا العيش كالبروليتاريين وأن العمال يمكن أن يعيشوا كبرجوازيين>>[1]

- صراع الطبقات مفهوم متقادم ومهجور

وهو موقف آلان توران TOURAINEالذي يعتبر كممثل لعلم اجتماع الفعل وهذا موقف طوره منذ سنة 1969 في كتابه" المجتمع ما بعد الصناعي".إن استدلال آلان توران يقوم على ظهور المجتمع ما بعد الصناعي وهو مجتمع له خصائص مختلفة عن خصائص المجتمع الصناعي الذي هو قائم على الإنتاج

---

[1] **H. MENDRAS ,LA SECONDE REVOLUTION FRANCAISE .1965.1984 ,GALLIMARD,PARIS,1994**

[1] **H. MENDRAS,LE CHANGEMENT SOCIAL,A.COLIN,PARIS,1993**

المادي وعلى فكرة التقدم وعلى أخلاقيات العمل،والمجتمع الصناعي تخترقه حركة اجتماعية مركزية،الحركة العمالية المتعارضة مع البرجوازية،بينما المجتمع ما بعد الصناعي فهو يتميز بسيطرة الإنتاج اللامادي(الإعلام والاتصال)،وبأخلاق اللذة وبالإبداع وبغياب صراع مركزي كالصراع بين البروليتاريا والبرجوازية.

إن الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي يترجم من خلال تغير على مستوى الصراعات سواء تلك المتعلقة بالرهانات أو بالفاعلين.

في المجتمع ما بعد الصناعي، لا يتمثل رهان الصراعات في إحداث انقلاب على البرجوازية وإنما في مراقبة التوجهات الثقافية للمجتمع ولا سيما تلك التي تحددها الدولة،ويتعلق الأمر حينئذ بمكافحة الأجهزة البيروقراطية والقرارات التي تبرمجها،لأن الأماكن التي تمارس فيها السلطة والسيطرة تحولت وتوسعت:فلا يتعلق الأمر فقط بالمؤسسة ولكن كذلك بسلطة التكنوقراطيا التي تقوم على مراقبة الأجهزة الكبرى للتسيير والإنتاج ونشر المعلومات:التعليم،وسائل الإعلام،الإدارات المركزية.

لذا لا يمكن حصر الفاعلين في طبقتين متعارضتين ،وعكس ذلك فقد ظهرت العديد من الحركات الاجتماعية.والحركات الاجتماعية يمكن أن نعرفها على أنها مجموعة من الأفعال والسلوكات والتي تعيد النظر بصفة جزئية أو شاملة في النظام الاجتماعي وتحاول تغييره وهو حال الحركات النسوية والإيكولوجية والطلابية وحركات تلاميذ الثانويات.الحركات الاجتماعية يمكن أن تشمل طبقات ولكن كذلك فئات عمرية أو أقليات (عرقية،جنسية...)الحركات الاجتماعية محمولة خاصة من قبل الفصيلة المسماة طبقة متوسطة :مهندسون وتقنيون وأساتذة.

- الجماعات الاجتماعية لها هوية خاصة ولا تعرف أو تحدد فقط في مقابلتها بالطبقات المهيمنة.

خلافا لما يؤكده بورديو،فإن علاقات الهيمنة لا تكفي للكشف عن الفوارق الاجتماعية والثقافية.وهكذا،ففي داخل الطبقات الشعبية،يمكن أن نميز سمات ثقافية

أصيلة،والطبقة العمالية التقليدية لها شعور جماعي قوي قائم على علاقات جوارية مكثفة وعلى التعاون والتضامن.

ومن جهة أخرى،فإن أعضاء الطبقات الشعبية يستهلكون منتجات ثقافية موجهة إليهم بأقل سلبية خلافا لما يعتقده البعض وبالتالي، يمكن للأخبار التلفزيونية أن تكون مصدرا لإبداع ثقافة أصيلة قائمة على إعادة التأويل والاقتباس،وختاما،فإن الإنتاج الذاتي والصيغ اللغوية والقيم والمعايير التي لها علاقة ببعض الظواهر الجماعية الرياضية ليست فقط إنتاجا لثقافة مفروضة من"الأعلى".

إن هذا التحليل صالح كذلك لبعض الفئات المتوسطة التي طورت ثقافة خاصة بها،فهي تقوم بنشر القيم والممارسات الخصوصية المصطبغة ب"الليبرالية الثقافية"،وخلافا للفئات الأخرى،فإن الفئات المتوسطة تبدو متسامحة في الأمور المتعلقة بالسلوكات وحريصة على احترام حقوق الإنسان والطبيعة وتحاول أن تجمع وتؤلف بين الحرية الفردية ودولة-الرعاية.هذه الفئات تطالب بنموذج ثقافي قائم على الحرية وعلى الألفة الاجتماعية.

- تحليل التغير الاجتماعي مغيب من علم اجتماع بورديو كما يتجلى ذلك في تصوره لدور المدرسة.

- نظرية بورديو ستاتيكية وتهمل التاريخ

إن علم اجتماع بيار بورديو متهم بعدم إعطاء تحليل مناسب للتغير الاجتماعي وعلى أنه مركز جدا على تحليل آليات وإستراتيجيات إعادة الإنتاج،وأن الأطروحات المتعلقة ب "المدرسة التي تعيد الإنتاج" تم نقدها نظرا لطابعها الجامد واللاتاريخي.

تركزت الانتقادات ،من جهة على التعسف والقسر وعلى جمود الثقافة المدرسية حيث قدمت المعايير الثقافية على أنها لازمانية وكونية في حين أن التاريخ بين أن مقاييس الانتقاء والامتياز المدرسي تتغير،ومن جهة أخرى،فإن تساؤل بيار بورديو

يكتفي بسؤال واحد ومتكرر وهو لماذا تصلح المدرسة وعلى جواب معروف مسبقا، نظرا لتصور المجتمع،المدرسة لا يمكن سوى أن تعيد إنتاج النظام الاجتماعي،القائم وبكل تفاوتاته وعدم مساواته.

إن هذا التصور كان موضوعا لنقد شديد:لقد أثبت التاريخ أن للمدرسة كذلك طاقات "إنتاجية"،لأن تعميم التعليم الإبتدائي ساهم لا محالة في خلق تجانس ثقافي في فرنسا وفي نشر اللغة.- نظرية إعادة الإنتاج أهملت دور الفاعلينإن مقاربات بيار بورديو احتفظت بتصور سلبي جدا للأفراد الموجودين في العملية التربوية:الأساتذة والأولياء والتلاميذ، إذ يصور هؤلاء وكأنه لا أثر لهم أمام الحتميات الماكروسوسيولوجية.إن هذه النظريات تجعل من الفرد مجرد إنتاج للمجتمع،أي عبارة عن دمية يحركها منطق اجتماعي يتجاوز الفرد.وهذه المقاربات غير قادرة على معرفة سلوكات الفاعلين وبالتالي فهي لا تفسر أي شيء،ومذاك،فإن تشيء الواقع الاجتماعي الذي تقوم به يصبح محلا للنقد،لأنها تقوم بتحويل التجريدات(البنية الاجتماعية،المنظومة المدرسية) إلى مواضيع ملموسة.

إن مفهوم الملكة حتى وإن حاول تجاوز التعارض بين الفاعل والنظام ويعطي نوعا من الاستقلالية للأعوان الاجتماعيين وأن منحى السببية ينتقل من البنى إلى الأفراد،فإن العديد من علماء الاجتماع يعيبون عليه حتميته،حيث أنه يرفض كل حرية للفاعل الاجتماعي.وبالتالي،نجد مقاربتين بديلتين لمقاربة بورديو.

المقاربة الأولى: تسلم بأن الفرد هو كائن عقلاني له القدرة على الفعل،هذه المقاربة يمثلها ريمون بودون BOUDONوالتي ترفض علم الاجتماع الذي يفسر السلوكات الفردية من خلال "حتمية اجتماعية" بمعنى من خلال متغيرات سوسيولوجية.

يرى بودون وهو من الأوفياء لمبدأ الفردانية المنهجية،بأنه لا يمكن أن نفسر الظواهر الاجتماعية إلا بالانطلاق من الأفراد ومن دوافعهم ومن أفعالهم،وهذه الأفعال عوض أن تكون محددة من قبل الملكة،فهي نتيجة لعقلانية يملكها الفرد.

يعنى مفهوم عقلانية الفرد السلوكات والأفعال الناتجة كليا أو جزئيا عن قرار أو اختيار أو حساب قائم على البدائل العديدة الممكنة.

يحاول بودون ترقية علم اجتماع مستلهم من "اللبيرالية"مشابه للمقاربة الاقتصادية الجزئية التي طورها علماء الاقتصاد الكلاسيكيون.

وفي تحليله للتغير الاجتماعي،يرى بودون أن إعادة الإنتاج ما هي سوى إحدى الوضعيات الممكنة للتفاعل بين الأفراد،وبالفعل ،فإن الفاعلين الاجتماعيين يسلكون بصفة عقلانية ولكن دون تشاور:إن التقاء هذه الملايين من الأفعال المنعزلة هو الذي يكون وراء نشأة الظاهرة الاجتماعية ،لذا يتحدث بودون عن المفعول أو الأثر البائن لتسمية هذه الظاهرةلكن الفاعلين لا يعتملون في فراغ اجتماعي ولا بد من أخذ بعين الاعتبار منظومة التفاعل بمعنى الإطار الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي...الذي يعيشون فيه.وحسب السياق ،يمكن للأفعال الأعوان أن تنتج إما إعادة إنتاج اجتماعي وإما تضخيما للظاهرة الموجودة من قبل،وإما ظاهرة اجتماعية جديدة.إذن فليس من الضروري اللجوء إلى البنى الاجتماعية لتفسير أن الدخول في منظومة التعليم لا يصاحبه الحصول على مناصب شغل ذات أجور مرتفعة:فهو نتيجة لإستراتيجيات عقلانية للفاعلين والذين كل على مستواه الفردي يبحث على أن يكون مساره المدرسي أمثل.وإنطلاقا من هذا المنظور،فإن المسار المدرسي ينظر إليه وكأنه سلسلة من الخيارات،وهذه الخيارات تتغير حسب جملة من العوامل المتعلقة عموما بالموقع الاجتماعي (الدخل،الوسط الثقافي،السن،الجنس...) وحسب تنوع الإمكانيات المتاحة(عدد ونوع الشهادة،مدة الدراسة...).وأمام كل وضعية بديلة (إتمام الدروس أم لا،اختيار هذا التخصص أو ذاك)،فإن الأفراد يتصرفون حسب الاختيار الذي يعبر عن إنتظاراتهم والذي له مردودية أكثر انطلاقا من حساب التكلفة والخطر والفائدة.والحركة العامة التي نشاهدها تكون إذن نتيجة تراكم لقرارات فردية.وهكذا،ففي هذه المقاربة تتغير الإستراتيجيات حسب الموارد الأصلية التي نملكها والأخطار التي نحن مستعدون لقبولها.إن طموح الأوساط الميسورة مؤسس على قناعتين:أهمية النجاح المدرسي للحصول على موقع اجتماعي عال وتعدد الوسائط التي تملكها لمساعدة أبنائها.أما

الأوساط الشعبية،فإن الصعوبة لا تكمن في تكلفة الدراسة ولكن في كون التمدرس ليس في كل الحالات ذو مردودية وبالتالي فإن تحمل تكاليف تكوين في اختصاص الحلاقة أكثر فائدة لأنه يمثل مهنة بينما يبدو من غير المجدي الاستثمار في الدراسات الفلسفية أو في علم الاجتماع لأن فرص التشغيل غير مضمونة.بيد أن العقلانية الفردية يمكن أن تنتج آثارا غير مرغوب فيها على المستوى الجماعي،بمعنى آثار مخالفة لما هو منتظر على المستوى الفردي.والتضخم على مستوى الشهادات وإنتقاص قيمتها هو أحسن دليل على ذلك.على المستوى الفردي،فمن المعقول في وضعية تكثر فيها البطالة مواصلة الدروس في أطول وقت ممكن ولكن تعدد هذه السلوكات على المستوى الفردي ينتج آثارا غير منتظرة على المستوى الماكروسوسيولوجي.كما، يمكن أن تخفيف من الفوارق المدرسية ولكن وبالموازاة مع ذلك سيؤدي إلى مضاعفة الفوارق الاجتماعية،لأن تحول المنظومة المدرسية أحدث تباينا مع بنية الوظائف.وهكذا،وإنطلاقا من استدلال متعارض تماما مع بورديو يتوصل بودون إلى نفس النتائج.

اما المقاربة الثانية التي تعرف انتشارا كبيرا منذ الثمانينيات،فهي تهدف إلى فتح"العلبة السوداء"المتمثلة في المدرسة وذلك بغرض الاهتمام بالتفاعلات الحقيقية التي تتم بين الفاعلين داخلها.

المقاربة الميكروسوسيولوجية وحتى الإثنوغرافية تعوض التساؤل الماكروسوسيولوجي بحيث يتم تحليل متغيرات سوسيولوجية جديدة.

يتوجه النظر في البداية إلى خصوصيات "المحلي".إن الإجراءات المتعلقة باللامركزية المتخذة سنة 1980 ساعدت المبادرات المحلية المتمثلة في وضع مشاريع لمؤسسات مدرسية والتي ترتب عنها مساهمة مكثفة للأولياء وللمنتخبين المحليين في السياسة التربوية،وبالتالي يوجد "مفعول المؤسسة"المتمثل في أن المؤسسات المدرسية، التي تستقبل تلاميذ لهم نفس المواصفات بالنظر إلى

المؤشرات الإحصائية التقليدية ،يمكن أن تتحصل على نتائج جد مختلفة وهذه النتائج يمكن ملاحظتها سواء على مستوى المعارف المتحصل عليها وكذلك على مستوى الرسوب أو التوجيه.

وهكذا أصبح الإهتمام ينصب على ما يدور داخل المؤسسة وهي حقل للملاحظة أهمله أصحاب نظريات إعادة الإنتاج،وبالتالي إنصب الاهتمام على الخصوصيات الاجتماعية للمعلمين وعلى الأساليب البيداغوجية في الأقسام وعلى طرائق التقييم.وازداد الاهتمام بسير الحياة اليومية في القسم ،كما أضحى التدرب على مهنة التلميذ موضوعا للتساؤل:لأننا لا نلد ونحن تلاميذ وإنما نصبح تلاميذ عن طريق القيام بعمل معين وهو العمل المدرسي.

الخاتمة

إن علم اجتماع بيار بوديو له تأثير كبير وهذا التأثير هو على الخصوص نتيجة لقدرته على تجاوز الحدود،في البداية الحدود الموجودة بين التخصصات في علم الاجتماع والني تسمح لعلماء اجتماع متخصصين في ميدان معين الإستفادة من تحاليله،ثم وبدرجة أقل الحدود الموجودة بين العلوم الإنسانية المختلفة،وهي دعوة للباحثين لتبني مقاربة متعددة التخصصات،وفي الختام بين البلدان وذلك من خلال حوار علمي يتم بين علماء اجتماع من جنسيات مختلفة.

لكن هذا الإشعاع يجب أن لا يخفي الانتقادات المختلفة الموجهة لعلم اجتماع بيار بورديو والتي تدور أساسا حول إطاره النظري المصطبغ بالنظرية البنيوية وبالمرجعية الماركسية. وتستهدف الانتقادات الموجهة المفاهيم الموظفة ولاسيما مفهومه المشهور "الملكة".

إن أنصار التيارات السوسيولوجية الأخرى لا يشاطرون النظرة النقدية لعلم الاجتماع ويعبرون عن اختلافهم مع بيار بورديو سواء عندما يتعلق الآمر بتصور المجتمع أو بتصور الفرد.

هذه الاختلافات يجب أن لا نحكم عليها سلبا،فهي في صلب التقدم العلمي على الرغم من أنها صراعات علمية.

الملاحق

بير بورديو وعلم الاجتماع

س : لنبدأ بالأسئلة الأكثر بداهة (*) : هل العلوم الاجتماعية، و السوسيولوجيا على الأخص، حقا علوم؟ لماذا تستشعرون الحاجة إلى المطالبة بعلميتها ؟

ج : للإجابة على السؤال الأول، يجب التفاهم حول المقاييس التي تمكن من تعريف العلمية و حتى درجات العلمية، هذه المقاييس بالنسبة للسوسيولوجيا كما بالنسبة لكل العلوم الأخرى – بل أكثر من كل العلوم - هي مدارات (enjeux) صراعات، بحيث إنها تتحكم في تراتبية العلوم و الباحثين في كل العالم. فمثلا، هل نقول بأن استعمال الرياضيات (mathématisation) هو المقياس ؟ البعض يدعي ذلك، يمكن الاعتراض (على ذلك) بأنه في إمكاننا استعمال الرياضيات في أي شيء، يجب إضافة، كيفما اتفق، يمكن القول بعد ذلك أن السوسيولوجيا خرجت من مرحلة ما قبل التاريخ، بمعنى مرحلة الفلسفة الاجتماعية، من الأطروحات الكبرى لفلسفة التاريخ، ذلك أن جزاءا مهما من الباحثين متفقون على مجموعة من المكتسبات، من مفاهيم و مناهج و طرق التمحيص. رغم أن كثيرامن الباحثين استمروا حيانا في الوقوع في فخ الإشكالات ذات الحمولات الاجتماعية القوية، كالذي يرتبط بالفطري و المكتسب، و الذي يؤدي إلى مناقشات لا تنتهي و لا يمكن الوصول إلى أخذ قرار نهائي بشأنها، نرى كثيرا من الباحثين من يتجهون أكثر فأكثر نحو أسئلة صيغت بشكل يجعل ظروف تكذيبها (Falsifiabilité) مجتمعة. و هذا لا يقتضي – كما هو الحال

غالبا في علم النفس الاجتماعي – الذهاب إلى طرح مشاكل تافهة، بدعوى البقاء في حدود التحليل الدقيق.

و هكذا يطرح إلى جانب مشكل مقياس العلمية مشكل آخر يتعلق بتعريف ما نعنيه بالسوسيولوجيا أو العلوم الاجتماعية.

ما هي العلوم الاجتماعية ؟ أهي مجموع الممارسات التي تمارس تحت هذا الاسم ؟ أهي التي يعترف بها الناس (الباحثون في هذا الميدان،الآخرون، العلماء الآخرون ؟ العموم ؟) تحت هذا الاسم ؟

إنها موضوع بحث. إذا لم ندرك ذلك، فلا يمكن إلا إعطاء جواب سجالي أو، إذا أردنا، دفاعي : "السوسيولوجيا كما أتصورها علم" و ينبغي أن نفهم هذا الموقف كموقف استراتيجي في مجال الصناعات. لقد سعى مؤسسو هذا العلم كماركس و دور كهايم و فيبر إلى إنزاله منزلة "العلمية" و هذا ما أسعى نحوه أنا كذلك.

لكن السوسيولوجيا، و لأسباب واضحة، هي دراسة مشتتة (إحصائيا) و ذلك من منظورات متعددة. هذا معناه أن هناك عددا كبيرا من الناس يدعون أو يظنون أنفسهم سوسيولوجيين و الذي أجد صعوبة في الاعتراف بهم حقيقة كذلك (و هذا شأن كثير من العلوم بدرجات متفاوتة).

إن صياغة سؤالك نفسها تتضمن هذا الطرح الاستراتيجي : "لماذا تستشعرون الحاجة للمطالبة بالعلمية ؟" أكيد أن هذه الحاجة تزداد قوتها بقدر ما أن العلمية "تفرض نفسها" اجتماعيا و بشكل إلزامي، أو، لأكون أكثر قساوة، لأن مرتبة العلمية "مربحة" أكثر (ماديا و رمزيا)، و تعطي قوة اجتماعية أكبر لما نقوم به و من أجل القيام به و ما نود القيام به (مثلا الحصول على تمويلات، مناصب مالية ... الخ). مثلا، رأينا أخيرا أن الفلاسفة أنفسهم يلحون بالمظاهر العلمية (أشير هنا إلى ما يسمى علوم الكتابة (grammatologie)، الحفريات (archéologie) و إلى الاقتصاد الليبدي ...الخ) وسيكون من قبيل

السذاجة و المكر الخادع رد و اختزال هذه المواقف إلى استراتيجيات واعية متعمدة تتوخى منافع : في عوالم الإنتاج الثقافي، أحسن الاستراتيجيات هي تلك التي تمكن من الوصول إلى الغايات الإنتفاعية دون السعي إليها بما هي كذلك، بعبارة أخرى، ليس هناك شك أن الذين يقولون بأن العلوم الاجتماعية (هي) علوم، و أن العلم الاجتماعي، على الأقل، كما يمارسونه (هو) علم، يعتقدون في صحة ما يقولون، مما يمكن أن يؤدي إلى تصديق ما يقولونه، و أيضا أن يصبح فعلهم مطابقا لقولهم. هذه بعض الأسئلة السوسيولوجية – إذا العلمية التي كانت مطروحة ضمنيا في سؤالك هي حول عملية السوسيولوجيا. و أترك للقارئ – الذي نفترضه حريصا على العملية – عناية الحكم على ما إذا كانت إجاباتي، بمعنى طريقتي في طرح الأسئلة (هي) "علمية".

س : ألا يؤدي بكم هذا إلى طرح أسئلة طرحت موضوعيا على العلوم الأخرى، بينما العلماء، واقعيا، ليس عليهم أن يطرحوها على أنفسهم ؟

ج : تمتاز السوسيولوجيا بأنها تواجه، دون انقطاع، مسألة العلمية، سواء في الصراعات الداخلية بين الباحثين أو في العلاقة مع العلوم الأخرى أو مع عامة الناس. وهي في هذا أكثر بكثير من التاريخ، وفقه اللغة (Philologie)، والأركيولوجيا أو حتى الإثنولوجيا. وهذا ما يجعل السوسيولوجي مرغما على أن يولي اهتماما خاصا لمسألة الأسس. إن السوسيولوجي الذي ما ينفك يستنطق، لا ينفك هو بدوره عن استنطاق نفسه واستنطاق الآخرين، و هنا ما يدفع البعض إلى الاعتقاد بإمبريالية سوسيولوجية : فما الذي يخول هذا العلم المبتدئ والمتعثر أن يستنطق العلوم الأخرى : أشير طبعا إلى سوسيولوجية العلم.

في الواقع، لا تعمل السوسيولوجيا إلا على أن تطرح ذات الأسئلة التي تطرح عليها بشكل أكثر حدة. فإذا كانت السوسيولوجيا علما نقديا، فربما كان ذلك لكونها هي نفسها توجد في وضع حرج. السوسيولوجيا تولد المشاكل (نعلم أن ماي 68 قد نسب إليها) علميا وسوسيولوجيا معا. يتم الاعتراض عليها ليس فقط

في وجودها كعلم ولكن في وجودها الاجتماعي. وهذا ما يدل عليه كوننا لا نكون بمثل التشدد فيما يتعلق بالوضعية العلمية بالنسبة لفقه اللغة و الأركيولوجيا و حتى التاريخ.

س : لماذا تولد السوسيولوجيا، بصفة خاصة، مشاكل و تطرحها ؟

ج : لماذا ؟ لأنها تقول أشياء لا تريد الجماعات معرفتها، أشياء محجوبة أو أحسن من ذلك مكبوتة، كالعلاقة (الإحصائية) بين التفوق المدرسي وهو ما يسمى – للأسف – "الذكاء"، والأصل الاجتماعي أو، بدقة أكثر، الرأسمال الثقافي الموروث في الأسرة (1). هل تظنون أن مثل هذه الحقائق يجب سماعها أولئك الذين يعيشون على إيمان راسخ بـــ "ذكائهم" وفي "موهبتهم" ؟ والذين يشكل ذلك الاعتقاد مصدر عيشهم. مثال آخر : إن وصف المجال العلمي كموقع لامتيازات خاصة : جوائز نوبل Nobel أو غيرها، السبق إلى الاكتشاف، الشهرة، الخ، بمعنى من أجل مصالح خاصة تمتاز بكونها تظهر كأنها "مترفعة عن ذلك"، هنا الصراع كما نعرف، يمكن أن يأخذ أشكالا دنيئة، هذا الوصف يثير مسألة قدسية السيرة المعظمة (hagiographie) للعلم، تلك القدسية التي يساهم في ترسيخها العلماء أنفسهم والذين هم في حاجة إليها ليعتقدوا بما يقومون به (2).

س : لا أخالفك في ذلك، فالأسئلة التي تطرحها السوسيولوجيا تجعلها تبدو كما لو كانت عدوانية ومزعجة. ولكن لماذا وجب أن يكون الخطاب السوسيولوجي "علميا"؟ الصحفيون يطرحون كذلك أسئلة مزعجة، إلا أنهم لا يدعون لأنفسهم "العلمية". لماذا وجب التمييز الحاسم بين السوسيولوجيا وبين مجرد الكتابة الصحافية النقدية؟

ج: لأن هناك اختلافا موضوعيا. فهذا ليس مجرد إعلاء من شأن السوسيولوجيا، فالسوسيولوجيا تنطوي على منظومات متناسقة من الفرضيات ومن المفاهيم ومناهج التمحيص وكل ما يقترن عادة بفكرة العلم. وعليه، لماذا لا نقول بأنها علم إذا كانت كذلك؟ خاصة وأن المسألة المطروحة ذات أهمية قصوى، إذ أن أحد

أشكال التخلص من الحقائق المزعجة هو القول بأنها علمية، وهذا يعنى في الأخير القول بأنها "سياسية"، بمعنى أفرزتها "مصالح" و"أهواء"، وإذن فهي نسبية ويمكن ردها إلى شروط إنتاجها.

إذا كنا نطرح على السوسيولوجيا السؤال حول علميتها، فذلك أيضا لأن السوسيولوجيا تطورت بنوع من البطء بالنسبة للعلوم الأخرى. وهذا ما أجمع عليه عظام السوسيولوجيين – و لكنهم يوجدون بالطبع في موقع الحاكم والمتهم – فالسوسيولوجيا هي علم صعب، بصفة خاصة، و لكنها صعوبة من نوع آخر. إحدى الصعوبات الكبرى بالنسبة للسوسيولوجيا تكمن في كون مواضيعها مدار صراعات، أشياء تحجب وتخضع للرقابة، من أجلها يكون هناك استعداد للموت. هذا صحيح بالنسبة للباحث نفسه الذي يكون عرضة لذلك في موضوعات بحثة نفسها، فالصعوبة التي تكمن في الاشتغال بالسوسيلوجيا، غالبا ما ترجع لكون الناس يخافون مما سيجدونه.

إن العلوم التي تدعى علوما خالصة، مثلها مثل الفن وفن الموسيقى على الخصوص، هي في معظمها ملاجئ نحتمي بها لكي ننسى العالم، فهي عوالم نقحت من كل ما من شأنه أن يطرح المشاكل مثل مسألة الجنس والسياسة، في حين أن السوسيولوجيا عالم لا نكف فيه عن مواجهة وقائع عسيرة، عادة ما يتم "إنكارها" ("déniés" بالمعنى الفرويدي للكلمة)، إنها علم يتطلب واقعية ناضجة.
س: إنكم تبرزون أن السوسيولوجيا تتدخل بصدد مسائل مهمة اجتماعيا. هذا يطرح مسّألة "حيادها"، و"موضوعيتها".

هل في إمكان السوسيلوجي أن يبقى فوق المعركة، في موقع الملاحظ النزيه؟ ما الذي يؤسس "علمية" التفسيرات التي يقدمها؟
ج : إذا كان كل مجال علمي هو موقع للصراعات، فمجال السوسيولوجيا يتميز بكونه ينصب على موضوع مجالات الصراعات، سواء تعلق الأمر بمجال الصراعات الطبقية أو مجال الصراعات العلمية نفسها.

والسوسيولوجي لا يمكنه أن ينسى أنه يحتل موقعا في هذه الصراعات : قبل كل شيء لكونه حائزا على نوع من الرأسمال الاقتصادي والثقافي داخل المجال الطبقي، لكونه باحثا يتوفر على رأسمال خاص (من الاعتراف به) داخل مجال الإنتاج الثقافي (وبدقة أكثر في المجال الفرعي للسوسيولوجيا). فموقعه داخل علاقات القوة الخاصة هذه (وهو موقع يمكن التعرف عليه من خلال الموقع من توزيع مجموعة من الألقاب (الشهادات مثلا) الخاصة ذات سلطة خاصة) هو الذي يحدد مصالحه النوعية واستراتيجياته الخاصة، هذه الاستراتيجيات هي استراتيجيات علمية وسياسية في آن، بمعنى أنها تخول سلطات وامتيازات وحظوظا، وباختصار فهي تخول مصالح اقتصادية واجتماعية. يترتب عن ذلك، أن حظوظ المساهمة في إنتاج الحقيقة تتوقف أساسا على عاملين : المصلحة في معرفة و تبليغ الحقيقة (أو بالعكس في إخفائها على الآخرين أو على النفس) و كذا المقدرة التي لدينا على إنتاجها. نعرف كلنا كلمة باشلار "لا علم إلا بالخفي" G. Bachelard il n y a de science que du caché"في حالة السوسيولوجيا، الخفي هو، من ناحية، السر، كل ما يخضع للرقابة و يكبت لأن المصالح المرتبطة بالمواقع المهيمنة، في مجال الطبقات الاجتماعية أو/ وفي مجال الإنتاج الثقافي، تعمل على كبته. فالسوسيولوجي يكون متسلحا أكثر لكشف النقاب عن المحجوب بقدر حسن، تسلحه علميا و حسن استعماله لرصيد المفاهيم و المناهج و التقنيات المتراكمة عند من سبقوه، ماركس، دوركهايم، فيبر و آخرون، و يزداد نقده حدة كلما كان القصد الواعي أو اللاوعي الذي يدفعه أكثر تخريبا (subversif) مجمل القول، إذا كان السوسيولوجي يتمكن من إنتاج و لو قدره قليل من الحقيقة، فليس ذلك لأن له مصلحة في إنتاج تلك الحقيقة و لكن لأن هناك مصلحة. و هذا بكل تدقيق عكس الخطاب الذي يروج حول "الحياد" و الذي في ذلك ينطوي على قدر غير قليل من التضليل.

س : ألا ينطوي هذا على مفارقة ؟

ج : إن ما يتمخض عن المقاصد التي تتوخى المصلحة و تقترن بمصالح مرتبطة بموقع خاص، في مجال خاص و في ظرف بعينه، لا يخلو من العملية بالرغم من ذلك. و القول بعكس ذلك يؤدي في آخر الأمر إلى إدانة اكتشاف "المروحة المزدوجة" (double hélice) بدعوى أن مقاصد أو تقنيات مكتشفيها لم تكن منزهة.

كلما ازداد العلم تقدما و تراكم الرأسمال المعرفي يكون على الاستراتيجيات – مثلا استراتيجية النقد و التقويض الخ – أن تستخدم معارف مهمة حتى تكون أكثر نجاعة في الفيزياء مثلا يكون من الصعوبة دحض رأي الخصوم بالارتكان إلى قوة ركز، أو كما زال يحصل في السوسيولوجيا، بنقض المضمون السياسي لنظرية ما، إن "واجبات الدخول" (droits d entrée)، كما يقول الاقتصاديون، غالية جدا، فأسلحة النقد العلمي عليها أن تكون علمية لتكون ناجحة علميا.

س : منذ قليل جمعتهم أسماء ماركس، دوركهايم و فيبر داخل عبارة واحدة، هذا في حين أن مقارباتهم هي في الواقع مختلفة. كيف نتصور أن يكون هناك علم واحد خلف هذا التنوع ؟

ج : يطلق M. Serres بعد P. Scheurer لفظة "ارتدادية" (dérévolution) على تلك الاكتشافات البسيطة و الشاملة التي تضم فكرين تكونا في انفصال بعضهما عن بعض أو في تعارض أحدهما مع الآخر. هذا النوع من الثورات لتي تخالف أشد الاختلاف التطور الانتقائي الذي يجمع بين نظريات لم تكن لتجمع حتى الآن، و إن اقتضى ذلك إعادة نظر جذرية، ثورية، و لنشر بهذا الصدر إلى أن مفهوم الانتقائية استعمل كتبرير للجهل : إذ من المريح و السهولة بمكان الانغلاق داخل تقليد معين : الماركسية، مع الأسف، (قد) قامت بهذه الوظيفة و ساعدت على هذا الاطمئنان للتكاسل. فمثلا، ضد العودة بالماركسية إلى شكلها الاقتصادي، الذي لا يعرف إلا الاقتصاد بالمعنى الضيق للاقتصاد الرأسمالي، قام ماكس فيبر بتوسيع التحليل الاقتصادي – بالمعنى الموسع – و تطبيقه على

ميادين مهملة عادة من طرف الاقتصاد، كالدين (فهو الذي يحدد الكنيسة، في صيغة رائعة، بكونها تحتكر "ثروات الخلاص"). فهو يدعو إلى مادية جذرية تبحث عن المحددات الاقتصادية (بالمعنى الموسع) في ميادين تسيطر عليها إيديولوجية "الانتفاعية" كالفن والدين. نفس الشيء يصدق بالنسبة لمصطلح المشروعية.

لقد قطع ماركس الصلة مع التصور العادي للعالم الاجتماعي مبرزا أن علاقات "الانسجام و التراضي" – كالعلاقات الأبوية مثلا – تخفي من ورائها علاقات قوة و تغلب. يبدو ماكس فيبر هنا معارضا لماركس معارضة جذرية : لقد أعاد إلى الأذهان أن الانتماء إلى العالم الاجتماعي يفرض نصيبا من الاعتراف بالشرعية. لنأخذ مثالا على ذلك : الأساتذة – و هو مثال جيد يوضح لنا "مفعولات المواقع" (effets de position) – فهم يتعلقون بالتعارضات، الاختلاف، و يفضلون أكثر وضع المؤلفين في موقع المواجهة بدلا من إدماجهم (و هذا ما يسهل بناء دروس واضحة : الجزء الأول ماركس، الجزء الثاني فيبر و الجزء الثالث أنا ... بينما منطق البحث يقود إلى تجاوز المعارضة (بين المؤلفين) بالرجوع إلى الجذر المشترك : فماركس استبعد من نموذجه الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعي (فهو مشروع و معترف به) و أرسى الحقيقة الموضوعية لهذا العالم كعلاقة قوة. إلا أنه لو رد العالم الاجتماعي إلى حقيقته كعلاقات تغلب و قوة لتعذر سيره. و هذا ما يعرفه، و في نفس الوقت لا يعرفه الثوري، الذي برده إلى مجرد علاقات تغلب و قوة يود تعطيله. فالمتمثل الذاتي للعالم الاجتماعي و كأنه مشروع يشكل جزءا من الحقيقة الكاملة لهذا العالم، فالثوريون لا زالوا يقدمون للنظام القائم أكثر مما يظنون بكثير.

س : بعبارة أخرى فإنكم تحاولون بإلحاح ضم مختلف الإسهامات النظرية، التي يفرق بينها التاريخ أو التحليل الدوغمائي، في نفس النسق المفهومي.

ج : ربما وجب إبراز أن السوسيولوجي له حظوظ أكثر للتمكن من مكتسبات الماضي ولإدماجها، إذا توفر له وعي صائب بالمنطق الذي تكونت هذه المعرف

حسبه و أعني منطق المنافسة الشديدة و الصراع و بالموقع الذي يحتله هو المجال الحالي للصراع، حيث تكون هذه المكتسبات، من بين أشياء أخرى، هي مدار هذا الصراع. ففي غالب الأحيان لا تكون العوائق التي تمنع المفاهيم و المناهج و التقنيات (يكفي أن نذكر التعارض بين دعاة النظرية و دعاة التجريب) من التفاعل، عوائق منطقية و لكن عوائق سوسيولوجية. لا يمكن أن ننتظر ممن يتقمص شخصية ماركس أو فيبر، أو ما يفهمونه منهما، أن يتملكوا ما يظهر لهم نفيا لملكهم الخاص و أعني لذواتهم. هذا ينسحب أيضا على دعاة النظرية ودعاة التجريب. فلذلك يمكن لسوسيولوجية العلم أن يكون لها مفعول علمي.

س : لقد أكدتم على العامل الثاني للعلمية أي القدرة على التمكن من قوة الاكتشاف والتمحيص عن طريق تراكم المعلومات. فإذا كنت قد فهمت ما تعنونه بالعامل الأول وأعني الاستعداد النقدي فالظاهر أن سوسيولوجية محافظة لا يمكن أن تكون إلا سطحية ؟

ج : المهيمنون يحترسون دائما من السوسيولوجي (أو المثقف الذي يقوم مقامه في الحالة التي يتشكل العلم فيها بعد أولا يمكنه أن يقوم بوظيفته كما هو الحال اليوم في الاتحاد السوفيتي). فهم يجمعون على الصمت لأنهم لا يرون جدوى الخوض من جديد في العالم الذي يهيمنون عليه، لأن العالم الاجتماعي بالنسبة إليهم يمثل على نمط "الأمر البديهي" (cela va de soi) كما يقول الفينومولوجيون. و هذا يعني بأن نوع العلوم الاجتماعية التي يمكن أن نقوم بها تتوقف على العلاقة التي نتعامل بها مع العالم الاجتماعي، و بالتالي الموقع الذي نحتله في هذا العالم. و بعبارة أدق فإن هذه العلاقة مع العالم تمثل في الوظيفة التي يعزوها الباحث، عن وعي أو بدون وعي، للسوسيولوجيا، و أعني للمارساته و التي تضبط استراتيجياته في البحث و تحدد المواضيع المختارة و المناهج المتبعة..الخ. قد يكون مرمانا فهم العالم الاجتماعي أو على العكس من ذلك اقتراح تقنيات تمكن من تسخيره لأهداف معينة، مستعملة السوسيولوجيا في خدمة تسيير النظام القائم. و تسهيلا للفهم لنأخذ مثالا بسيطا : السوسيولوجيا الدينية يمكنها أن تصبح بحثا ذا

مرمى ديني ينصب على موضوعات علمانية أي على المحددات الاجتماعية لممارسة الدين (في السلوك) أو عدمه، و كأننا أمام إحدى دراسات السوق التي تمكن من اخضاع الاستراتيجيات الدينية للمتاجرة بثروات الخلاص (biens de salut)، كما بإمكان هذه السوسيولوجية الدينية أن تتخذ كموضوع، على العكس من ذلك، فهم سير المجال الديني، الذي لا يكون فيه العلمانيون إلا أحد مظاهره، و ذلك باهتمامها بسير الكنيسة مثلا و الاستراتيجية ينبغي أن نعد من بينها البحوث السوسيولوجية (و التي قام بها في الأصل كاهن قانوني).

كثير من أولئك الذين يعتبرون أنفسهم رجال سوسيولوجيا (أو اقتصاد) ما هم إلا مهندسون اجتماعيون، وظيفتهم إمداد مديري المؤسسات الخاصة و الإدارية بالوصفات وتنظيم المعرفة العملية أو المتعاملة التي يتوفر عليها أعضاء الطبقة المهيمنة (مثلا رؤساء البنوك الكبرى التجارية) عن العالم الاجتماعي. إذ لم يعد ممكنا تسيير المجتمعات العصرية سيرا عشوائيا، فهم بحاجة إلى علم قادر على عقلنة السيطرة، بمعنى تدعيم الآليات التي تخولها و إضفاء المشروعية عليها في نفس الوقت : من البديهي أن هذا العلم يكشف عن قصوره في وظائفه العملية و سواء عند المهندسين الاجتماعيين أو مسيري الاقتصاد، لا يخولنا إعادة النظر في الأمور بصفة جذرية (فمثلا العلم الذي يتوفر لدى الرئيس – المدير العام للمقاولة البنكية. و الذي، من جوانب كثيرة، يكون أوسع من ذلك الذي يتوفر لدى عدد من السوسيولوجيين، هذا العلم يكشف عن عجزه أمام كونه يهدف إلى الرفع إلى أقصى حد من فوائد هذه المؤسسة).

فمن أمثلة هذا العلم الجزئي و المتميز، سوسيولوجية المنظمات أو "العلم السياسي" كما يدرس في "معهد العلوم السياسية"، بأدواته المفضلة، كقياس الرأي العام.

س : ألا ينزل التمييز الذي تفترضونه بين العلماء و المهندسين الاجتماعيين العلم منزلة من يقول بالفن للفن ؟

ج : لقد كثر اليوم – و يا للأسف – أولئك الذين يتوقف عليهم وجود السوسيولوجيا – أعني توفير ميزانيات، مناصب – ممن يتساءلون عن جدوى السوسيولوجيا. في حقيقة الأمر السوسيولوجيا تزداد حظوظها في تخييب الأمل أو إغاظة السلطات كلما قامت أحسن قيام بوظيفتها العلمية الخالصة، و التي لا تكمن في خدمة أي كان أو الخضوع لأية سلطة مقابل أجر و إنما من أجل فهم العالم الاجتماعي، ابتداء من السلطات ذاتها. هذه العملية ليست محايدة اجتماعيا و تؤدي بدون شك وظيفة اجتماعية : فما من سلطة إلا وتدين بشيء من نجاعتها (و ليس بالشيء اليسير) للجهل بالآليات التي تضبطها. فالعلم الذي يفترض مؤهلا نقديا هو بدوره نقدي و إلا لن يكون (علما).

س : أود الآن التعرض لمشكل العلاقات بين السوسيولوجيا و العلوم الاجتماعية المجاورة. لقد صدرتم كتابكم "التميز" (Distinction) بهذه الجملة : "هناك حالات قليلة تكون فيها السوسيولوجيا أشبه ما تكون بتحليل – نفسي – اجتماعي مثلما يحدث عندما تواجه موضوعا كالذوق". و يعقب هذه العبارة تحليلات متنوعة و جداول إحصائية و بيانات حول البحوث الميدانية، و لكن أيضا إلى جانب هذا تقومون بتحليلات "أدبية" كتلك التي نجدها عند بالزاك Balzac، زولا Zola و بروست Proust، فكيف تجمعون بين هذين الجانبين، بمعنى الجانب " العلمي" و الجانب "النفسي – الأدبي" ؟

ج : الكتاب هو نتاج محاولة لإدماج نمطين معرفين، الملاحظة الإثنوغرافية، التي لا يمكن أن تعتمد إلا على عدد قليل من الحالات الملاحظة مكانتها ضمن جملة الحالات الموجودة، هذا ما يتم مثلا عند وصف مائدة أكل شعبية و أخرى برجوازية، بالإبقاء على خصائصهما المميزة. فبالنسبة للغذاء الشعبي، تعطى الأولوية البينة للوظيفة، التي نلقيها في جميع أشكال الاستهلاك، فهنا نريد من الطعام أن يكون مغذيا "مقويا للجسم" مستبعدين الشكليات المفتعلة، و بالمثل فإننا نتوحى من الرياضة البدنية تقوية الجسم (العضلات البارزة). أما بالنسبة للغذاء

البرجوازي، فتعطى الأسبقية للشكل أو الأشكال التي تنطوي على نوع من الرقابة و الكبت للوظيفة، و الحرص على إضفاء الجمالية على كل شيء (بدء من الشهوانية كأجسام عارية خضعت لإعلاء و إنكار سيكولوجي (Dénégation) انتهاء بالفن الخالص الذي يعطي الأسبقية للشكل على حساب الوظيفة كما نعرف. أما فيما يتعلق بالتحليلات التي تنعت بالوظيفة أو أدهى من ذلك بـــ"الأدبية"، حسب تقسيمات قديمة، لهي أساسية في فهم، (بمعنى التفسير الكامل)، لما لا تعمل الإحصائيات إلا على إثباته متشابهة في ذلك لإحصائيات قياس الأمطار، فهي تسمح لنا بإدراك الأسباب التي توجد وراء الممارسات الملاحظة في مختلف المجالات.

س : لأعد إلى سؤالي، ما هي علاقتكم بالسيكولوجيا و علم النفس الاجتماعي؟

ج : إن العلم الاجتماعي لا يزال يتعثر حول مشكل الفرد و المجتمع.

و الواقع أن تقسيمات العلم الاجتماعي إلى علم نفس اجتماعي و سوسيولوجيا تكونت بفعل خطأ أولوي في التعريف (بالعلم الاجتماعي). بما أننا كنا سجيني فكرة التفرد البيولوجي، تلك الفكرة التي كنا نقبلها بداهة، لم نتمكن من أن ندرك أن المجتمع يوجد على شكلين متلازمين : من جهة المجالات الاجتماعية و ما تضمنه من مؤسسات تأخذ شكل الأشياء المادية : نصب، آثار، كتب..الخ، و من جهة أخرى المؤهلات المكتسبة، أساليب العيش أو الفعل الثابتة التي تتجسد في أجسامبيولوجية متفردة (هذا ما أسميه أبيتوس Habitus) فالجسم المثقف اجتماعيا (socialisé) (و هو ما نسميه الفرد أو الشخص) لا يتعارض مع المجتمع بل هو أحد حالات هذا الوجود (المجتمعي)، فالعلم الاجتماعي عليه أن يدرس في آن الحالتين معا العلاقة بينهما (مثلا اللغة و المؤهلات بالنسبة للغة، العملة و المواقف بالنسبة للزمن الذي إليه تداول العملة ...).

س : بعبارة أخرى فإن السيكولوجيا تظل بين البيولوجيا من جهة (التي تزودنا بالثوابت الأساسية : ككوننا جميعا قابلين للموت) و السوسيولوجيا من جهة

أخرى. ذلك أن السوسيولوجيا هي التي تدرس أشكال تطور هذه الثوابت و كيفية بنائها، و بالتالي اعتبار أن السوسيولوجيا لها الصلاحية في دراسة كل شيء، حتى ما يسمى الحياة الشخصية، الصداقة، الحب، الحياة الجنسية، ...الخ. و حينئذ لن يبقى مجال خاص بالسيكولوجيا.

ج : أوافقك تماما، ضد التصور الشائع الذي يقرن بين السوسيولوجيا و ا هو جماعي، يجب التنبيه إلى أن الجماعي يوجد مودعا في كل فرد شكل مؤهلات دائمة كالبنيات الذهنية. مثلا في كتابي "التميز" أعمل على إقامة علاقة تجريبية بين الطبقات الاجتماعية و منظومات التصنيف المنضوية فيها و التي، و إن كان يتم إنتاجها في التاريخ الجماعي، فإن اكتسابها يتم بفعل التاريخ الفردي، مثلا تلك التي يعتمد عليها في تصنيف الأذواق (ثقيل/خفيف، ساخن/بادر، لامع/باهت، جميل/قبيح ..الخ).

س : و لكن ما هو البيولوجي و السيكولوجي بالنسبة للسوسيولوجيا ؟

ج : السوسيولوجيا تأخذ البيولوجي و السيكولوجي كمعطى و تسعى جاهدة إلى إبراز كيف يستعمله العالم الاجتماعي و يحوله و يغير من شكله. فكون الإنسان له جسم واحد، و كون هذا الجسم فانيا يطرح على الجماعات مشاكل عسيرة.

س : أنتم أنفسكم تتكلمون عن أوصاف اثنوغرافية ؟

ج : إن التمييز بين الإثنولوجيا و السوسيولوجيا يوضح أتم الوضوح خطأ إقامة حدود فاصلة. فكما حاولت إبراز ذلك في كتابي "الحس العملي" (sens pratique) فإن هذا التمييز هو محض نتائج (الاستعماري) و ليس له أي تبرير منطقي.

س : و لكن أليس هناك اختلافات في المواقف واضحة أتم الوضوح بين الإثنولوجيا والسوسيولوجيا، ففي الأول يبدو أن الملاحظ يبقى خارج الموضوع و يسجل "في نهاية" مظاهر لا يعرف معناها. أما السوسيولوجيا، من جهته، يظهر أنه يتبنى وجهات نظر من يدرسهم.

ج : في الواقع أن العلاقة مع الموضوع التي تتحدثون عنها و التي أسميها "إغراقا في الموضوعية" (objectiviste) كثيرا ما ترد في الإثنولوجيا، لأنها تتلائم، دون شك، مع النظرة إلى "الغريب". و لكن الإثنولوجيين يوهموننا بأنهم يشاركون الأهالي تصوراتهم، تلك هي حالة الإثنولوجي المفتون أو الصوفي. لذا فيمكننا أن نذهب عكس ما تذهبون إليه تماما. فبعض السوسيولوجيين، لكونهم يشتغلون في غالب الأحيان بواسطة باحثين ميدانيين و ليس لهم أبدا أي اتصال بموضوع بحثهم، يكونون أكثر نزوعا إلى "الإغراق في الموضوعية" من الإثنولوجيين (إحدى الخصائل المهنية الأكثر شيوعا عند الإثنولوجيين، والتي يمكن أيضا أن تؤدي إلى أخطاء هي، على ما أظن، القدرة على إقامة علاقة فعلية مع الأشخاص موضوعات البحث، و هي علاقة تكون شرطا من شروط نجاح العمل الميداني) إضافة إلى ذلك، هناك المسافة الطبقية، التي لا تقل قوة عن المسافة الثقافية. لذلك فلا وجود لعلم أكثر لا إنسانية من ذلك

الذي تكون بنواحي كولومبيا (Columbia) بزعامة لازار سفيلد (Lazarsfeld) و الذي يضيف إلى مسافة الاستمارة الواسطة، الاستخدام الإحصائي الأعمى. إننا نفيد كثيرا بصدد علم ما و مناهجه و فحواه على غرار سوسيولوجيا العمل، بوصف دقيق لمركز عمل بعينه : مثلا هنا، التعارض بين الشخص موضوع بحث السوسيولوجيا البيروقراطية (و بالنسبة لكل المؤسسات الكبرى للبحث الإحصائي أو قياس الرأي العام) و مزود (informateur) الإثنولوجي بالمعطيات (المخبر) الذي هو شخصية معترف بها، إذ تتم مرافقته لمدة طويلة، بين الاستمارة المغلقة السطحية و المقابلة المعمقة، الخ. في الواقع، على المستوى المنهجي يتأرجح العلم الاجتماعي دائما في الإثنولوجيا كما في السوسيولوجيا بين الإغراق في الموضوعية (المتجسدة في البنيوية بالنسبة للإثنولوجيا) و الإغراق في الذاتية. في كتابي الأخير "الحس العملي" أحاول أن أبين أن هذين النمطين لبناء الموضوع هما كيفيتان للدخول في علاقة مع الموضوع، أي مع الآخر :

فإما أن تكون العلاقة تحليقا من فوق و نظرة من أعلى أو تحاول أن تكون مشاركة، فتظل مجرد علاقة وهمية، كما بينت ضرورة تجاوز هذا التعارض.

س: معنى هذا أنكم في نهاية الأمر تعارضون الإنشاء المغرق في الموضوعية الذي يضع النموذج محل الواقع مثلما تعارضون ميشيلي (Michelet) الذي يريد إحياء الماضي أو سارتر (Sartre) الذي يريد إدراك المعاني عن طريق فنومنولوجيا تبدو لكم تعسفية.

ج : تماما، فمثلا، وظائف الطقوس الاجتماعية هي أن تعفينا من كل ما نضعه تحت لفظ "معيش" حيث لا وجود له، دفعنا إلى ذلك الفكرة التي لا تخلو من تمركز على الذات و التي تقول بأنه ليس هناك أكثر جودا و كرما من أن نسقط ما نحياه في وعينا على "البدائي"، "الساحرة" أو "البيروليتاري". إن أحسن ما يمكن للسوسيولوجي عمله هو إخضاع ذاتيته للدراسة الموضوعية من كتابة و رسوم بيانية و تصميمات و خرائط و نماذج...الخ فمثلا أحاول أن أبين أننا نعتنا "البدائي" بأنه كذلك،لأننا لم نعرف كيف نتعرف من خلاله على أنفسنا عندما نتوقف عن التفكير علميا، أي ما نكون عليه في حياتنا العملية. إن أنماط التفكير المنطقية التي يقال عنها "بدائية" ليست بكل بساطة، إلا أنماط منطقية عملية، تلك التي ننهجها عندما نريد أن نحكم على لوحة أو قطعة موسيقية.

س : ألا ترتأون أن الاحتفاظ بفكرة المعيش تتعارض مع تفكيركم هذا ؟

ج : إن الذوات الاجتماعية ليست أشياء. و إلا لم يكن على دور كهايم أن يصر بهذه القوة على الدعوة إلى "معاملة الظواهر الاجتماعية كأشياء" لو كانت العلاقة مع المعطى هي الموقف التلقائي في الحياة العادية. إنه لبديهي أن هناك حقيقة موضوعية في كل ما هو ذاتي، حتى الأكثر تناقضا مه الحقيقة الموضوعية التي علينا تشييدها ضده. فالوهم (كالاعتقاد مثلا) ليس له، بما هو كذلك، وجود وهمي. إننا نخون الموضوعية إذا ما عاملنا الذوات الاجتماعية كما لو لم تكن لها تمثلات و تجارب عن الواقع يبينها العلم – كالطبقات الاجتماعية مثلا. يجب أن نرقى إذن

إلى موضوعية أسمى، تفسح مجالا لهذه الذاتية كبعد من أبعادها. فأعضاء المجتمع يعيشون وعيا لا يعكس الحقيقة التامة لما يقومون به و لكن يشكل مع ذلك جزءا من حقيقة ممارساتهم العملية. لنأخذ مثلا رئيسا ما يصرح أثناء اجتماع عمومي : "رفعت الجلسة" لماذا يصبح لهذه العبارة نفوذ ؟ ليست الكلمات هي التي تعمل عملها بنوع من القوة السحرية، كل ما هنالك هو أنه في ظروف اجتماعية معينة، في مجال معين، بعض الكلمات تكتسب قوة. إنها تستمد قوتها من مؤسسة لها منطقها الخاص و ألقبها و مراتبها و درجاتها و لغتها و إيمان المساهمين فيها... فالسوسيولوجيا لها مفعول اختزالي و هي تعمل على فضح العلاقات و تعرية الزعامات. ليست الكلمة (إذن) هي التي تفعل فعلها، كما يعتقد ذلك أوستان Austin، و لا الشخص الذي يفوته بها و إنما هي المؤسسة.

س : لكي نحيط على الوجه الأكمل بميدان السوسيولوجيا – و هذا ما يدعونا إله غنى أعمالك و تنوع موضوعاتها، ربما وجب فحص مسألة علاقاتها مع الاقتصاد. فأعمالكم لا تبعد، على الأقل من خلال المواضيع المعالجة، عن بعض التحليلات التي تقوم بها المدرسة الكلاسيكية – المحدثة كتلك التي نجدها عند مدرسة شيكاغو (Ecole de Chicago) و كاري بيكر (Garry Becker). و بالفعل فيبدو أن المقارنة بين هذه و تلك لا تخلو من أهمية فهي تسمح لنا بأن ندرك كيف أن عملين مختلفين أو بالأحرى أسلوبين في تصور كل من السوسيولوجيا و الاقتصاد، يمكنهما بناء نفس المواضيع، مثل التوالد، الزواج و بصفة خاصة الاستثمار المدرسي.

ج : ستذهب بنا المناقشة بعيدا و ستؤدي بنا إلى أسس الأنثولوجيا نفسها. و لكني سأقتصر على كلمة "استثمار"، التي غالبا ما أستعملها بنوع من التخصيص فأقول لإبراز الاختلاف بالمعنى الاقتصادي المدرسة الحدية – المحدثة (néo-marginalistes) شكلا معينا من المصالح، الاستثمارات، أساسا لكل التصرفات الاجتماعية، و لكنني لا أشترك مع هؤلاء الاقتصاديين إلا في استعمال الكلمات

وحدها، فالمصلحة التي أعنيها أنا لا شأن لها بالمنفعة الذاتية (Self interest) التي يتحدث عنها آدام سميث (Adam Smith) أو الأنانية (Selfishness) التي يفترضها البعض كخاصية عامة من صميم "الطبيعة الإنسانية".

الاقتصاديون لا يعرفون إلا هذا النوع من المنفعة، بمعنى منفعة لا تاريخية، طبيعية، كونية و جوهرية (و هي ليست في النهاية إلا تعميما (Universalisation) لا شعوريا للمصلحة التي يولدها الاقتصاد الرأسمالي و يقوم عليها، فليس من قبيل الصدفة أنهم لا يستطيعون التخلص من هذه النزعة الطبيعية (Naturalisme) إلا بالاستنجاد بالسوسيولوجيا كما هو الأمر عند كاري بيكر (G. Becker) في مقال عنوانه الإيثار Altruism، الأثرة Egoism و القدرات البيولوجية (Genetic fitners) في (Journal) of economic litterature sept 76 : فهو يذهب إلى أن "المنفعة الذاتية" و كذا "الإيثار إزاء الخلف" و استعدادات دائمة أخرى (يفترضها عامة مثل الإنسان الاقتصادي (Hommo-economicus) تجد تفسيرها في رسوخ أكثر السمات تكيفا عبر الزمن.

و الواقع أن افتراض شكل من أشكال المنفعة أو الوظيفة أساسا لكل مؤسسة اجتماعية أو ممارسة ليس إلا كيفية خاصة يتخذها مبدأ السبب الكافي في العلوم الاجتماعية : فهذا المبدأ الذي تنطوي عليه كل رغبة في التفسير و هي ما يشكل علم الإنسان، يعني أن هناك علة أو سببا يسمح بتفسير ممارسة أو مؤسسة ما و إدراك سبب وجودها و لما هي عليه على هذا النحو دون آخر.

هذه المنفعة أو الوظيفة ليست طبيعية و لا عامة، عكس ما يظنه الاقتصاديون الكلاسيكيون – المحدثون الذين لا يشكل الإنسان – الاقتصادي عندهم إلا تعميما للإنسان – الرأسمالي (Hommo-capitalicus) (و هم يبررون هذا التعميم بالبقاء للأصلح). إن فائدة الإثنولوجيا و التاريخ المقارن هي إبراز أن المفعول السحري – الاجتماعي الخالص للمؤسسة يمكنه أن يحول أي

شيء إلى مصلحة و منفعة حقيقية، أي إلى استثمار يجد تعويضه المادي، عاجلا أو آجلا، من لدن اقتصاد ما. و هذا أيضا من بين الأشياء التي كان ماكس فيبر (M. weber) على علم بها، فهو يذهب إلى أنه باستطاعتنا إنتاج تصرفات منتظمة، أي اقتصادية و ممارسات تؤدي إلى الإفلاس ظاهريا – لشدة ما هي مترفعة عن كل منفعة مادية – لا أجد لها معنى من الناحية الاقتصادية بالمعنى الذي يعرفه الاقتصاديون، من ستيوارت ميل (Stuart Mill) إلى بيكر (Becker). و بالرغم من ذلك فبإمكاننا أن نبين أن التصرفات التي لا معنى لها إطلاقا في إطار الاقتصاد الرأسمالي، تقوم على تشكيل معقول من أشكال المنفعة (مثلا المنفعة في أن نكون فوق الظنون) و يمكن بالتالي أن تكون موضوع علم اقتصادي.

فالاستثمار – أو الدافع – هو الميل إلى سلوك (بشكل معين) يتولد داخل العلاقة التي تربط المجال من حيث هو نسيج من العلاقات تتشابك حول محور بعينه un enjeu و حول أبيتوس (habitus) أي منظومة من المؤهلات تلائم هذا النسيج، و تقدر على الدخول فيه و الاستفادة منه يقولون دائما إن الحكمة هي إمكانية التخلص و عدم الإنسياق مع اللعبة. الاستثمار هو الميل إلى الدخول في اللعبة، في استثمار الرهن (La mise) داخلها، الذي تولده و تفترضه اللعبة نفسها (كما نراه مثلا في لعبة الثقافة التي لا ندخلها حقيقة إلا بالولادة، بمعنى بتفويض من استثمار أسروي. إن قيمة الاستثمار لا تقاس فقط بقيمته الاقتصادية بالمعنى الاقتصادي و يكفي برهانا على ذلك أن نتذكر ما يعنيه الاستثمار المدرسي في مجتمعاتنا الغربية و الذي يجد حدوده في الأقسام التمهيدية للمدارس الكبرى، حتى ندرك أن المؤسسة قادرة على إنتاج الاستثمار بل و في هذه الحالة حتى الإستثمار المضاعف (surinvestissement)، الذي يشكل شرطا لسير المؤسسة، و بإمكاننا أن نثبت ما سبق بكيفية لا تقل وضوحا بصدد أي شكل من الأشكال التي يتخذها المقدس : فتجربة المقدس، تفترض هي أيضا بشكل متلازم الأبيتوس الذي

يوجد الموضوعات المقدسة بما هي كذلك و الموضوعات التي تتطلب موضوعيا طرقا تفرض في موضوعاتها قداسة (هذا يصدق على الفن كذلك في مجتمعاتنا الغربية). بعبارة أخرى فإن الدافع أو الاستثمار ليس خاصية طبيعية بل إنه يقوم داخل العلاقة التاريخية التي تربط مجالا و أبيتوس، فهو نتاج المجال الذي يمنح للمجال قدرته على أن يكون حافزا، إنه النتيجة التاريخية للتوافق بين شكلين من أشكال تحقق الاجتماعي، أو التاريخ في الأشياء بفعل المؤسسة و في الأجسام بفعل التجسد.

س : و لكن أليست هذه الأنثولوجيا العامة التي تقترحونها، شكلا من أشكال بناء الأنساق و المنظومات التي تطمح إليه الفلسفة، و لكن هذه المرة بأدوات العلم ؟ أو على الأقل، ألا تطمح السوسيولوجيا عندكم إلى تأسيس باقي العلوم الاجتماعية

ج : أعتقد أن السوسيولوجيين، بدافع تمثل غير صحيح للعلمية، سعوا إلى تخصص سابق لأوانه. فالحالات التي يشكل فيها تقسيم الموضوع حاجزا دون الفهم العلمي، حالات لا حاصر لها : لا أتكلم إلا على ما أعرفه جيدا، سأسوق على سبيل المثال الفصل بين سوسيولوجية الثقافة و سوسيولوجية التربية أو اقتصاد التربية و سوسيولوجية التربية. لا يتعلق الأمر بالبقاء باستمرار عند الخطاب الشامل حول كل الأمور، ذلك الخطاب الذي كانت تمارسه الفلسفة الاجتماعية و الذي لا يزال ساري المفعول إلى اليوم، خصوصا في فرنسا، حيث تجد التنبؤات العلمية (بعد) رواجا و سوقا محمية. و لكن أظن أنه لا يوجد علم للإنسان لا يعتمد، وعيا أو بدون وعي، اثنولوجيا، و مع إرجاء الطموح للتوصل إلى نظرية عامة للعالم الاجتماعي إلى المستقبل، لا يمكن أن نخوض في البحث العلمي دون الاعتماد، على الأقل، على ما يسميه إمرلاكاطوس Imrelakatos) "برنامج البحث العلمي" بمعنى شبكة من النظريات المتداخلة (interconnectées). فكما رأينا مع بيكر Becker، التساؤل النظري، و حتى أكثر التساؤلات النظرية بساطة، لها الفضل في أن تنقل النظريات إلى حالة

الوضوح أي أن ترفعها إلى المستوى النقدي، و هاته النظريات لابد أن يعتمدها الباحثون في ممارساتهم و هي لا تكون غالبا إلا إسقاطا وهميا لعلاقاتهم مع العالم الاجتماعي.

خصائص الحقول

يقدم كل حقل CHAMP نفسه إلى الإدراك المتزامن SYNCHRONIQUE (الآني). بوصفه حيزا تنتظم عناصره في بنية من المواقع ومن المراكز التي تعتمد خصائصها على مكانها في هذا الحيز والتي يمكن تحليلها بمعزل عن الصفات المميزة لشاغليها (فهي محددة جزئيا بواسطة الموقع).

هناك قوانين عامة للحقول فمجالات شديدة الاختلاف مثل مجال السياسة ومجال الفلسفة ومجال الدين لها مع ذلك قوانين لا متغيرة (ثابتة) من حيث السيرورة (و هذا ما يجعل مشروع نظرية عامة بعيدا عن الجنون، و يجعل من المستطاع بدءا من الآن الإفادة مما نفهمه عن سيرورة كل مجال معين لطرح الأسئلة و لتفسير مجالات أخرى، متجاوزين بذلك النقضية القاتلة بين الدراسة المفردة المكثفة لتفاصيل حالة خاصة MONOGRAPHIE IDÉOGRAPHIQUE و النظرية الشكلانية الفارغة). و كل مرة يدرس فيها مجال جديد، سواء أكان مجال فقه اللغة في القرن التاسع عشر أو ابتكار الأزياء (الموضة) اليوم أو الدين في العصر الوسيط تكتشف سمات نوعية، تخص مجالا معينا، و في الوقت نفسه تدفع إلى تقدم المعرفة بالآليات الشاملة للمجالات التي تأخذ طابعا نوعيا تبعا لمتغيرات ثانوية. فعلى سبيل المثال تؤدي المتغيرات القومية إلى أن تجعل آليات عامة مثل الصراع بين المطالبين بالسلطة و المسيطرين عليها تأخذ أشكالا مختلفة، و لكن من المعروف أنه في كل مجال سنجد صراعا، ينبغي أن نبحث كل مرة عن أشكاله النوعية بين القادم الجديد الذي يحاول أن يقتحم مغاليق حق الدخول، و بين صاحب السيطرة الذي يحاول الدفاع عن الاحتكار و استبعاد المنافسة (المزاحمة).

و حينما يتعلق الأمر بالمجال العلمي، فإن المجال يتحدد بين أشياء أخرى بتحديده الرهانات و المصالح النوعية التي لا يمكن اختزالها إلى رهانات و مصالح خاصة بمجالات أخرى (فليس من المستطاع أن نجعل فيلسوفا يتسابق على رهان علماء الجغرافيا)، و لا يدركها كل من ليس معدا مدربا للدخول في هذا المجال (فكل زمرة من المصالح ستتبع عدم الاكتراث بالمصالح الأخرى و الاستثمارات الأخرى، التي تصبح مكرسة على هذا النحو لأن تدرك بوصفها لا معقولة معتوهة أو جليلة منزهة عن الغرض)، و لكي يعمل مجال ما ينبغي أن تكون هناك رهانات و لاعبون مستعدون لأن يلعبوا اللعبة و مزودون بالتطبع الذي يتضمن معرفة القوانين الباطنة للعبة و الهانات ..الخ و الاعتراف بها.

فتطبيع فقيه اللغة (محقق النصوص) Philologue هو في آن معا "حرفة"، و رأس مال من التقنيات و من المراجع، و مجموع متناسق من المعتقدات، مثل النزوع إلى إيلاء قدر من الأهمية للهوامش مماثل للمتون، و هي صفات تتعلق بالتاريخ (القومي و العالمي) الخاص بهذا الفرع من التخصص، و بموقعه (الوسيط) في تراتب التخصصات، و التي هي في آن معا شرط سيرورة المجال و نتاج هذه السيرورة (و لكن ليس على نحو متكامل : فالمجال المعين يستطيع أن يكتفي باستقبال و تكريس نمط معين من التطبع قد سبق تشكيله بالكامل إلى هذه الدرجة أو تلك).

إن بنية المجال هي حالة état لعلاقة القوة بين العناصر الفاعلة أو المؤسسات المشتبكة في الصراع، أو إذا كان ذلك أفضل، هي حالة لتوزيع رأس المال النوعي الذي تراكم في مجرى الصراعات السابقة و أصبح يوج الاستراتيجية التالية. و هذه البنية التي هي مصدر الاستراتيجية الموجهة إلى تحويلها، هي نفسها مشاركة دائما في اللعبة : فالصراعات التي يكون المجال مسرحا لها يصير رهانها احتكار العنف الشرعي (سلطة نوعية) و هو الصفة المميزة للمجال المعين، و يعني ذلك في النهاية الحفاظ على بنية توزيع رأس

المال النوعي أو تدميرها (و الكلام عن رأس الال النوعي يعني ما يساويه رأس المال في علاقته بمجال معين، و من ثم داخل هذا المجال و أنه لا يقبل التحويل إلى نوع آخر من رأس المال إلا في شروط معينة. و يكفيكم على سبيل المثال التفكير في إخفاق بيير كاردان Cardin حينما حاول أن يحول إلى الثقافة الراقية رأس مال قد تراكم في مجال الأزياء الراقية. (و قد وجد أحد نقاد الفن من واجبه أن يؤكد أخيرا تفوقه البنيوي كعضو في مجال أكثر شرعية بنيوية، بقوله إن كل ما فعله كاردان في مادة الفن الشرعي كان بغيضا فارضا على رأس ماله أعلى سعر فائدة و أعلى ضريبة للتحول إلى ما لا يلائمه).

و هؤلاء الذين يحتكرون (بالكامل إلى حد ما) الرأسمالي النوعي في حالة متعينة من علاقة القوة، و هو أساس السلطة أو النفوذ النوعي المميز لمجال ما، يميلون إلى استراتيجية المحافظة، فهم في مجالات إنتاج السلع الثقافية يميلون إلى الدفاع عن الأصولية (الأرثوذكسية Orthodoxie أي المعتقدات التي يعلن أصحابها عن أنها قومية و معيارية). على حين أن الأقل تزودا برأس المال (و هم في أغلب الأحوال القادمون الجدد كذلك و من ثم فهم الأحدث سنا) يميلون إلى استراتيجيات التدمير، استراتيجيات الهرطقة hérésie (اختيار يرفض اتباع المذهب المقر)، و هذه الهرطقة و الآراء المغايرة hétérodoxie باعتبارها قطيعة نقدية مرتبطة على الأغلب بأزمة العقيدة السائدة doxa (معضلة الخيار بين تأكيد العقيدة السائدة أو تعديلها بالشك و الإنكار و الافتراضات المضادة) هي التي تجعل المسيطرين يخرجون من صمتهم، كما تفرض عليهم أن ينتجوا الخطاب الدفاعي عن الأصولية (الأرثوذكسية) الفكر المستقيم اليميني (كلمة droite الفرنسية تعني المستقيم و تعني اليمين) الهادف إلى استرجاع و تدعيم ما يغادل التمسك الصامت بالعقيدة.

و ثمة خاصية أخرى للمجال كانت مرئية على نحو أقل : فكل الذين ينغمسون في مجال ما يجمعهم معا عدد معين من المصالح الأساسية أي كل

ما هو مرتبط بوجود المجال في ذاته، و من هنا ثمة تواطؤ موضوعي أساسي ضمني وراء كل التناحرات و قد ينسى المرء أن الصراع يفترض اتفاقا بين المتناحرين حول ما يستحق الصراع، و حول ما هو مسكوت عنه مكبوت في البديهي، متروك في حالة العقيدة السائدة، أي كل ما يشكل المجال نفسه، اللعب و الرهانات و كل الافتراضات المسبقة التي تقبل في صمت، حتى دون معرفتها، بواسطة واقعة اللعب و الدخول في اللعبة. و يسهم كل الذين يشاركون في الصراع إعادة إنتاج اللعبة بإسهام مهم إلى هذه الدرجة أو تلك و قد يكون بالكامل حسب المجالات في إنتاج الإيمان بقيمة الرهانات. أما القادمون الجدد فيجب أن يدفعوا مقابل حق الدخول، و هو عبارة عن الاعتراف بقيمة اللعبة (إن اختيار الأعضاء الجدد و ضمهم يولي دائما كثيرا من الاهتمام إلى مؤشرات الانغماس في اللعبة و الاستثمار)، و المعرفة (العملية) بمبادئ سيرورة اللعب. إنهم مكرسون لاستراتيجيات التقويض و لكنهم يظلون قابعين في حدود معينة خشية الاستعباد. و في الواقع إن الثورات الجزئية التي تكون المجالات على نحو مستمر مسرحا لها للتساؤل أسس اللعبة نفسها و إطار بديهياتها الجوهري، و قاعدة المعتقدات النهائية التي ترتكز عليها اللعبة بأكملها، و على العكس، ففي مجالات انتاج السلع الثقافية، الدين و الأدب و الفن ينسب التدمير الهرطقي نفسه إلى المنابع و الأصول و الروح و حقيقة اللعبة و يطالب بالرجوع إليها ضد فرض الابتذال و الانحطاط اللذين جعلهما موضوعا له (و أحد العوامل التي تصنع الألعاب المختلفة في مأمن من الثورات الشاملة التي طبيعتها أن تدمر لا المسيطرين و السيطرة فحسب بل اللعبة نفسها، و تلك على وجه الدقة هي أهمية الاستثمار في الوقت و الجهود ... الخ التي يفترضها الدخول في اللعبة و التي هي مثل الاختبارات الشاقة في طقوس الانتقال (تعبير للأنثروبولوجي فان جنيب Van Geunep يعني به الطقوس التي يمارسها الأفراد عند اجتيازهم مرحلة من مراحل النمو البيولوجي أو الاجتماعي) تسهم في جعل التدمير الخالص البسيط للعبة غير قابل للتفكير فيه عمليا. و هكذا فإن قطاعات بأكملها من الثقافة و على

الأخص قطاع فقهاء اللغة (محققو النصوص)- فأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في الفيلولوجيا – قد أنقذها الشعر الباهظ الذي يفترضه امتلاك معارف ضرورية لتدمير أشكالها).

و عبر المعرفة العملية بمبادئ اللعبة المتطلبة ضمنا من القادمين الجدد، يصير كل تاريخ اللعبة و كل ماضيها حاضرا في كل فعل من أفعال اللعب. و ليس من قبيل المصادفة أن من المؤشرات التي تحوز أكبر ثقة عند تشكيل مجال ما، حضور آثار من العلاقة الموضوعية (و أحيانا تكون واعية) داخل عمل معين بينه و بين الأعمال الأخرى ماضية أو معاصرة، و ظهور كتلة من حفظة أوجه حياة الشخصيات – كتاب السير الشخصية – و أعمال يقدمها فقهاء اللغة و مؤرخو الفن و الأدب الذين يشرعون في تصنيف المخططات الإجمالية، و اللوحات و المخططات و في تصويبها (إن حق "التصويب" هو العنف الشرعي لمحقق النصوص)، و في فك رموزها ..الخ و وجود الكثيرين الذين يتفقون على المحافظة على ما يظهر في المجال، الذين لهم مصلحة في المحافظة و البقاء سالمين و من المؤشرات الأخرى لسيرورة المجال بوصفه كذلك، هو ذلك الأثر لتاريخ المجال في النتاج (و حتى في حياة المنتج). و ينبغي القيام بتحليل على غرار التقابل بالتضاد a contrario لتاريخ العلاقات بين رسام يقال عنه "ساذج" (أي دخل المجال جزئيا عن طريق الخطأ دون أن يؤدي حق الدخول و دون أن يدفع الرسم المقرر) مثل موظف الجمرك روسو Rousseau (هنري روسو 1844-1810 الفنان الذي علم نفسه بنفسه) و قد أشاد بموهبته فنانون معارضون مثل جاري Garry و أبولينيز apollinaire (1) أو بيكاسو Picasso و قد لعبوا (بالمعنى الصحيح للعب بكل أنواع الحيل المليئة بالرغبة في فعل الخير إلى هذه الدرجة أو تلك) بهذا الذي لم يكن يعرف كيف يلعب اللعبة، و الذي كان يحلم بأن يكون بوجيرو Bougereau أو بونا Bonnat (مصور الوجوه) في عصر المستقبلية و التكعيبية، و الذي كسر اللعبة، و لكن رغما عن

إرادته و دون أن يعرف ذلك في جميع الأحوال، مثل الكلب في لعبة الأوتاد حيث لا يحتاجه أحد، دون وعي بالكامل على العكس من أمثال دوشان Duchamp (2) أو حتى ساتي Satie (3) الذين يعرفون منطق المجال بما يكفي لتحديه و استغلاله في نفس الوقت. و ينبغي أيضا تحليل تاريخ التفسير اللاحق للعمل، الذي يستفيد من تعدد التفسيرات فيدمجها في النسق أي في التاريخ، و يبذل جهده لكي يجعل من تصوير عطلة الأحد (و المبادئ الجمالية لتصويرها مثل مبدأ المواجهة الفظة و هي نفس المبادئ التي ينغمس فيها أعضاء الطبقات الشعبية عند التقاط صورهم الفوتوغرافية) عملا ثوريا واعيا و ملهما.

وهناك أثر للمجال لا يعود المرء قادرا على فهم عمل ما (و القيمة أي الاعتقاد المناط به) دون معرفة تاريخ المجال الخاص بإنتاج العمل. و الذي بواسطته يجد الشراح و المعقبون و المفسرون و المؤرخون و أساتذة العلامات و محققو النصوص الآخرون مبررا لوجودهم باعتبارهم القادرين على تبرير العمل و على الاعتراف بالقيمة التي هو موضوع لها. إن سوسيولوجيا الفن أو الأدب التي تربط على نحو مباشر بين الأعمال و بين وضع منتجيها أو زبائنهم في الحيز الاجتماعي (الطبقة الاجتماعية) دون اعتبار لوضعهم في مجال الانتاج (و هو اختزال لا تبرير له عند الاقتضاء إلا لدى "السذج") تخفي كل ما يدين به العمل إلى المجال و إلى تاريخه أي بدقة شديدة ما يجعل منه عملا من أعمال الفن أو العلم أو الفلسفة. إن مشكلة فلسفية (أو علمية ...الخ) شرعية هي مشكلة يعترف بها الفلاسفة (أو العلماء ...الخ) بالمعنى المزدوج بوصفها شرعية (لأنها مسجلة في منطق تاريخ المجال و في نصوصه المؤسسة تاريخيا من أجل الانتماء إلى المجال و بواسطته و هي بموجب السلطة النوعية التي يعترف لها بها تمتلك كل الفرص لأن يعترف بها على نطاق واسع باعتبارها شرعيته و هنا أيضا السدج هاديا منيرا. إنهم قوم يجدون أنفسهم و قد قذف بهم باسم إشكالية يجهلون عنها كل شيئ إلى وضع رسامين أو كتاب (و ثوريين بالإضافة إلى ذلك) :

التداعيات اللفظية لجان بيير بريسيه Jean pierre Brisset، متتابعاته الطويلة من الصيغ اللغوية و من الجناس و من الكلام المبتور التي يقدمها إلى الجمعيات العلمية و إلى المؤتمرات الأكاديمية، تظل بخطأ في المجال يشهد على براءته بمثابة تخيلات جامحة لمخبول، و لكن قد يرى فيها أول الأمر إن كانت "باتا فيزيقا" (4) جاري Jarry و الجناس اللفظي لأبولينير أو دوشان، و الكتابة الآلية التلقائية للسرياليين قد خلقت الإشكالية التي تستطيع تلك الكتابات بالرجوع إليها أن تكتسب معنى. إن شعراء الموضوع المحسوس و رسامي الموضوع المحسوس، و الثوريين الموضوعيين يسمحون بأن نلاحظ في الحالة المعزولة سلطة تحويل طبيعة المجال. و لا تمارس تلك السلطة بقدر أقل و إن يمكن على نحو أقل جاذبية و أكثر رسوخا على أعمال المحترفين الذين يعرفون اللعبة أي تاريخ اللعبة و الإشكالية و يعرفون ماذا يفعلون (و هذا دون أن نقول شيئا عن الهازئين)، بحيث أن الضرورة التي تكشف عنها القراءة التبجيلية لا تظهر بجلاء بديهي كأنها نتاج مصادفة موضوعية (و هي كذلك أيضا، و بالمثل بمقدار ما تفترض انسجاما عجائبيا بين استعداد فلسفي و حالة من التوقعات المسجلة في المجال). إهيدجر، و هو في الأغلب نظير لإشبنجلر أو ليونجر Junger مر بمعوجة المجال الفلسفي. و كان عليه أن تقول أشياء بسيطة جدا : التقنية إنها انحدار الغرب، فمنذ زمن ديكارت يسير كل شيئ من السيئ إلى الأسوء ..الخ. إن المجال أو بطريقة أد تطبع المحترف المتوافق مقدما مع مقتضيات المجال (على سبيل المثال مع العريف السائد للإشكالية الشرعية) سيعمل كأداة للتفسير و الترجمة : و أن تكون "ثوريا محافظا" في الفلسفة معناه تثوير صورة الفلسفة الكانطية بتوضيح أن جذر تلك الفلسفة التي تقدم نفسها باعتبارها نقدا للميتافيزيقيا تمكن الميتافيزيقيا. و هذا التحويل النقي للمشاكل و التيمات ليس نتاجا لبحث واع (و محسوب بطريقة متشككة)، و لكنه نتيجة آلية للانتماء إلى المجال للتمكن من التاريخ النوعي للمجال الذي يلزم عن ذلك. فأن تكون فيلسوفا معناه الإحاطة بكل

ما ينبغي الإحاطة به من تاريخ الفلسفة لكي تعرف كيف تسلك بوصفك فيلسوفا في مجال فلسفي.

و يجب أن أصر مرة ثانية على حقيقة أن مبدأ الاستراتيجية الفلسفية (أو الأدبية..الخ) ليس الحساب المدقق المتشكك، أو البحث الواعي عن أكبر ربح نوعي، بل علاقة غير واعية بين تطبع و مجال. فالاستراتيجية التي أتكلم عنها هي أفعال موجهة موضوعيا بالنسبة إلى غايات تستطيع ألا تكون الغايات المستهدفة ذاتيا. و تهدف نظرية التطبيع إلى تأسيس إمكان علم للمارسات التي تتجنب البديلين : النزعة الغائية و النزعة الآلية (الميكانيكية). (إن كلمة مصلحة التي استخدمتها مرارا هي أيضا شديدة الخطر، لأنها تغامر باستدعاء نزعة نفعية هي درجة الصفر في السوسيولوجيا. و بعد قول هذا، فإن السوسيولوجيا لا تستطيع أن تستغني عن بديهية المصلحة، مفهومة باعتبارها الاستثمار النوعي في الرهانات، الذي هو في آن معا شرط و نتاج الانتماء إلى مجال ما). أما التطبع، نظام الإستعدادات المكتسبة بواسطة التدرب (الاحتراف) المضمر او الصريح الذي يعمل باعتباره نظاما للخطط المولدة فهو مولد لاستراتيجيات تستطيع أن تكون مطابقة على نحو موضوعي لمصالح موضوعية لمؤلفيها دون أن تكون مدركة على نحو صريح باعتبارها تستهدف تلك الغاية. و تلزم إعادة تربية كاملة لتجنب بديلين هما الغائية الساذجة (التي تذهب إلى القول على سبيل المثال أن "الثورة" التي قادت أبولينير إلى انتهاكات قصائده "يوم الإثنين شارع كريستين"، و مذهبه الشعري الجاهز ready made قد ألهمها اهتمامه بأن يضع نفسه على رأس الحركة التي افتتحها سندرار Cendrars (5) و المستقبليون أو ديلوني Delaunay (6)، و تجنب التفسير الميكانيكي (الذي يعتبر هذا التحويل أثرا مباشرا بسيطا لمحددات اجتماعية). و حينما لا يكون أمام الباحثين إلا أن يدعوا تطبعهم بعمل لكي يطيعوا الضرورة الكامنة في المجال و يلبوا المقتضيات التي توجد منقوشة داخله (و هذا ما يحدد لكل مجال تعريف الامتياز)، فإنهم لا يكونون

واعين على الإطلاق بالتضحية من أجل واجب ما، بل و بدرجة أقل بالبحث عن أكبر ربح (نوعي). و سيكون لديهم إذن ذلك الربح الإضافي الماثل في أن يروا أنفسهم و أن يراهم الناس باعتبارهم منزهين تماما عن الأغراض.

درس حول الدرس

ربما كان ينبغي أن نلقي أي درس، حتى ولو كان درسا افتتاحيا، دون أن نتساءل بأي حق نقوم بذلك الإلقاء. فهاهي المؤسسة قائمة لتوفر علينا عناء ذلك التساؤل، ولتدفع عنا القلق الذي يسببه الاعتباط الذي يطبع البدايات. إن الدرس الافتتاحي، بما هو ندرج ضمن شعائر التبريز والتنصيب وبما هو بداية وافتتاح، يحقق رمزيا، عملية التفويض التي بمقتضاها يسمح للاستناد الجديد أن يتكلم بنوع من النفوذ فتجعل من كلامه خطابا مشروعا يصدر عمن يعينه الأمر. وأن الفعل السحري لهذه العملية الشعائرية يتولد عن التبادل الصامت اللامرئي بين المرشح الجديد الذي يلقى خطابه أمام الملأ وبين الأساتذة المجتمعين ليشهدوا بحضورهم الجماعي على أن هذا الكلام، لما يحظى به من عناية كبار الأساتذة قد اصبح، بفعل ذلك، قابلا لأن يتقبله الجميع، أي أنه أصبح كلاما مبرزا. ولكن، ربما كان من الأفضل ألا نذهب بعيدا في هذا الدرس الافتتاحي حول الدرس الافتتاحي : فالسوسيولوجيا، وهي العلم الذي يهتم بالمؤسسة ويدرس العلاقة بالمؤسسة، كيفما كانت تلك العلاقة تفترض وتخلق مسافة لا يمكن قهرها، بل ولا يمكن تحملها في بعض الأحيان، تفصلنا عن المؤسسة، وليس عن المؤسسة وحدها. إن السوسيولوجيا تنتزعنا من حالة البراءة التي تسمح لنا بأن نقوم بكامل الرضى بما تنتظره منا المؤسسة.

إن الدرس حول الدرس، هذا الخطاب الذي ينكب على نفسه في فعل الخطاب ذاته، سواء اعتبرناه رمزا أو مثالا، فإن من فضله على الأقل أن يبرز لنا سمة من أهم السمات التي تتميز بها السوسيولوجيا كما أفهمها : وهي أن جميع

القضايا التي يقررها هذا العلم يمكن، ويجب أن تصدق على الذات التي تصنع العلم. فعندما يعجز عالم الاجتماع عن خلق تلك المسافة التي تنشئ الموضوعية، أي المسافة النقدية يعطي كامل الحق لأولئك الذين ينظرون إليه كأنه مفتش مرعب قادر على الممارسة الرمزية لجميع أعمال الشرطة.

لا نقتحم ميدان السوسيولوجيا دون أن نقطع أواصر الصلة التي تشدنا عادة إلى جماعات معينة، ونتخلى عن العقائد التي تشكل انتماءنا وتحدده، ونتنكر لجميع الانتماءات والارتباطات. وهكذا فإن عالم الاجتماع الذي ينحدر مما نسميه الشعب فيرقى إلى ما نسميه النخبة لا يستطيع أن يبلغ درجة الوعي الخاص، الذي يرتبط بجميع أنواع الاغتراب الاجتماعي، ما لم يفضح المفهوم الشعوبي عن الشعب، ذلك المفهوم الذي لا يخدع إلا أصحابه، وكذا المفهوم النخبوي عن النخبة الذي صيغ بحيث يخدع القائلين به وغيرهم في ذات الوقت.

إن الذي يعتبر أن الانتماء الاجتماعي للعالم عقبة كأداء تحول دون قيام سوسيولوجيا علمية، ينسى أن عالم الاجتماع يجد علاجا ضد التحديدات الاجتماعية في العلم الذي تصبح بفضله تلك التحديدات جلية واعية. إن سوسيولوجيا السوسيولوجيا التي تسمح بتسخير مكتسبات العلم الجاهز ضد العلم الناشئ أداة لا مندوحة عنها في يد المنهج السوسيولوجي : فنحن نصنع العلم، والسوسيولوجيا على الخصوص، ضد تكوينه بقدر ما نصنعه عند تكوينه. والتاريخ وحده هو الذي في استطاعته أن يخلصنا من التاريخ. وهكذا فإن التاريخ الاجتماعي للعلم الاجتماعي، شريطة أن ننظر إليه أيضا كعلم للاشعور يشكل، في الصورة التي أرستها الابستومولوجيا التاريخية التي تمثلها (ج كانغيلم) و(م.فوكو)، وسيلة من أهم الوسائل للتخلص من التاريخ، وأعني من هيمنة ماض مجسد يعيش في الحاضر أو هيمنة حاضر يمضي بمجرد ظهوره أن الموضة الثقافية. إذا كانت سوسيولوجيا النظام التعليمي والميدان الثقافي تبدو لي ذات أهمية كبرى، فذلك لأنها تساهم أيضا في معرفة الذات العارفة، وذلك عندما تمهد

بكيفية مباشرة، وأكثر مما تفعله التحليلات النقدية، لتحديد مقولات الفكر اللامفكر فيها، تلك المقولات التي تحد ما يمكن أن نفكر فيه وتعين ميدان المفكر فيه : ويكيفنا، شهادة على ذلك، أن نذكركم هي المسبقات والحدود والرقابات والثغرات التي تعمل كل تربية ناجعة على تقبلها وتجاهلها راسمة بذلك الدائرة السحرية للقناعة الفقيرة التي تحصر فيها مدارس النخبة أعضاءها.

أن النقد الاجتماعي لا بد وأن يصاحب النقد الابستمولوجي. ولكي نقيس البون الذي يفصلنا عن السوسيولوجيا التقليدية، يكفي أن نلاحظ أن مؤلف "الأشكال البدائية للتصنيف" لم يدرك قط التاريخ الاجتماعي للنظام التعليمي الذي كان يقترحه في كتاب "التطور البيداغوجي في فرنسا" باعتباره سوسيولوجيا تكوينية تدرس المقولات والمفاهيم التي يستخدمها الأساتذة، وهي سوسيولوجيا كان يتوفر بشأنها على جميع الأدوات اللازمة وربما يرجع سبب ذلك إلى أن (دوركهايم)، الذي كان يوصي بأن يعهد للعلماء بتسيير الشؤون العامة، كان يتعذر عليه أن يتخذ المسافة اللازمة إزاء وضعه الاجتماعي كعالم اجتماع ليفكر في ذلك الوضع. وبالمثل فإن التاريخ الاجتماعي للحركة العالمية ولعلاقتها مع المنظرين لها سواء من الداخل أو من الخارج، إن هذا التاريخ هو الكفيل بأن يسمح لنا بأن ندرك لماذا جعل دعاة الماركسية فكر ماركس، وخصوصا التوظيفات الاجتماعية لذلك الفكر، موضوعا لسوسيولوجيا المعرفة، تلك السوسيولوجيا التي كان ماركس واحدا من روادها : وبالرغم من ذلك فدون أن ننظر من هذا النقد التاريخي والسوسيولوجي أن يوقف مد التوظيفات اللاهوتية و"الثورية" لكتابات ماركس، باستطاعتنا على الأقل أن نتوخى منه أن يهيب بأكثرهم وعيا ورصانة أن يستيقظوا من سباتهم الدوغماتي كي يخضعوا للدرس والفحص نظريا ومفاهيم أضفى عليها سحر التفسير والشروح التي ما فتئت تتكرر، طابع الخلود.

على الرغم من أن هذا التساؤل النقدي يدين بقيامه للتحولات التي أصابت المؤسسة التعليمية التي كانت تسمح في الماضي بالثقة في النفس واليقين الطلق،

فإنه لا ينبغي أن يعتبر مجرد مجاراة للموضة الثقافية التي أصبحت تقوم ضد المؤسسات – إن هذا التساؤل يفرض نفسه كمخرج وحيد للانفلات من مصدر الخطأ الذي يدفع عالم الاجتماع إلى أن ينصب من نفسه صاحب نظرات كلية نافذة فعندما يعطي الحق لنفسه ذلك الحق الذي يعترف له به في بعض الأحيان، في أن يرسم الحدود الفاصلة بين الطبقات وبين الأقاليم والأمم، ويقرر بسلطة العالم، ما إذا كانت هناك طبقات اجتماعية أم لا، وكم عددها وما إذا كانت هذه الطبقة وهذه الوحدة الجغرافية واقعا أم مجرد وهم، يقوم حينئذ بدور(Rex) الملك القديم الذي يتمتع، كما يقول (بينفينيست) بسلطة تعيين الحدود والنهايات أي بسلطة تحديد المقدس. تتوفر اللغة اللاتينية، التي أسوقها هنا وفاء لكورسيل (Pierre Courcelle) على لفظ آخر أقل شأنا من السابقون لكنه أكثر تعبيرا عن واقع اليوم، وهو لفظ Censor الذي يدل على من بيده قانونيا سلطة التشريع التي يتصف بها القول المسموح به القادر على أن يرسم داخل وعي الناس ويوجد في الأشياء تقسيمات الميدان الاجتماعي : إن هذا الـــ Censor المسؤول عن العملية التقنية لتقسيم المواطنين حسب ثرواتهم (ومنه Census : إحصاء) يصدر حكما أقرب إلى حكم القاضي منه إلى حكم العالم. ودوره كما يقول (ج. دو ميزيل) يقوم في "وضع (إنسان أو عمل أو رأي) في مرتبته، مع ما يتمخض عن ذلك من نتائج عملية، وذلك بفضل تقويم عمومي صائب".

إذا أرادت السوسيولوجيا أن تتخلى عن مرمى المثولوجيات، وتعزف عن محاولتها بأن تقيم على أساس معقول التقسيمات الاعتباطية للنظام الاجتماعي وبالأساس تقسيم العمل، عسى أن تجد حلا منطقيا وكوسمولوجيا لمكل توزيع الناس ينبغي عليها أن تنكب على دراسة الصراع من أجل احتكار الفهم المشروع للميدان الاجتماعي بدل أن تحشر نفسها في ذلك الصراع، ذلك الصراع الذي يشكل بعدا من أبعاد جميع أنواع الصراع بين الفئات سواء أكانت فئات مقسمة حسب السن أو الجنس أو كانت طبقات اجتماعية. إن التقسيمات البشرية تتميز

عن التصنيفات الحيوانية والنباتية من حيث أن الموضوعات التي ترتب هنا وتوضع في مكانتها هي ذوات قادرة على الترتيب والتقسيم. ويكفي أن نتصور ما سيؤول إليه الأمر لو كانت الكلاب والثعالب والذئاب قادرة، كما يتم في الحكايات، على أن تقول كلمتها فيما يتعلق بتصنيف الكلبيات، وبحدود التنوع الذي ينبغي أن يشترط بين عناصر هذا النوع ن الحيوانات، ولو كانت الخصائص المراعات لتعين موقع الأجناس والأنواع تتحكم في تحديد قوت الرزق والتأهيل لجائزة جمالية. ومجمل القول، فإن العناصر المرتبة في العلم الإنساني، وخصوصا تلك التي تحتل المراتب الدنيا، تستطيع أن تخيب ظن الفيلسوف – الملك يحدد لها ماهيتها فيزعم أنه يسمح لها بأن توجد وتقوم بما هي منوطة به بالتحديد، فترفض مبدأ الترتيب الذي يخصها بأدنى الدرجات. وفي واقع الأمر يشهد التاريخ على أن باستطاعة المقهورين، وتحت قيادة أولئك الذين يدعون احتكار سلطة الحكم والتصنيف، والذين غالبا ما يحتلون درجات دنيا، من بعض الوجوه على الأقل، باستطاعتهم أن يتحصلوا من هيمنة التقسيم المشروع ويحاولوا رؤيتهم للعالم بالتحرر من تلك الحدود المجسدة التي هي المقولات الاجتماعية التي تمكن من إدراك الميدان الاجتماعي.

وهكذا فسيان أن يجد العلم نفسه محشورا داخل الصراع من أجل وضع التصنيف المشروع وفرضه أو أن ينكب بصفة عابرة، على معرفة هذا الصراع، أي معرفة الكيفية التي تعمل بها المؤسسات والوظائف التي تقوم بها تلك المؤسسات كالنظام التعليمي والمنظمات الرسمية التي تسهر على عملية الإحصاء الاجتماعي..

إن التفكير على هذا النحو في ميدان الصراع حول التصنيفات – وفي مكانة عالم الاجتماع داخل هذا الميدان – لا يحط مطلقا من قيمة العلم ولا يرمي به في مهاوي النسبية صحيح إن عالم الاجتماع أين تكمن الحقيقة – والذي يكون على حق كما يقال عادة – مما يجعل الموضوعية مجرد توزيع عادل لدرجات الصواب والخطأ.. إلا أنه سيكون ذاك الذي يسعى لأن يكشف حقيقة الصراعات

التي تدور (من بين ما تدور حوله) حول الحقيقة فمثلا، عوضا عن أن حسم في الجدال الذي يدور بين من يقول بوجود طبقة أو إقليم أو أمة، وبين من ينكر ذلك، فإنه سيعمل على بلورة المنطق النوعي الذي يتحكم في هذا الصراع وعلى تعيين حظوظ نجاح مختلف الأطراف بفضل تحليل علاقات القوى والآليات المتحكمة في تطورها. إن عالم الاجتماع إذن يضع نموذجا صادقا عن الصراعات التي تدور لفرض الفهم الصادق عن الواقع، تلك الصراعات التي تساهم في صنع الواقع كما يعطي نفسه للوصف. وهذا هو النهج الذي يسلكه (جورج دوبي) عندما يسلط أضواء التحليل التاريخي على سلم المراتب الثلاث، وهي منظومة التصنيف التي اعتاد علم التاريخ أن يرى من خلالها المجتمع الإقطاعي، بدل أن يسلم بها كأداة في يد المؤرخ لا تقبل النقاش. وقد كشف (دوبي) أن مبدأ هذا التقسيم، الذي كان في نفس الوقت مدار وحصيلة الصراعات التي كانت تجري بين الجماعات التي تزعم احتكار سلطة التشريع وبين رجال الدين والفرسان، قد ساهم في إنتاج نفس الواقع الذي كان يسمح بفهمه. وبنفس الكيفية فإن ما يقرره عالم الاجتماع، في وقت معين، فيما يتعلق بخصائص وآراء مختلف الطبقات الاجتماعية، وما يستخدمه من معايير للتصنيف والترتيب كي يثبت ما يثبته، أن ذلك أيضا نتيجة لتاريخ الصراعات الرمزية التي دارت حول وجود الطبقات وتحديدها فساهمت مساهمة فعالة في صنع تلك الطبقات وإن ما آلت إليه الآن تلك الصراعات السابقة يتوقف، في جزء لا يستهان به، على التأثير النظري الذي ولدته السوسيولوجيات السابقة وخصوصا تلك التي ساهمت في صنع الطبقة العاملة، والطبقات الأخرى في ذات الوقت، عندما جعلتها تعتقد بوجودها كبروليتاريا ثورية. كلما ازداد العلم الاجتماعي تقدما وانتشارا وذيوعا كان على علماء الاجتماع أن يأخذوا في حسبانهم أنهم سيلقون العلم الاجتماعي الذي كان في الماضي، مجسدا أكثر فأكثر ساكنا موضوع دراستهم حالا فيه.

لكن يكفي أن نذكر الاستخدام الذي توظف به الصراعات السياسية التنبؤ الاجتماعي أو مجرد الإثبات والتقرير، كي ندرك أن عالم الاجتماع، حتى وإن

تقيد بالوصف الدقيق سيتهم دوما بأنه يحث وينهي. وفي العادة، نحن لا نتكلم عمليا، عما هو كائن إلا لنقرر ما إذا كان يتم وفقا لطبيعة الأمور أم لا، وما إذا كان عاديا أم لا، مقبولا أم محرما، رحمة أم لعنة، فالأسماء ملغومة بنعوت ضمنية والأفعال تنطوي على أوصاف صامتة تميل إلى التأييد أو الاستنكار، إلى إقرار الوجود والدوام أو إلى الخلع والطعن ونزع الاعتبار. وهكذا فليس من اليسير أن ننتزع الخطاب العلمي من المنطق الذي أريد له أن يتحكم فيه حتى ولو أردنا فحسب أن نأخذ حريتنا في الطعن فيه. فإذا أردنا مثلا أن نصف وصفا عليما العلاقة التي تربط ذوي الفقر الثقافي بالثقافة العالمية، فإن من شأن ذلك أن يفهم كطريقة ماكرة لإبقاء الشعب تحت نير الجهالة، أو على العكس من ذلك، كوسيلة مقنعة لامتداح اللاثقافة وتقويض القيم الثقافية. فما قولك بالأخرى، في الحالات التي قد تبدو فيها محاولات التفسير والتعليل، وهي التي ينحصر فيها مجهود العلم، وسيلة للتبرير ودفع التهمة؟ فأمام استعباد نظام العمل الحالي، وأمام بؤس مدن الصفيح وعنف مخيمات التعذيب تتخذ عبارة "هكذا هي الأمور" التي ينطق بها هيجل أمام الجبال، شكل تآمر إجرامي. عندما يتعلق الأمر بالميدان الاجتماعي، فلا شيء أكثر تحيزا من إصدار الأحكام النافذة حول الكائن، أي تلك تستند إلى سلطة التبيين والإقناع التي يخولها ما اعترف به من قدرة على التنبؤ. لذا فقد يتولد عما يثبته العلم مفعولات سياسية يمكن أن تكون غير ما كان العالم ينشده.

ومع ذلك، فإن الذين يعيبون على التحليل الاجتماعي تشاؤمه وتثبيطه للعزائم، عندما يصوغ قوانين إعادة الإنتاج الاجتماعي مثلا، لا يكونون أكثر صوابا من أولئك الذين قد يعيبون على (جاليليو) كونه خيب ظن من يحلم بالطيران عندما أقام قانون سقوط الأجسام. إن صياغة قانون اجتماعي، كذلك الذي يقول بأن الرأسمال الثقافي يعود للرأسمال الثقافي، هي التمكين من إقحام ما كان (أ.كونت) يسميه "العوامل المعدلة" لجعلها من بين محددات ما يتنبأ به. وهي عوامل يمكن أن تكفي، مهما كان ضعفها، لجعل الآليات الاجتماعية تعمل لصالح

ما نتوخاه. وإذا كانت معرفة الآليات تسمح، كما هو الشأن في ميادين أخرى، بتحديد شروط التحكم فيها ووسائل ذلك التحكم، فإن هذا وحده يبرر رفض النزعة السوسيولوجية التي ترى إلى المحتمل كقدر محتوم. وه هي حركات التحرر دليلا على أن قليلا من الطوباوية، أي من الإنكار السحري للواقع الذي يسمى في مجال آخر إنكارا عصابيا، كفيل بأن يساهم في خلق الشروط السياسية للقضاء العملي على ما تكتفي النزعة الواقعية بوصفه وتقريره. والأهم من ذلك أن المعرفة وحدها تولد تأثيرات تبدو لي وسيلة تحرر، كلما كانت الآليات التي تثبت تلك المعرفة القوانين المتحكمة فيها، مدينة بقوة فعاليتها إلى الجهل بتلك القوانين، أي كلما تعلق الأمر بأسس العنف الرمزي، وبالفعل فإن هذا النوع من العنف لا يمكن أن يمارس إلا على ذوات عارفة تنطوي أفعال معرفتها، لما فيها من تحيز وتشويه على اعتراف ضمني بالهيمنة التي يقتضيها الجهل بالأصول الحقيقية للهيمنة. ندرك الآن لماذا لا يعترف للسوسيولوجيا بالطابع العلمي، وخصوصا من لدن أولئك الذي يحتاجون إلى ظلمات الجهالة كي يفرضوا علاقاتهم الرمزية.

لا تكون ضرورة التخلي عن السعي وراء السيادة والسلطان قط بمثل الأهمية التي تكون عليها عندما يتعلق الأمر بالتفكير العلمي في ميدان العلم ذاته، أو في الميدان الثقافي بصة عامة. فإذا كنا قد ارتأينا ضرورة إعادة التفكير الجذري في سوسيولوجيا المثقفين، فذلك لأنه من الصعب على المثقف نظرا لخطورة المصالح والأغراض في هذا الميدان، إن ينفلت من المنط الذي يتحكم في الصراع الذي ينصب فيه كل طرف من نفسه عالم اجتماع يدرس خصومه، وإيديولوجيا يدافع عن نفسه، وذلك وفقا لقوانين العماء والتبصر التي تتحكم في الصراعات الاجتماعية التي تدور حول الحقيقة. ومع ذلك فشريطة أن يدرك المثقف الأمور على ما هي عليه، بما يطبعها من إيقاعات وما ينتظمها من قواعد، وما يتولد فيها من أغراض ومطامع، وما يحقق من مصالح، كي يتمكن، في ذات الوقت، من أن يتحرر منها عن طريق المسافة التي يخلقها الفهم النظري، ومن أن يكف نفسه غارقا فيها، محتلا موقعا معينا، لاعبا أدوارا خاصة، مدافعا عن

أغراض بعينها. وهكذا فإن الموضوعية، مهما كانت إدعاءاتها العلمية، ستظل جزئية فرعية، وبالتالي خاطئة، إن بقيت جاهلة أو متجاهلة وجهة النظر إلى المجموع كمجال لمواقف موضوعية يتحكم من بين عوامل أخرى، في النظرة التي ينظر بها كل محتل لموقع وموقف معين للمواقف الأخرى ولمحليتها، أن مثل هذه الرؤية ستمكننا من النظرة الموضوعية العلمية لمجموع الموقف الموضوعية القاصرة التي يتخذها الأعضاء أثناء صراعهم، كما ستسمح لنا بإدراكهم على ما هم عليه من إستراتيجيات رمزية تسعى لأن تفرض الحقيقة الجزئية لجماعة معينة كما لو كانت حقيقة العلاقات الموضوعية بين مختلف الجماعات. وفضلا عن ذلك، فإن هذه الرؤية ستمكننا من أن ندرك أن الخصوم المتآمرين، عندما يتجاهلون اللعبة التي جعلتهم يتنافسون يخفون الأساسي ويغفلون الجواهر وأعني المصالح التي يجنونها من دخولهم في تلك اللعبة والتواطؤ الموضوعي الذي ينتج عن ذلك.

بدهي أننا لا ينبغ أن ننظر من الفكر الذي يرسم الحدود والنهايات أن يفضي بنا إلى فكر لا يعرف الحدود ولا يقف عند نهاية – وإلا فسيكون ذلك بعثا لوهم (مانهايم) بوجود "فئة مثقفة لا تشدها روابط ولا تربطها جذور" وهو حلم بقفز وطيران اجتماعي يشكل البديل التاريخي لمطمح المعرفة المطلقة ومع ذلك فإن كل مكتسب تحققه سوسيولوجيا العلم من شأنه أن يدعم علم السوسيولوجيا وذلك بالعمل على معرفة المحددات الاجتماعية للفكر السوسيولوجي وإذكاء روح النقد الذي يمكن أن يوجهه كل واحد لتأثير تلك المحددات على ممارسته هو وممارسة خصومه. إن العلم يزداد قوة كلما زاد النقد العلمي صرامة أي كلما ازدهرت الصبغة العلمية للأدوات التي هي في متناول المثقف، وسادت ضرورة استخدام أسلحة العلم وأدواته وحدها دون الأدوات الأخرى. وفعلا فإن الميدان العلمي هو أيضا ميدان صراع كباقي الميادين الأخرى، إلا أنه يتميز بكون المواقف الانتقادية التي تبعث عليها المنافسة لا تجد تحقيقها إلا إذا استطاعت أن توظف مجموع ما تراكم من ثروات علمية. فكلما تقدم العلم، أي كلما ازدادت

مكتسباته الجماعية أهمية، فإن الخوض في الصراع العلمي يفترض التوفر على رأسمال علمي أغنى وأهم. يتمخض عن ذلك أن الثورات العلمية لا تظهر عند أفقر الناس بل عند أغناهم علما. تسمح لنا هذه القوانين البسيطة بأن نفهم كيف يمكن لبعض المنتوجات الاجتماعية اللاتاريخية، أي لبعض المنتوجات التي تتمتع بنوع من الاستقلال النسبي عن الشروط الاجتماعية لإنتاجها، إن تنبثق عن شروط تاريخية لبنية اجتماعية معينة، أي عن مجال اجتماعي كمجال الفيزياء أو البيولوجيا اليوم. وبعبارة أخرى فبإمكان علم الاجتماع أن يفسر لنا التقدم المتناقض لعقل ينتمي بكامله إلى التاريخ دون أن يرتد إلى التاريخ وحده : إذا كانت هناك حقيقة فهي أن الحقيقة ذاتها مدار الصراعات بيد أن هذا الصراع لا يمكن أن يفضي إلى الحقيقة إلا عندما يخضع لمنطق بمقتضاه لا ننتصر على خصومنا إلا إذا استعملنا ضدهم أسلحة العلم مساهمين بذلك في العمل على تقدم الحقيقة العلمية.

يصدق هذا المنطق كذلك على السوسيولوجيا : فالظاهر أنه يكفي أن نطلب من جميع المساهمين والمبدعين التمكن من مكتسبات هذه الدراسة – وهي مكتسبات هائلة – كي نقضي على بعض الممارسات التي تسيء لمهنة عالم الاجتماع. ولكن من الذي في صالحه، في الميدان الاجتماعي، قيام علم مستقل بالميدان الاجتماعي؟ على كل حال فليس أولئك المعدمين علميا : فبما أنهم يميلون إلى أن يلتمسوا، بارتباطهم مع القوى الخارجية، المساندة أو الثأر من الضغوط والمراقبات التي تتولد عن المنافسة الداخلية، فباستطاعتهم أن يكتفوا بالفضح السياسي ويستعرضوا به عن النقد العلمي. ولكن ليس أيضا أولئك الذين يتمتعون بسلطان دنيوي أو ديني. إذا إن علم الاجتماع إذا قام بالفعل في استقلاله الذاتي لن يكون إلا أكبر منافسيهم. خصوصا إذا تخلى ذلك العلم عن طموحه بأن يسن القوانين ويرع، واقتصر على نفوذ سلبي واكتفى بالنقد، وبنقده الذاتي، وبالتالي بنقد هفوات العلم وجميع أشكال استغلال النفوذ التي تتم باسم العلم.

ندرك الآن لماذا ظل قيام السوسيولوجيا كدراسة علمية دوما مهددا. فهي تنطوي على ضعف جوهري ينتج عن إمكان خداع المقتضيات العلمية عن طريق السياسة، مما يجعلها تنتظر من السلطات التي تعول عليها نفس ما تتوقعه من شرور من السلطات التي تود اختفاءها. إن الطلبات الاجتماعية تصاحب دوما بضغوط وايعازات واغراءات، وأفضل خدمة يمكن أن نسديها للسوسيولوجيا هي ألا نطلب منها أي شيء. لاحظ (بول فاين) "أن بإمكاننا أن نتعرف من بعيد على عظام المهتمين بالعصور القديمة فقط من خلال بعض الصفحات التي لا يكتبونها" فما القول في علماء الاجتماع الذين يجرون دون انقطاع، إلى تخطي حدود علمهم؟ ليس من السهل أن نرفض ما يدره علينا التنبؤ اليومي من فضل فوري – خصوصا وأن الصمت، الذي لا يأبه له، يترك المجال خاليا للفراغ الطنان الذي يملأه العلم الكاذب. وهكذا فإن بعضهم، قد أبى أن يتخلى عن مطامح الفلسفة الاجتماعية واغراءات المحاولات العلمية البسيطة المنتشرة والتي لا تعدم جوابا في أي وقت، ويمكن أن يمضي حياته كلها كي يتخذ موقعه في ميادين لا يملك العلم اليوم فيها ما يمكنه من النجاح. هذا في حين أن آخرين على العكس من ذلك يجدون في هذه المبالغات معذرة لهم في أن يهجروا ميدان الدراسة ويتخلوا عنه. وهذا هو الموقف الذي يترتب غالبا على الحرص الشديد على الدقة الوصفية.

لا يمكن لعلم الاجتماع أن يقوم إلا إذا رفض المطلب الاجتماعي الذي يلتمس وسائل لإضفاء المشروعية أو أدوات للتحريض. وعالم الاجتماع، ليست له مهمة مسخر لها ولا غاية انتدب من أجلها، اللهم تلك التي يفرضها عليه منطق بحثه. وأولئك الذين يدفعهم التطاول لأن يشعروا بأن من حقهم، أو من واجبهم، أن يتكلموا دفاعا عن الشعب. أي لصالحه، ولكن أيضا في محله وباسمه، حتى ولو أرادوا كما حدث لي أنا، أن يستنكروا النزاعات العنصرية ويفضحوا النزعة الشعوبية عند من يتكلمون عن الشعب، فهم يتكلمون في الواقع، دفاعا عن أنفسهم، أو على الأقل يتكلمون عن أنفسهم، ساعين في أحسن الظروف (كما هو الأمر بالنسبة لميشلي) إلى التخفيف من حدة الألم الذي تولده القطيعة الاجتماعية بأن

يجعلوا من أنفسهم عبا على مستوى الخيال. ولكن علي أن أفتح قوسا هنا لأقول بأن عالم الاجتماع، عندما يطلب منا أن نربط أكثر الأعمال والأقوال "طهارة"، وأعني أقوال العالم والفنان والمناضل، بالظروف الاجتماعية التي علمت على إنتاجها، وبالمصالح الخاصة لمنتجيها، فإنه لا يحث على التشبث بمواقف الاختزال والهدم التي تخفف من حدة المرارة، أنه يرمي فحسب إلى توفير الوسائل التي تنزع عن عنف الحقد الاجتماعي وشدته كل شعور بالعصمة ابتداء من ذلك الذي يتولد عن تحويل رغبة الانتقام الاجتماعي إلى مطالبة بمساواة يستعاض بها عن تلك الرغبة.

عن طريق عالم الاجتماع، ذلك العنصر التاريخي الذي يتخذ، تاريخيا، موقعا بعينه وذلك العضو الاجتماعي الذي يحتل، اجتماعيا، مكانا محددا، فإن التاريخ، أ المجتمع الذي يجد فيه التاريخ امتداده، يرتد لحظة نحو ذاته ويفكر فيها. وبفضله يستطيع كل أعضاء المجتمع أن يعرفوا، معرفة أفضل ما يعيشون من أحوال وما يقومون به من أعمال. ولكن هذه المهمة هي أبعد المهمات التي يرغب في إسنادها إلى عالم الاجتماع أولئك الذين يتواطئون مع الجهالة والإنكار ورفض المعرفة، والذين هم على استعداد لأن يعترفوا بالقيمة العلمية لكل أشكال الخطب التي لا تتحدث عن الميدان الاجتماع أو التي تتحدث عنه دون أن تفعل. وهذا المطلب السلبي لا يكون في حاجة لأن يعبر عن نفسه بوضع رقابة مستعجلة، وبالفعل فبما أن العلم المضبوط يفترض قطيعة مع البداهات، يكفي أن نترك الفكر العادي يعمل عمله وندع ميولات الفطنة البورجوازية تتكشف كي نلحظ تدفق المحاولات السوسيلوجية الادعائية وانتشار المعرفة المتلكئة للعلم الرسمي. إن جانبا عظيما مما عمل عالم الاجتماع على اكتشافه ليس خفيا بنفس المعنى الذي تكون عليه الموضوعات التي تسعى العلوم الطبيعية إلى كفها. فكثير من الوقائع أو العلاقات التي يكشف عنها لا تكون لا مرئية، أو أنها تكون كذلك ولكن فقط من حيث هي "تهر الأعين" كمثال "الرسالة المسروقة" الذي يورده (لاكان) : يخطر ببالي مثال العلاقة الإحصائية التي تربط الممارسة الثقافية

بالتربية المتلقاة. إن العمل اللازم لإظهار الحقيقة، ولإقناع الناس بالاعتراف بها، يصطدم بآليات الدفاع الجماعية التي ترمي تحقيق إنكار حقيقي بالمعنى الفرويدي للكلمة. وبما أن رفض الاعتراف بواقع الصدمة يتم وفقا المصالح المدافع عنها، فإننا ندرك سبب العنف الشديد الذي يطبع المقاومات التي تثيرها، عند الذين يحتكرون الرأسمال الثقافي، التحليلات التي تكشف عن شروط انتاج الثقافة وإعادة انتاجها : فهذه التحليلات لا تكشف عند أناس تعودوا أن يفكروا في أنفسهم من منظور التفرد والفطرة إلا عما هو متداول ومكتسب. وفي هذه الحالة تجد قولة (كنط) بأن معرفة الذات "سقوط في مهاوي جهنم" مصداقيتها. إن رجال الثقافة، مثلهم مثل النفوس التي يكون عليها في أسطورة (آير) إن تجرع من ماء نهر (أميليس) الذي يحمل معه النسيان، قبل أن تعود إلى الأرض كي تحيا الحياة التي اختارتها هي، لا يجدون أكثر متعهم الثقافية صفاء إلا في نسيان التكوين والمنشأة ذلك النسيان الذي يسمح لهم بأن يحيوا ويحفظوا وحدة هوية تقوم على تصالح الأضداد : فباستطاعتهم أن يستخدموا مغالطة القدر التي يتحدث عنها فرويد فيعيبوا على الموضوعية العلمية تناقصها ووضوحها في ذات الوقت، وبالتالي عدم جدواها وسخافتها.

من حق خصوم السوسيلوجيا أن يتساءلوا عما إذا كان ينبغي قيام فعالية تنفي انكارا جماعيا ولكن لا شيء يخول لهم أن ينفوا عنها طابعها العلمي. صحيح أن لا وجود لمطلب اجتماعي يلتمس معرفة كلية الميدان الاجتماعي. وبإمكان الاستقلال الذاتي النسبي لحقل الإنتاج العلمي والمصالح الخاصة التي تتولد داخله أن تسمح وحدها، بل وتعمل على وجود عرض للمنتوجات العلمية الانتقادية التي تسبق أي شكل من أشكال الطلب، دفاعا عن العلم، أي عن عصر الأنوار ومحو الظلمات يمكن أن نقتصر على إيراد نص لديكارت طالما ساقه (مارسيل غيرولت) : "لا أسمح مطلقا بأن يسعى المرء نحو الخطأ فيلجأ إلى أوهام الخيال. لذا لما أرتأيت أم معرفة الحقيقة ترقى بنا إلى أقصى الكمالات، حتى ولو كانت في غير صالحنا، تبين لي أن من الأفضل أن نكون أقل مرحا

وأكثر معرفة". إن السوسيولوجيا تفضح الانخداع الذي يرعاه الجميع ويشجع عليه فيشكل، في كل مجتمع، أساسا لأكثر القيم قداسة، ودعامة للوجود الاجتماعي بكامله وهي تعلمنا مع (مارسيل موس) "بأن المجتمع يخدع نفسه على الدوام" وهذا يدل على أن هذا العلم الذي يدرس المجتمعات التي تسير نحو الشيخوخة يمكن أن يساهم على الأقل في أن يجعلنا، أقل ما يمكن، سادة على الطبيعة الاجتماعية وممتلكين لها، وذلك بأن العمل على تدم معرفتنا ووعينا بالآليات المتحكمة في جميع أشكال الفيتيشية : أشير بطبيعة الحال إلى ما يسميه (ريمون آرون)، الذي طالما مثل هذا التعليم "الدين القديم" وأقصد عبادة الدولة، التي هي عبادة للدولة بأعيادها الوطنية وحفلاتها المدنية وأساطيرها القومية القادرة على أن تخلق على الدوام الازدراء أو العنف العنصري وتبررهما. وهذا ليس وقفا على الدولة الاستبدادية وحدها، ولكنني أقصد كذلك عبادة الفن والعلم اللذين باستطاعتهما، كأوثان يستعاض بها، أن يساهم في إضفاء المشروعية على نظام اجتماعي، قائم في جزء منه على توزيع لا متكافئ للرأسمال الثقافي. وعلى كل حال فبإمكاننا على الأقل أن نتوخى من علم الاجتماع أن يستبعد إغراء السحر، شيطان الجهالة الجاهلية بنفسها، الذي يظهر في ميدان العلاقة الاجتماعية بعد أن أقصى من ميدان العلاقة الطبيعية. إن الواقع لا يرحم الإرادة الطيبة العمياء أو النزعة الإرادية الطوباوية. وهاهو المال المأساوي الذي آلت إليه جميع المحاولات السياسية التي استندت على علم اجتماعي فضفاض شاهد على أن المطمح السحري، الذي ينشد تحويل الميدان الاجتماعي دون معرفة بدواليبه، يكون عرضة لأن يستبدل "العنف القاصر" للآليات التي قضى عليها الجهل بعنف أقوى وأكثر شرا في بعض الأحيان.

السوسيلوجيا علم يتميز بالصعوبة الخاصة التي تحول بينه وبين أن يصير علما مثل العلوم الأخرى. ومرد ذلك أن رفض المعرفة وتوهم معرفة فطرية يتواجدان فيه جنبا إلى جنب، بدل أن يتعارضا، سواء عند الباحثين أو عند المطبقين له. ووحده الموقف الانتقادي الدقيق يستطيع أن يقضي على اليقينيات

التي تتسرب إلى الخطاب العلمي عبر المسبقات التي تسكن اللغة والقوالب الجاهزة الكامنة في الخطاب اليومي المتداول حول المسائل الاجتماعية أي، بتعبير وجيز، عبر ضباب الكلمات التي تفصل الباحث على الدوام عن الميدان الاجتماعي. إن اللغة عموما تعبر عن الأشياء أسهل مما تعبر عن العلاقات، وعن الثابت أكثر مما تعبر عن المتحول. فعندما نقول مثلا عن أحدهم أنه يملك النفوذ والسلطان، وعندما نتساءل من بيده اليوم السلطة؟ فإن هذا يعني التفكير في السلطة كجوهر، كشيء يمتلكه البعض ويحتكرونه ويولونه، كما يدل أننا نطلب من العلم أن يعين لنا إذ نفترض بأن السلطة من حيث هي جوهر، موجودة في جهة من الجهات، نتساءل ما إذا كانت تنزل من فوق كما يسلم بادئ الرأي، أو أنها، كما يرى وقف مخالف ينبذ الرأي السائد، تنبع من أسفل، جهة المقهورين، والوهمان معا التشييئي والتشخيصي، بعيدا عن أن يتعارضا، فإنهما يسكنان جنبا إلى جنب. لن نأتي على حصر المشاكل الموهومة التي تنتج عن المقابلة بين الفرد – الشخص والحياة الباطنية والتفرد، وبين المجتمع – الشيء والحياة الخارجية : والجدال الأخلاقي – السياسي الذي يدور بين من يدعون القيمة المطلقة للفرد والفردي والفردانية وبين من يعطون الأسبقية للمجتمع والمجتمعي والاشتراكية، يشكل خلفية للجدال النظري، الذي ما فتئ يقومبين النزعة الإسمية التي ترد الوقائع الاجتماعية والجماعات والمؤسسات إلى كائنات نظرية لا تحيل إلى واقع موضوعي، وبين نزعة واقعية جوهرية تشييء المجردات.

وإن رسوخ تعارضات الفكر العاد، تلك التعارضات التي تعضدها قوة التعارضات بين الجماعات التي تعبر عن نفسها من خلال ذلك الفكر، إن ذلك الرسوخ هو الذي يستطيع وحده أن يفسر الصعوبة الكبرى التي يواجهها العمل اللازم لقهر التناقصات التي من شأنها أن تقضي على العلم. وهذا العمل ينبغي أن يستأنف بلا هوادة ضد النكوص الجماعي نحو أنماط من التفكير هي أكثر ذيوعا وانتشارا لما تلقاه من المجتمع من تقبل وتشجيع فمن السهل أن نعامل الوقائع الاجتماعية كأشياء أو كأشخاص عوضا أن نعاملها كالعلاقات. وهكذا فإن

القطيعتين الحاسمتين اللتين أحدثهما مع الفلسفة التلقائية للتاريخ ومع الرؤية الشائعة للميدان الاجتماعي، كل من (فرناند بروديل) بتحليله للظواهر التاريخية "الطويلة الأمد" و(كلود ليفي – ستروس) بتطبيقه الفكر البنيوي على موضوعات مستعصية مثل أنظمة القرابة والمنظومات الرمزية، قد أديا إلى جدالات عقيمة حول علاقات الفرد بالبنية. الأهم من ذلك أن هيمنة الاختيارات الثنائية العتيقة قد أدت إلى استبعاد كل ما كان يدرسه التاريخ بطرقه التقليدية ورميه داخل مجال العرضي والجائز بعيدا عن المجال العلمي، عوضا عن محاولة تجاوز التعارض بين التاريخ الحدثي وتاريخ البنيات التحتية وبين الماكروسوسيولوجيا والميكروسيولوجيا. إذا ما أردنا ألا ندع واقع الممارسات عرضة للصدفة والغموض، علينا أن نبحث بفضل تاريخبنيوي للفضاءات الاجتماعية حيث تتبع المواقف التي تخلق "عضام الرجال"، أي في حقل السلطة وفي الحقل الفني والثقافي أو الحقل العلمي، نبحث عن الوسيلة لملء الهوة التي تفصل الحركات البطيئة اللامحسوسة للبنية الاقتصادية والأدبية أو الفنية.

إن أصل الفعالية التاريخية، سواء أكانت فنية أم علمية أم سياسية، أو كانت فعالية العامل أو الموظف البسيط ليس ذاتا تواجه المجتمع كشيء خارج عنه، وهو لا يقوم لا في الوعي ولا في الأشياء وإنما في العلاقة التي تربط حالتين من أحوال المجتمع أي بين التاريخ الذي يسكن الأشياء في صورة مؤسسات والتاريخ الذي يتجسد في الأجسام في صورة ذلك النظام القادر للاستعدادات والمواقف الذي أسميه Habitud فالجسم يوجد داخل الميدان الاجتماعي، إلا أن الميدان الاجتماعي يكون أيضا حالا في الجسم، وإن حلول المجتمعي في الجسم الذي يحققه التعليم والترويض هو أساس الحضور في الميدان الاجتماعي، ذلك الحضور الذي تنظر إليه التجربة العادية والفعالية الناجحة كأمر عادي مفروغ منه.

وإن تحليلا حقيقيا لحالة بعينها، ولكنه قد يتطلب عرضا شديد الطول، هو الكفيل وحده بان يوضح القطيعة الحاسمة مع الرؤية العادية للميدان الاجتماعي،

تلك القطيعة التي تتعين بالتخلي عن العلاقة التلقائية بين الفرد والمجتمع وتعويضها بالعلاقة المنسوجة بين هذين النمطين من الوجود الاجتماعي أي بين Habitus والمجال، بين التاريخ – الجسم والتاريخ – الشيء. لكي يكون كلامنا مقنعا تمام الإقناع، ولكي ننسج وفق ترابط منطقي تسلسل العلاقات التي تربط موني Monet ودوغا Degas وبيسارو Pissaro، أو بين لينين وتروتسكي وستالين وبوخارين، أو أيضا بين سارتر وميرلوبونتي وكامو، ربما ينبغي أن تكون على علم كاف بهاتين السلسلتين من العلل المستقلين فيما بينهما جزئيا. وهما من جهة الشروط الاجتماعية للإنتاج مثل هؤلاء الأشخاص، أو بتعبير أدق، استق أداتهم الدائمة، ومن جهة أخرى المنطق النوعي الذي يتحكم في كل مجال من مجالات التنافس التي يوظفون فيها هذه الاستعدادات، أي في المجال الفني والمجال السياسي والمجال الثقافي، دون أن ننسى بطبيعة الحال، الضغوط الظرفية أو البنيوية التي تؤثر على هذه الفضاءات التي تتمتع باستقلالها النسبي.

إذا ما أردكنا كل عالم من العوالم الجزئية وفكرنا فيه كمجال، فإننا سنمكن أنفسنا من وسيلة الدخول في أدق تفاصيل تلك المجالات في تفردها التاريخي على غرار أدق المؤرخين وأكثرهم رهافة، عاملين في ذات الوقت على بنائها وإنشائها بحيث أن فيها "حالة خاصة من الممكن" على حد تعبير باشلار، أو شكلا من بين أشكال أخرى لبنية من العلاقات. وهذا يتطلب منا، هنا أيضا أن نتنبه للعلاقات المحددة، التي غالبا ما تكون مختفية لا تتجلى للوهلة الأولى، والتي تربط الوقائع التي تدرك مباشرة كالأشخاص الأفراد الذين يسمون بأسمائهم، أو الأشخاص المعنويين الذين يسمون ويوجدون في ذات الوقت عن طريق الإشارة التي تحددهم كأشخاص يعترف بهم القانون. وهكذا فباستطاعتنا أن نفهم جدالا يدور في زمان ومكان بعينهما. بين ناقد طلائعي وأستاذ متضلع في الآداب، كصورة خاصة لعلاقة شكل التعارض الوسطوي بين auctor وLector أو التعارض بين النبي والقس تجليات أخرى لها. وقراءة الجرائد اليومية، إذا ما خضعت لتوجيه يسمح

بتكوين المعطى لمقارنته وتعميمه، يمكن بدورها أن تصب عملا علميا. كان (بوانكاري) يعرف الرياضيات على أنها "فن إطلاق نفس الاسم على أشياء مختلفة"، وبالمثل فإن السوسيولوجيا –واستسمح الرياضيين على التجرؤ على هذه المقارنة – هي في التفكير في أشياء تظهر مختلفة فيما بينها، من حيث أنها متشابهة في بنيتها وكيفية عملها، ثم نقل ما أثبت بصدد موضوع أنشئ ولم يأخذ في تلقائيته، كالمجال الديني مثلا، وتعميمه على مجموعة من الموضوعات الجديدة كالمجال الفني والمجال السياسي وهكذا. هذا النوع من الاستقرار النظري الذي يسمح بتعميم يقوم على افتراض الثبات الصوري ضمن التنوع المادي، لا علاقة ل بالاستقرار أو الحدس اللذين يقومان على التجربة الاختبارية التي "تزداد تركيزا كلما ازدادت سعة وامتدادا"، على حد تعبير لايبنتز، وبفضل اعتماد المنهج المقارن الذي يكون هنا أشد ما يكون فعاليةـــ تستطيع أن تدرك قلة ونقصانا.

إن اعتماد فكرة المجال تستدعي قلبا تاما للرؤية العادية للميدان الاجتماعي، تلك الرؤية التي تكتفي بالأمور المرئية وحدها : كالفرد الذي يربطنا به نوع من المصلحة الإيديولوجية الأساسية : أو الجماعة التي لا تحدد إلا ظاهريا عن طريق العلاقات التي تربط الأعضاء فيما بينهم وحدها، سواء أكانت تلك العلاقات مؤقتة أم دائمة، منتظمة في مؤسسات أم لا. بل إنها تقتصر أيضا على العلاقات من حيث هي تفاعل بين الأفراد، وأعني العلاقات التي تربط الأفراد كما تتم بالفعل. وفي الواقع، كما أن نظرية الجاذبية عند نيوتن لم تتكون إلا بانفصالها مع الواقعية الديكارتية التي كنت تأبى الاعتراف بأي نوع آخر من الفعل الفيزيائي عدا الصدمة والإتصال المباشر فإن مفهوم المجال يفترض قطيعة مع التمثيل الواقعي الذي يدعو إلى إرجاع تأثير فعل الوسط إلى تأثير العمل المباشر الذي يتم عن طريق تبادل الفعل. هذا في حين أن بنية العلاقات التي تشكل فضاء المجال هي التي تتحكم في الصورة التي يمكن لعلاقات التفاعل الظاهرية أن تتخذها، بل وفي محتوى الخبرة التي يمكن للأعضاء أن يتوفروا عليها بصددها.

إن أخذ فضاء العلاقات الذي يتحرك فيه الأعضاء بعين الاعتبار، يقتضي الانفصال النهائي عن فلسفة التاريخ التي يتضمنها الاستعمال العادي للغة العادية، أو التي تفترضها عادات التفكير التي تصاحب الجدالات السياسية حيث يكون من الضروري العثور على المسؤول عن الأعمال، خيرها وشرها. لن نأتي على حصر الأخطاء والتضليلات والتهويمات التي تنشأ عن كون الألفاظ التي تطلق على المؤسسات والجماعات مثل الدولة، والبرجوازية، وأرباب العمل، والكنيسة، والأسرة والمدرسة، يمكن أن تكون موضوعا في قضايا من نوع : "الدولة تقرير"، "المدرسة تطرد"، وبالتالي فاعلا في جمل من نوع : تقرر الدولة، وتطرد المدرسة، ومن ثمة فاعلا تاريخيا وذاتا تاريخية قادرة على رسم أهدافها الخاصة وتعيين مراميها وتحقيقها. وهكذا تصبح أعمال لم يرسم أهدافها ولم يخطط مراميها أي كان، ومن غير أن تكون، بالرغم من ذلك، عمياء عشوائية، تصبح منتظمة تتحكم فيها نية لم تعد نية خالق يتصور كشخص، ولكنها نية جماعة أو مؤسسة تعمل كعلة غائية قادرة على تبرير كل شيء وبأقل جهد دون أن تفسر شيئا. والحال أن باستطاعتنا أن نبين، معتمدين في ذلك على التحليل الشهير الذي قام به نربرت الياس – Narbert Elias، أن هذه الرؤية اللاهوتية – السياسية لا تصدق حتى على الحالة التي يظهر أنها تليق بها بالأولى، وأعني حالة دولة الحكم الملكي المطلق التي تجسد بأقصى درجة بالنسبة للملك ذاته – "أنا الدولة"- مظاهر "الجهاز" : يعمل مجتمع البلاط كمجال مغناطيسي ينجذب إليه من بيده السلطة المطلقة ذاته، هذا في الوقت الذي توازن القوى. وإن بدأ الحركة الدائبة الذي يعطي للمجال حركته لا يقوم في أي محرك أول لا يتحرك، (وهو هنا الملك – الشمس)، بل في التوترات التي تتولد عن البنية التي تكون المجال (التباين بين مراتب الأمراء والدوقة والماركيزات...) فتسعى إلى إعادة إنتاج هذه البنية. إنه يكمن في مجموع الأفعال وردود الأفعال التي تصدر عن الأعضاء الذين لا يملكون إلا أن يتصارعوا للحفاظ على وضعيتهم داخل المجال أو تحسين تلك الوضعية، هذا إن لم يقض بعضهم على الآخر ويقصه من المجال. وبهذا فهم

يساهمون في فرض الضغوط على الأعضاء الآخرين، تلك الضغوط التي تنشأ عن التصارع بينهم والتي غالبا ما لا تحتمل.

نظرا لما يتمتع به الملك من مكانة داخل المجال المغناطيسي الذي يشكل هو شمسه، فإنه لا يكون في حاجة إلى أن يريد، ولا أن يفكر في المنظومة بما هي كذلك، كي يجني منافع عالم ينتظم بحيث يعود له النفع هو على الدوام. وبصفة أعم فإن المسيطرين في المجال الثقافي أو المجال الديني، كما هو الشأن في مجال السلطة، غالبا ما يكونون على عكس ما يوهمنا به الوهم اللاهوتي الذي يقول بمحرك أول، هم المعبرين عن القوى المحايثة للمجال أكثر مما يبدعون تلك القوى ويسيرونها.

كان في إمكاني أن أتناول مثال سيرك القسطنطينية كما يعرضه جيلبر داجرون في تحليله الذي أصبح الآن معروفا. فليس من قبيل الصدفة أن يمثل هذا النموذج التصويري للمجال السياسي على كل فضاء لعب يؤسس اجتماعيا فيحول الشعب المجتمع إلى جمعية شعبية بإمكانها أن تعارض مشروعية الإمبراطور أو أن تؤيدها من خلال احتفال طقوسي. هذا الفضاء المؤسساتي، حيث يحتل كل الأعضاء المجتمعين مكانهم ابتداء من الإمبراطور الذي يأخذ وضع الحكم، إلى مجلس الشيوخ والموظفين الساميين والشعب بمختلف فئاته، هو الذي يولد الخصائص التي يتصف بها من يحتلونه كما ينتج علاقات التنافس الرياضي والسياسي معا، وإن الاستقلال الذاتي لهذا الشكل الاجتماعي يتخلى في كونه "يعبر عن نفسه في مختلف أشكال الصراع" مثبطا كل جهد يحاول أن يوجد لتلك الصراعات أساسا اجتماعيا أو سياسيا محددا قارا.

كما يتضح من مثال هذه اللعبة الاجتماعية النموذجية، ليس السوسيولوجيا مطلقا فصلا من فصول علم الميكانيكا، وعن كانت المجالات الاجتماعية هي أيضا مجالات قوى إلا أنها مجالات الصراع من أجل تحويل مجالات القوى تلك أو الحفاظ عليها. وإن العلاقة العملية أو الفكرية، التي تربط الأعضاء مع الحركة الاجتماعية تكل جزءا لا يتجزأ من كل الحركة بل إنها يمكن أن تكون سببا في

تحولها. وإن أكثر المجالات الاجتماعية تنوعا، كمجال البلاط، أو الأحزاب السياسية، أو مجال المؤسسات الاقتصادية أو المجال الجامعي، لا تعمل إلا إذا وجد أعضاء يستثمرون فيها أنفسهم ويوظفونها ويساهمون فيها بثرواتهم ويتابعون مداراتها وحركاتها، عاملين بذلك، وعن طريق صراعاتهم وتنافسهم على الحفاظ على بنيتها أو على تحويلها في بعض الأحيان.

بما أنه لا مندوحة لنا عن الدخول في غمار إحدى الحركات الاجتماعية التي توفرها لنا مختلف المجالات، فلا يسعنا مطلقا أن نتساءل لماذا يوجد العمل والممارسة بدل لا شيء – إلا الذي لا يبدو بديهيا اللهم إن فرضنا أن هناك ميلا طبيعيا نحو الممارسة والعمل. يعمل الجميع عن طريق التجربة العادية أن ما يحرك الموظف السامي ويدفعه قد لا يبعث لدى الباحث أدنى إحساس، وأن ما يصرفه الفنان يظل في أعين رجال الأبناك ضمن الأمور اللامعقولة. وهذا يعني أن المجال لا يمكن أن يعمل إلا إذا وجد أفراد مهيئون اجتماعيا كي يعملوا فيه كأعضاء مسؤولين، وكي يغامروا بأموالهم ووقتهم وأحيانا برحهم وحياتهم لمتابعة جميع تحولاته وجني ثمراته التي قد تبدو من وجهة نظر أخرى سخيفة لا قيمة لها. وهذا أمر وارد ما دامت تلك الثمرات تستند إلى علاقة التضافر الوجودي بين الهابيتوس Habitus والمجال الذي يكون سبب المشاركة في اللعبة الاجتماعية.

ضمن العلاقة بين الحركات الاجتماعية وبين معانيها تتولد القيم. تلك القيم التي لا يكون لها وجود خارج هذه العلاقة، ولكنها تفرض نفسها بالرغم من ذلك داخلها بضرورة ووضوح مطلقين. هذا الشكل الأصلي للفيتيشية يوجد في أساس كل عمل و ممارسة. و المحرك – أو ما طلق عليه في بعض الأحيان الدافع – نحو العمل لا يمكن في الهدف المادي أو الغاية الرمزية للعمل كما نعتقد النزعة الغائية الساذجة، و لا في الضغوط و الإكراهات التي يفرضها المجال كما تريد النظرة الميكانيكية. إنه يوجد في العلاقة التي تربط لهابيتوس Habitus بالمجال،

و التي تجعل الأول يساهم في تحديد ما يحدده. لا وجود لمقدس إلا لمن يحس به و الذي لا يلاقيه مع ذلك إلا في تعاليه المطلق. و هذا يصدق على جميع أنواع القيم. إن الـــ Illusio بمعنى المساهمة في اللعبة و الدخول فيها لا يصبح Illusion بمعنى الخداع و الوهم، سواء في المعنى الباسكالي للهو أو في المعنى السارتري للإيمان الكاذب، إلا إذا واجهنا اللعبة من خارج، و تخذنا وجهة نظر المتفرج المحايد الذي لا يساهم بشيء و لا يراهن على شيء. و إن موقف هذا الغريب الذي يجهل أنه كذلك يدفعه إلى أن يجهل أيضا أن المساهمات و المراهنات أوهام تقوم على أسس متينة. و بالفعل فإن الميدان الاجتماعي، عن طريق ما يقدمه من حركات اجتماعية، يوفر للأعضاء المساهمين فيها أمورا أخرى غير ما يبدو أن عملهم يدور عليه، و غايات أخرى غير تلك التي يبدو أنه يسعى نحوها : و عملية الصيد هنا لا تقل قيمة، بل تزيد على ما تجنيه من ثمرات و ما تناله من فريسة. و ثمرات العمل لا تنحصر في المرامي الظاهرة التي يسعى إلى اكتساب ميزة و فضيلة و إثبات الذات كعضو فاعل، مشارك في اللعبة، منشغل، يسكن الميدان الاجتماعي الذي يسكنه العالم، و يرتمي نحو غايات و أهداف تسند إليه، موضوعيا و بالتالي ذاتيا، مهلة اجتماعية.

إن الوظائف الاجتماعية أوهام اجتماعية. وإن طقوس المؤسسة هي التي تجعل ممن تعترف له بالدخول في المؤسسة ملكا أو فارسا أو قسا أو أستاذا، فترسم له صورته الاجتماعية، وتشكل التمثيل الذي ينبغي أن يتركه كشخص معنوي أي كمكلف من لدن جماعة ناطق باسمها. ولكنها تفعل ذلك أيضا بمعنى آخر. فهي إذ تفرض عليه اسما ومنصبا يحدده ويعينه ويشكله، ترغمه أن يصبح ما هو عليه، أي ما ينبغي أن يكونه، فتلزمه بالقيام بوظيفته ويدخل في اللعبة والوهم، ويلعب اللعبة والوظيفة. عندما كان كونفوشيوس يردد مبدأ "تبرير الأسماء" مطالبا كل واحد ألا يحيد عن وظيفته الاجتماعية، وأن يعيش وفق طبيعته الاجتماعية : "وأن يعمل الملك كملك والراعي كراع والأب كأب والابن كابن" فإنه لم يكن معبرا عن حقيقة طقوس الدخول في المؤسسات. فعندما يتفانى

الموظف جسدا وروحا في وظيفته، وعن طريقها، في الجسم الاجتماعي الذي أناطه بها سواء أكان جامعة أم مدرسة أو هيئة أو جمعية، فإنه يساهم في الإبقاء على تلك الوظيفة التي وجدت قبله وتدوم بعده، والحفاظ على الجسم الاجتماعي الذي يجسدها والذي يشكل هو عضوا من أعضائه فيشاركه بذلك، خلوده ودوامه.

على الرغم من أن السوسيولوجيا ينبغي كي تتكون، أن ترفض النزاعات البيولوجية بجميع أشكالها، تلك النزعات التي تسعى دوما إلى أن تجعل من الفروق الاجتماعية أمرا طبيعيا فتردها إلى ثوابت أنثروبولوجية فهي لن تتمكن من إدراك الحركة الاجتماعية في جوهرها، إلا إذا أخذت بعين الاعتبار بعض المميزات العامة للوجود الجسدي، كأن يوجد المرء في حالة فرد بيولوجي منعزل، قائم عليها العلم والتي تأبى الأنثروبولوجيا الوضعية أن تدخلها ضمن فرضيتها. الإنسان كائن معرض للموت. تلك هي النهاية التي لا يمكن أن تكون غاية ومرمى، إنه موجود لا مبرر لوجوده، والمجتمع هو وحده الذي يزوده، بدرجات متفاوتة، بما يبرر وجوده، إنه هو الذي يخلق المهام والأوضاع التي يقال عنها إنها ذات شأن، فيولد الأعمال والأعضاء الذين يوصفون بأنهم ذو أهمية إن في نظرتهم إلى أنفسهم أو في نظر الآخرين. أولئك هم الأشخاص المتيقنون من قيمتهم، في حمى من التفاهة واللامبالاة. هناك، على الرغم مما يقوله ماركس، فلسفة للبؤس أشد قربا من حسرة العجزة المتسكعين كما يصفهم بيكيت، منهم إلى النزعة التفاؤلية الإرادية التي عادة ما تقترن بالفكر التقدمي. كان باسكال يقول ما أشد بؤس الإنسان من غير إله. وما أشد بؤس الإنسان إن ظل دون مهمة أو تكريس اجتماعيين. وبالفعل، فلن نذهب إلى القول مع دوركهايم بأن "المجمتع هو الإله". ولكن لنقل بأنه ربما لم يكن القدسي إلا وليد المجتمع. فالمجتمع هو الذي يملك القدرة على إضفاء الطابع القدسي على الأشياء فينزع عنها افتعالها وجوازها وتفاهتها. ولكن ذلك لا يكون إلا بشكل تفاصلي – وتلك هي النقيضة الأساسية - : إن كل قدسي ديني يجد اكتماله في الدنيوي، وكل امتياز يولد نقيضه. والتنافس من أجل الوجود الاجتماعي المشهور والمعترف به، ذلك الوجود الذي ينقذك من

مستوى التفاهة، هو صراع شديد من أجل الحياة والموت الرمزيين. يقول القبايل "إن تورد كلام خص معناه أن تبعثه". وحكم الآخرين هو حكم يوم القيامة. والنفي الاجتماعي هو الشكل العيني لجهنم وعذابها.

يشعر علماء الاجتماع، خصوصا إذا كانوا يعتنقون فلسفة أخروية في التاريخ، بأن المجتمع ينيطهم بمهمة، ومهمتهم هي أن يعطوا المعاني ويوجدوا الأسباب والعلل ويحدثوا النظام ويعينوا المرامي والغايات. لهذا فهم أبعد ما يكونون عن إدراك شقاء الناس الذين لا يحظون بأي امتياز اجتماعي سواء أكان ذلك الشقاء الخنوع المأساوي للعجزة الذين يهجرون ويتركون بيد الموت الاجتماعية في المستشفيات والمآوي، أو كان الخضوع الصامت للعاطلين، أو العنف اليائس لأولئك المراهقين الذي يبحثون في العمل الإجرامي عن وسيلة لبلوغ شكل معترف به من أشكال الوجود الاجتماعي. وما من شك في أن هؤلاء السوسيولوجيين، لما يشعرون به من حاجة ماسة مثل سائر الناس، لوهم المهمة الاجتماعية كي يعترفوا لأنفسهم بما تقوم عليه من مبدأ، فإنهم يجدون صعوبة في الكشف عن الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه السلطة المفرطة التي تمارسها جميع المكافآت الاجتماعية التي تدل على اعتراف بالقيمة مثل الأوسمة والميداليات، ولكن أيضا كل ما يتم عن طريقه الوهم مثل المهمات والوظائف والتكاليف والوكالة والتبريزات.

إن الرؤية الواعية لحقيقة هذه المهمات كلها وكل هذه التكريسات لا تدفع لا إلى الهجران ولا إلى التخلي والنبذ. وباستطاعتنا دوما أن نلعب اللعبة دون أوهام بفضل قرار واع متريث. وهذا ما ترغب فيه المؤسسات العادية ذاتها. نذكر ما كان أمر يفوق الكفاية أن يتوفر المرء على مبررات وأسباب للطاعة والخضوع (...) إن ما كان ينتظر منه هو بالضبط ما كان عاجزا عن أن يعطيه إنها المصادقة على الشيء دون مراعاة لحيثياته" إذا كان أولئك الذين يرتبطون بالنظام القائم، مهما كان ذلك النظام، يناصبون العداء للسوسيولوجيا، فذلك لأنها تحقق

نوعا من التحرر إزاء الارتباط الأولي بحيث تبدو المحافظة ذاتها نوعا من الردة والسخرية.

تلك هي العبرة التي يمكن استخلاصها من درس افتتاحي في السوسيولوجيا الدرس الافتتاحي. إن خطابا يتخذ ذاته كموضوع لا يلفت الانتباه إلى المحال إليه، الذي يمكن أن يستبدل بأي فعل آخر، بقدر ما يثيره إلى عملية الإحالة ذاتها، إلى ما نحن بصدد القيام به، وإلى ما يميز تلك العملية عن مجرد القيام بما نقوم به بحيث ننصهر، كما يقال، فيما نقوم به. هذا الرجوع الانعكاسي، عندما يتم عند الموقف ذاته، مثلما هو الأمر الآن في هذا الدرس، فإنه لا يخلوا من استهجان ووقاحة. وهو ينزع عن الموقف كل رونق وفتنة. فيثير الانتباه إلى ما يسعى مجرد العمل البسيط إلى نسيانه وتناسيه وهو يحصي المفعولات الخطابية والتأثيرات البلاغية التي تسعى، مثلما يتم الأمر عند قراءة توهم بأنها قراءة مرتجلة لنص هيئ من قبل، لأن تثبت لنا وتشعرنا بأن الخطيب حاضر ماثل بكتلة فيما يقوم به وإنه مؤمن بما يقوله راض كل الرضا بالمهمة التي هو منوط بها. وبهذا فإن ذلك الرجوع الانعكاسي يخلق مسافة تهدد بالقضاء على الإيمان سواء عند الخطيب ذاته أو عند جمهوره، ذلك الإيمان الذي هو الشرط الطبيعي لكي تعمل المؤسسة عملها.

وما من شك في أن هذا التحرر إزاء المؤسسة هو الوفاء الوحيد اللائق بمؤسسة حؤة كمؤسسة (الكوليج دو فرانس) التي حرصت دوما على الدفاع عن الحرية إزاء المؤسسات، تلك الحرية التي هي شرط قيام العلم، وعلم المؤسسات على الخصوص. وهذا التحرر هو ذلك علامة الاعتراف الوحيدة اللائقة بأولئك الذين حرصوا على أن يحتضنوا بين جنباتهم علما لا زال متعثرا لا يحظى برضى الجميع ومحبتهم ومن بينهم أخص بالذكر (أ. ميكيل). إن المرمى الذي لا يخلو من تناقض والذي يقضي باستغلال مركز النفوذ والسلطان لإصدار قول نافذ يحدد ماهية القول السلطوي النافذ، وبإلقاء درس حول الحرية إزاء جميع الدروس، إن هذا المرمى لن يكون نطقيا مع نفسه، بله مهددا لها قاضيا عليها، إذا

لم يكن الطموح إلى إرساء علم بالإيمان ذاته إيمانا بالعلم. فلا شيء أكثر نفاقا واستخفافا من تلك العبارات المتناقضة التي تؤكد أو تفضح مبدأ السلطة التي تمارسها هي، ولن يجرؤ أي عالم اجتماع على خرق غلاف الإيمان الذي يغلف المؤسسات الذي تسمح به السوسيولوجيا وضرورة ذلك التعميم، وإذا لم يكن معتقدا بالفضائل التحريرية لأقل السلطات الرمزية لا مشروعية وأعني العلم. وخصوصا عندما يكون العلم علما بالسلطات الرمزية في استطاعته أن يجعل أعضاء المجتمع متمكنين من قهر القيم لعليا الموهومة التي لا يفتأ الجهل يخلقها ويعيد خلقها.

المراجع

اقتصرنا في ذكر المراجع على الكتب فقط سواء ما ألفه بورديو أو ما كتب عنه ولم ندون مقالات بورديو لأن معظمها تم طباعته في العديد من كتبه أو مازالت لم تجمع في شكل كتب تتناول مواضيع محددة أما ما كتب عنه من مقالات فيعد بالعشرات وفي مختلف اللغات ويستحيل أن يسع المجال لذكرها.

مؤلفات بيار بورديو

1. *SOCIOLOGIE DE L'ALGERIE*, PARIS, PUF, 1958
2. *LE DERACINEMENT. LA CRISE DE L'AGRICULTURE TRADITIONNELLE EN ALGERIE*, AVEC ABDELMALEK SAYAD, MINUIT, 1964
3. *LES ETUDIANTS ET LEURS ETUDES ,MINUIT ,PARIS,1964*
4. *LES HERITIERS. LES ETUDIANTS ET LA CULTURE*, MINUIT, 1964
5. *L'AMOUR DE L'ART. LES MUSEES ET LEUR PUBLIC*, MINUIT, 1966, 1969, AVEC ALAIN DARBEL, DOMINIQUE SCHNAPPER
6. *LE DESENCHANTEMENT DU MOND,TRAVAIL ET TRAVALLEURS EN ALGERIE,MINUIT,1967*
7. *UN ART MOYEN. ESSAI SUR LES USAGES SOCIAUX DE LA PHOTOGRAPHIE*, MINUIT, 1965, AVEC LUC BOLTANSKI, R. CASTEL, J.-C. CHAMBOREDON
8. *LE METIER DE SOCIOLOGUE*, AVEC J.-C. PASSERON ET J.-C. CHAMBOREDON. (BORDAS : MOUTON, 1968)
9. *LA REPRODUCTION. ÉLEMENTS POUR UNE THEORIE DU SYSTEME D'ENSEIGNEMENT*, MINUIT, 1970
10. *ESQUISSE D'UNE THEORIE DE LA PRATIQUE*, PRECEDE DE *TROIS ETUDES D'ETHNOLOGIE KABYLE*, DROZ, 1972
11. *LA DISTINCTION. CRITIQUE SOCIALE DU JUGEMENT*, MINUIT, 1979
12. *ALGERIE 60, STRUCTURES ECONOMIQUES ET STRUCTURES* TEMPORELLES, EDITION DE MINUIT, 1977
13. *LE SENS PRATIQUE*, MINUIT, 1980
14. *CE QUE PARLER VEUT DIRE : ECONOMIE DES ECHANGES LINGUISTIQUES*, FAYARD, 1982
15. *LEÇON SUR LA LEÇON*, MINUIT, 1982
16. *HOMO ACADEMICUS*, MINUIT, 1984
17. *CHOSES DITES*, MINUIT,1987

18. *L'ONTOLOGIE POLITIQUE DE MARTIN HEIDEGGER*, MINUIT, 1988
19. *LA NOBLESSE D'ÉTAT. GRANDES ECOLES ET ESPRIT DE CORPS*, MINUIT, 1989
20. *LES REGLES DE L'ART. GENESE ET STRUCTURE DU CHAMP LITTERAIRE*, SEUIL, 1992
21. *REPONSES. POUR UNE ANTHROPOLOGIE REFLEXIVE*, SEUIL, 1992, AVEC LOÏC WACQUANT
22. *LIBRE-ECHANGE*, AVEC HANS HAACKE, PRESSES DU REEL, SEUIL, 1993
23. *LA MISERE DU MONDE*, SEUIL, 1993
24. *QUESTIONS DE SOCIOLOGIE*, MINUIT, 1994
25. *RAISONS PRATIQUES. SUR LA THEORIE DE L'ACTION*, SEUIL, 1994
26. *SUR LA TELEVISION*, SUIVI DE *L'EMPRISE DU JOURNALISME*, LIBER, 1996
27. *MEDITATIONS PASCALIENNES*, SEUIL, 1997
28. *CONTRE-FEUX : PROPOS POUR SERVIR A LA RESISTANCE CONTRE L'INVASION NEO-LIBERALE*, LIBER-RAISONS D'AGIR, 1998
29. *LA DOMINATION MASCULINE*, SEUIL, 1998
30. *LES STRUCTURES SOCIALES DE L'ECONOMIE*, SEUIL, 2000
31. *CONTRE-FEUX 2 : POUR UN MOUVEMENT SOCIAL EUROPEEN*, RAISONS D'AGIR, 2001
32. *LANGAGE ET POUVOIR SYMBOLIQUE*, SEUIL, 2001
33. *SCIENCE DE LA SCIENCE ET REFLEXIVITE*, RAISONS D'AGIR, 2001
34. *INTERVENTIONS POLITIQUES (1961 - 2001). TEXTES & CONTEXTES D'UN MODE D'INTERVENTION POLITIQUE SPECIFIQUE*, AGONE, 2002
35. *LE BAL DES CELIBATAIRES. CRISE DE LA SOCIETE PAYSANNE EN BEARN*, SEUIL, 2002
36. *IMAGES D'ALGERIE. UNE AFFINITE ELECTIVE*, TEXTES ET PHOTOGRAPHIES DE PIERRE BOURDIEU, PRESENTES PAR FRANZ SCHULTHEIS, ACTES SUD, 2003
37. *ESQUISSE POUR UNE AUTO-ANALYSE*, RAISONS D'AGIR, 2004

OUVRAGES SUR BOURDIEU مراجع حول بيار بورديو

1. *LA SOCIOLOGIE DE BOURDIEU. TEXTES CHOISIS ET COMMENTES*, PHILIPPE CORCUFF ET ALAIN ACCORDO, LE MASCARET, 1986 (2E EDITION : 1989)
2. *INITIATION A LA SOCIOLOGIE DE L'ILLUSIONNISME SOCIAL,ALAIN ACCARDO,LE MASCARET,1983*
3. *INTRODUCTION A UNE SOCIOLOGIE CRITIQUE,LIRE BOURDIEU,ALAIN ACCORDO,MASCARET,1997*
4. JEANNINE VERDES-LEROUX, *LE SAVANT ET LA POLITIQUE: ESSAI SUR LE TERRORISME SOCIOLOGIQUE DE PIERRE BOURDIEU*, GRASSET, 1998
5. PIERRE BOURDIEU ET LA THEORIE DU MONDE SOCIAL, LOUIS PINTO,ALBIN MICHEL, 1998
6. *LA LIBERTE PAR LA CONNAISSANCE : PIERRE BOURDIEU, 1930-2002*, JACQUES BOUVERESSE ET DANIEL ROCHE (DIR.), ODILE JACOB, 2004 (TEXTES ISSUS DU COLLOQUE INTERNATIONAL ORGANISE LES 26 ET 27 JUIN 2003 PAR LE COLLEGE DE FRANCE ET L'ÉCOLE NORMALE SUPERIEURE)
7. *BOURDIEU AUTREMENT. FRAGILITES D'UN SOCIOLOGUE DE COMBAT*, PHILIPPE CORCUFF, TEXTUEL, 2003
8. *PIERRE BOURDIEU : LES CHAMPS DE LA CRITIQUE*, PHILIPPE CORCUFF (DIR.), BIBLIOTHEQUE PUBLIQUE D'INFORMATION/CENTRE POMPIDOU, 2004 (COLLOQUE ORGANISE PAR LA BPI, LES 28 FEVRIER ET 1ER MARS 2003 AU CENTRE POMPIDOU A PARIS)
9. *BOURDIEU, SAVANT & POLITIQUE*, JACQUES BOUVERESSE, AGONE, 2004
10. LE TRAVAIL SOCIOLOGIQUE DE PIERRE BOURDIEU,BERNARD LAHIRE ,LA DECOUVERTE,2004
11. *PIERRE BOURDIEU, SOCIOLOGUE*, LOUIS PINTO, GISELE SAPIRO ET PATRICK CHAMPAGNE (DIR.), FAYARD, 2004
12. *TRAVAILLER AVEC BOURDIEU*, PIERRE ENCREVE ET ROSE-MARIE LAGRAVE (DIR.), FLAMMARION, 2004 (TEXTES ISSUS D'UNE JOURNEE

CONSACREE A PIERRE BOURDIEU A L'ÉCOLE DES HAUTES ETUDES EN SCIENCES SOCIALES LE 16 NOVEMBRE 2002)

13. *RENCONTRES AVEC PIERRE BOURDIEU*, GERARD MAUGER (DIR.), ÉDITIONS DU CROQUANT, 2005
14. *CELEBRATION DU GENIE COLERIQUE*, MICHEL ONFRAY, GALILEE, 2002
15. *LE SYMBOLIQUE ET LE SOCIAL,LA RECEPTION INTERNATIONALE DE LA PENSEE DE PIERRE BOURDIEU,EDITION DE L'UNIVERSITE DE LIEGE,COLLECTION SOCIO POLE,2005*
16. *PIERRE BOURDIEU, L'ILLUSIONNISTE, LOUIS GRUEL,PRESSES UNIVERSITAIRES DE RENNES, 2005*
17. *SOCIOLOGIE DE PIERRE BOURDIEU,LOUIS GRUEL ,PUR,2005*
18. CHARLOTTE NORDMANN, *BOURDIEU / RANCIERE : LA POLITIQUE ENTRE SOCIOLOGIE ET PHILOSOPHIE*, PARIS, EDITIONS AMSTERDAM, 2006,
19. JEAN-PHILIPPE CAZIER [DIR.], *ABECEDAIRE DE PIERRE BOURDIEU*, SILS MARIA, 2007.